المدخل التمهيدي:

كانت النظم والأنساق والمعتقدات الدينية دائما ولا تزال حتى الآن من أهم الموضوعات التي شغلت بال الكثيرين من العلماء والباحثين سواء كانوا من الأوائل أو العلماء المعاصرين ومرد ذلك إلى أن الدين يعتبر أحد الأنساق الاجتماعية الكبرى التي تؤلف نسيج الحياة الاجتماعية وتسهم في تكوين البناء الاجتماعي، إلى جانب ذلك نجد أن الدين وخاصة في المجتمعات البدائية التقليدية ذات الحضارات القديمة الراقية يؤلف الأساس الذي ترتكز عليه عناصر كثيرة من الأنساق المختلفة، فهو يتغلغل في كل المكونات الاجتماعية من غير استثناء ويطبعها بطابعه الخاص فلا نكاد نفهم أي ثقافة من تلك الثقافات البدائية والتقليدية إلا بالرجوع إلى المؤثرات الدينية التي تؤثر في الأنساق المكونة لبناء تلك الثقافات.

لقد كانت دراسة الدين والنسق الديني والشعائر الدينية محور اهتمام كثير من علماء الاجتماع كتايلور[1] ودوركايم[2]، وذلك لما يحتويه النسق الديني ليس فقط من عوامل التشويق، ولكن أيضا لأن الدين يخاطب الجانب الإنساني العميق في التكوين البشري، ولقد اهتم الانتروبولوجيون في دراساتهم للدين في مسائل معينة بالذات تدور حولها معظم كتاباتهم، مثل طبيعة الممارسة الدينية ذاتها ودرجة تأثر الأفراد أنفسهم بتلك الممارسة ومدى تعمقهم، ثم الدور الذي تلعبه القوى والعوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومدى تأثيرها في التغيرات الأساسية التي ينعكس فيها الدين على المنظومة الاجتماعية.

وصحيح أن معظم الدارسين والباحثين في الشأن الديني كانوا يهتمون بدراسة الشعائر والطقوس على اعتبار أنها مظاهر السلوك الظاهري ولكن فهم هذا السلوك أو هذه التجربة يحتاج إلى التغلغل إلى ما وراء تلك الممارسات الظاهرية العيانية للتعرف

---

[1]- تشارلز تايلور فيلسوف كندي ولد سنة 1931 اهتم بالفلسفة الأخلاقية والسياسية والتاريخ وعلم الاجتماع من أعماله هيجل والمجتمع الحديث، مصادر الأنا: تكون الهوية الحديثة، ترجمت أعماله إلى أكثر من 20 لغة.

[2]- إميل دراكاسم فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ولد سنة 1917 من أهم مؤلفاته "التربية الأخلاقية" و"في تقسيم العمل الاجتماعي" وضع لعلم الاجتماع منهجية ونظرية تقوم على التجريب والتنظير.

على الأفكار والقيم والمعتقدات و الدوافع و البواعث التي توجه هذا السلوك والتي تعكس في تلك الممارسات كتعبير ظاهري مجسد لتلك الأفكار والمعتقدات.

وتأسيسا عليه فدراسة أي نسق أو نظام ديني لن يكون دراسة علمية حقيقية إلا عن طريق الإحاطة بهذين الجانبين الظاهر والباطن مع الأخذ بعين الاعتبار الأبعاد الثلاثة التي سبقت الإشارة إليها، وربما كانت الجماعات الصوفية بتعاليمها ومعتقداتها وأنماطها السلوكية وأنساق المعرفة والمبادئ التي تقوم عليها هي خير مثال في هذا المدخل لدراسة القضايا الدينية، بيد أن الصوفي يعكس في الأصل نوع التجربة الروحية التي يمر بها المريد في سيره إلى الله وفي تجربته الروحية كما أنها تنظم له دوره الفعال في الحياة الاجتماعية ككل، ويقوم على تنظيم أعضاء الجماعة الصوفية بما يعكس نوع العلاقة بين أعضاء التنظيم والمجالات التي يحتلونها[3].

لقد تزايدت أهمية التصوف والإقبال على دراسته يوم أصبح ثابتا من الثوابت التي تحفظ للدولة أمنها الروحي واستقرارها المجتمعي، إلا أن المباحث الأصلية التأصيلية التي تكشف عن التصوف بجوانبه المختلفة وأبعاده الإشراقية ما زالت نادرة مع أن المعنيين بدراسة تعالميه كثيرون، وكان هذا دليلا مقنعا وحاجة ملحة للنداء، بزيادة الأبحاث ذات الطابع الصوفي الأصيل وبصفة خاصة على أيدي العرب والمسلمين الذين يحاولون دراسته دون وضع منهجه الذوقي تحت شروط العقل المحدودة وداخل مخبر علم النفس التجريبي، ومن ثم نرى الصوفي الحق إنسانا سويا حرا ليس بغريب كما يظن البعض أو مريضا بمرض نفسي كما يزعم بعضهم، وأيضا يقومون بدراسة الجماعة وممارستها من شعائر وطقوس والتعرف على وجهة نظر شيوخها وأفرادها أنفسهم فيما يمارسون، واختياري لشيخ الطريقة القادرية البودشيشية العلامة الدكتور جمال الدين القادري تدخل في هذا الإطار وتتغيا كشف معالم الطريقة من خلال فكره ورؤيته لمؤسسة الزاوية ودورها الروحي والمعرفي والاجتماعي داخل المغرب.

ولما كان التصوف السني أحد الثوابت التي تحفظ لدولة المغرب أمنها واستقرارها، ولما كان ثابت التصوف هو الرهان لوحدة الأمة وتماسكها لأنه حامل للقيم الخلقية التي

---

[3]- ذ. أحمد أبو زيد، مدخل لدراسة النصوص، ص 4.

تبني ولا تهدم وتجمع ولا تفرق وتوحد ولا تبدد، ولما كان التصوف السني مرتبطا بشيخ مرب مأذون له في التربية يمتلك سندا صوفيا صحيحا متواترا وهو شيخ الطريقة القادرية البودشيشية العلامة الدكتور جمال الدين القادري رمز الطريقة ومرشدها ويحمل من المؤهلات الحسية والمعنوية والصفات الخلقية العرفانية، ولما كانت الطريقة القادرية البودشيشية طريقة انتقلت من المحلية إلى العالمية وتشكل لبنة أساسية ومكونا فاعلا داخل المجتمع المغربي والأمة الإسلامية، ونظرا لكثرة المتحاملين على التصوف وأعلامه واعتباره مصطلحا مضللا على حد تعبير الكثير من أنصاف العلماء ممن تحكمهم خلفيات معينة وتحركهم نيات محددة، ولما كان الباحث في القضايا العلمية والدراسات المعرفية يتوج بحثه ومساره العلمي بأطروحة ينال بها شهادة الدكتوراة تحت إشراف ثلة من العلماء المحترمين، فإن أطروحتي حول التصوف السني ومعالم التجديد عند شيخ الطريقة القادرية البودشيشية تأتي في سياق كل هذه البواعث والدوافع ولا أدعي السبق إلى موضوع التصوف عموما ولكن قد أشرف به وأنا أسعى إلى إخراج مؤلف العلامة جمال الدين من رفوف خزانة دار الحديث الحسنية إلى معترك البحث العلمي و الله الموفق وهو يهدي السبيل.

إنني أهدف من خلال بحثي في الطريقة القادرية البودشيشية وإبرازي لمعالم التجديد في فكر شيخها الدكتور جمال الدين القادري إلى:

- اعتبار التصوف السني ثابتا يحقق الأمن الروحي والمجتمعي لدولة المغرب.
- التصوف ميسر لكل الناس يترقى به كل مسلم ومسلمة كيفما كان وضعهما داخل الأمة المغربية وغيرها.
- أهمية القيم التي يدعو إليها التصوف كعاصم من الفتن ومنقذ من الضياع.
- السلف إن لم يكونوا متصوفة بالإسم فهم داخلون في مسماه.
- إظهار المواقف الصحيحة لعلماء السلف عن التصوف بعيدا عن التلفيق والمزايدة.
- فتح آفاق معرفية جديدة للبحث والدراسة لما يستقبل في سياق البحث العلمي وفي موضوع التصوف تحديدا.

- وضع الباحث على أسس متينة من شأنها أن تصحح له بعض المفاهيم المغرضة عن التصوف والتي تبناها قطاع الطريق إلى الله، المتحاملون على هذا العلم الشريف.
- إبراز الدور الجهادي للتصوف ورجاله على مر التاريخ.
- توضيح أن علم التصوف ليس علما مستقلا عن العلوم الإسلامية كما يدعي البعض أو هو امتداد لعقائد خارجة ملة الإسلام كما يزعم آخرون.

وهذا البحث لا ولن يصل إلى درجة الكمال فتلك غاية لا تدرك في قضايا العلوم الإنسانية، فالإنسان موصوف بالنقص موسوم بالعجز، وذلك هدف لا أدعيه، لكن ملايدرك كله لا يترك جله و من لم بجد فليتواجد... فهذه مقاربة علمية لموضوع له أهمية، ودراسة لفكر شيخ بلغت شهرته الآفاق و اجتمع حوله الخاص والعام للتربية على يديه.

والحقيقة أنني واجهتني صعوبات كثيرة وأنا أبحث في هذا المجال، وذلك راجع بالأساس إلى صعوبة الحكم على التجربة الصوفية أو تقييمها بمناهج علمية محددة يقول رونالد هيبرن Ronald Hepburn في دائرة المعارف الفلسفية: (إن التجربة الصوفية تجربة دينية يصعب تعريفها وتحديد أبعادها وهذا يرجع إلى اللغة التي تستخدم لوصفها وهي الرمزية)، ونميز بين نمطين من التجربة الصوفية يتمثل النمط الأول في extravertive وفيه يوجه الشخص انتباهه كليا خارج ذاته وهذه تعرف بالنظرة الخارجية، أما النمط الثاني intérouertive ومنه يوجه الشخص انتباهه كليا داخل ذاته وهذه تعرف بالنظرة الداخلية.

وهذه الصعوبة قد استشعرها شيخنا العلامة جمال الدين في مشروعه العلمي الذي أشرف بدراسته حيث قال في مقدمة كتابه "التصوف يرتبط بالوجدان وهو تجربة شعورية عبر مسار روحي تتفتح آفاقه وتتوسع بقدر تعميق التجربة الإيمانية. ومعلوم أن ماله ارتباط بالروح والشعور والوجدان يجد الإنسان صعوبة في وصفه وفي التعبير عنه[4].

[4]- مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة، للعلامة جمال الدين القادري، ج I، ص 5.

وعليه فقد اخفقت الدراسات العلمية للظاهرة الصوفية إخفاقا ملحوظا في الوصول لحقيقة التصوف، فمعظم الدراسات النفسية الحديثة والدراسات الاجتماعية المعاصرة أفسدت الفكرة عن التصوف فسادا تاما، شأنها في ذلك شأن كل ما هو متصل بالروح والوحي والإلهام وبالدين على وجه العموم.

يعتبر التصوف أحد أهم العناصر التاريخية المشكلة للهوية والخصوصية الدينية المغربية إلى جانب المذهب المالكي والعقدية الأشعرية حيث امتزجت العناصر الثلاث منذ العصر المريني لتشكل بنية الخطاب الديني الرسمي للدولة المغربية ولعمل المؤسسات والنخب الدينية، وقد تكرست الهوية الدينية المغربية بأركانها الثلاث على المستوى السياسي بفعل تبني ملوك الدولة المغربية منذ عهد السعديين لهذا النهج خاصة وأن الانتماء لآل البيت (النسب الشريف) كان عنصرا حاسما في استقرار المغرب ككيان سياسي ونسج التحالفات الاجتماعية والسياسية بين الأسر الحاكمة والطرق الصوفية، بل وشكل فقه الإمامة العظمى ونظرية البيعة التي يعتمد عليها النظام السياسي المغربي عاملين جوهرين في بناء الدولة والمحافظة على أمنها واستقرارها.

ورغم تعدد ملامح التاريخ السياسي المغربي وتنوع أشكال النظريات الفكرية والفلسفية للتصوف الإسلامي التي ينحو بعضها نحو الغلو فقد حافظ التصوف المغربي على خصوصية السنة بإتباع طريقة الإمام الجنيد رحمه الله (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم ولزم طريقته، فإن طريق الخيرات كلها مفتوحة عليه)[5]، وقوله (علمنا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة)[6].

كما ساهم في سنية التصوف عند الطريقة القادرية في المغرب تشبعه بالمذهب المالكي الذي أثر في توجهه وأسبغ عليه لباسا عمليا جعله أكثر استيعابا وقبولا من

---

[5]- كتاب تاج العارفين، ص 152، دراسة جمع وتحقيق سعاد الحكيم، دار الشروق. وكذا الرسالة القشيرية، ص 35، نشر دار حواء ، القاهرة طبعة مكتبة الثقافة.

[6]- الرسالة القشيرية ص 35، وكذا الشعراني في الطبقات الكبرى ص 13 القاهرة ط الأولى 1425هـ/2005م، الجزء الأول الحسين احمد عبد الرحيم السايح.

عموم السالكين، إذ أن التوجه المالكي لم يكن يهتم إلا بما يفيد العمل الفقهي المبني على علوم الظاهر، والذي يعتبره الإمام مالك معيارا أساسيا لإدراك علم الباطن.

وهذا ما أثر في الخطاب الصوفي المغربي ووسمه بالبساطة والوضوح والاعتدال والبعد عن التعقيد وغلب عليه جانب الممارسة أكثر من جانب التجريد والتنظير.

وتأسيسا عليه أصبح العمل الصوفي المغربي يتميز بالحضور الوازن في جميع مناحي الحياة الثقافية والحضارية حتى أننا لا يمكننا أن لا نجد عادة في العادات المغربية الأصلية إلا وقد انطبعت بالبعد الصوفي والعمق الديني وذلك نتيجة طبيعية للمساهمة الفاعلة للمتصوفة المغاربة في الحياة الاجتماعية والعملية عبر مراحل التاريخ الممتدة منذ القرن السادس الهجري.

هذا الانسجام والتأقلم الكبير للصوفية مع الظروف الراهنة والسياقات التاريخية المختلفة وتعدد المداخل الثقافية والاجتماعية والسياسية هو الذي أدى إلى تغلغل التصوف بشكل واسع في الأوساط الشعبية بالمدن والبوادي والقبائل المغربية وإلى انتشار الممارسة الصوفية بشكل كبير، خاصة بعد ظهور التصوف المنظم المبني على مؤسسة الزاوية يقودها شيخ مرب يمتد نسبه إلى الأشراف من آل البيت النبوي، وتشكل الطريقة القادرية البودشيشية مثالا للتصوف السني المنظم المبني على إنشاء زوايا فرعية وإنشاء مدارس قرآنية ورباطات واعتكافات مع ما يواكب ذلك في إقراء الضيوف وإطعام المساكين وإيوائهم ومد يد العون للمحتاجين والتكفل بالطلبة والمتعلمين، والحض على وحدة الأمة والجهاد ضد أعداء البلاد والالتفاف حول السلطة الشرعية وإمارة المؤمنين.

أولا: الطريقة البودشيشية طريقة تبلورت إلى ظاهرة عالمية.

تأتي ظاهرة التصوف عموما سابقة على ظاهرة العولمة التي راجت وشاعت في نهاية القرن العشرين بقرون بعيدة بسبب قدرة التصوف الإسلامي على الانفتاح على شتى التيارات الفكرية والروحية والفلسفية والإفادة منها والتأثير فيها فضلا عن أن التصوف الإسلامي انفرد عن بقية الظواهر الإنسانية المرتبطة بالدين حيث تمكن من تحقيق فكرة الحوار الديني بامتياز.

ولا شك أن التصوف الإسلامي استطاع أن يحقق هذه الفضيلة الاجتماعية بحكم الإسلام وثوابته المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوة العطرة.

واتخذ التصوف الإسلامي تمظهرات وملامح جديدة ومغايرة للقرون السابقة، فأصبح للتصوف بعد نظري واضح وعميق كما كان عليه من قبل، وفي هذا يشير مؤرخو التصوف أنه انفتح على تجارب ثقافية ومعرفية متميزة ومتباينة أيضا، مما اكسبته أنماطا معرفية جديدة وعمقا وسعة وشمولية في التفكير لم يعرفها من قبل كما يرى جماعة من المستشرقين.

إذ يؤكد المستشرق جوزيبي سكاتولين[7] أن التصوف الإسلامي لا يأتي يتيما في تاريخ البشر، إنما يأتي في انسجام واسع وتناغم عجيب مع التيارات الروحية الدينية الأخرى، ويأتي كحل بين مجتمع يعج بالمتناقضات حسب قوله.

بينما أكد آخرون أنه لم تتح فرصة لأية نظرية فلسفية أو طرح ديني روحي للانتشار والتداول الشعبي بعد وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم بقدر ما اتيحت لنصوص الصوفية وأخبارهم وأقوالهم وطروحاتهم المتعلقة بالله والإنسان والطبيعة.

وللطريقة البودشيشية قصب السبق وزمام المبادرة لتحقيق هذا المقصد الرباني العام، حيث اكتسب طابع التوازي الفريد بين الفكرة والوجدان، وقلما نجد حركات دينية تجمع بين الأمرين دون أن يطغى جانب على آخر، ولعل هذا التوافق يتحقق جليا حينما ينبذ المرء الجدل ولا يقرع أبوابه ولا يسلك مسالكه مكتفيا فقط بباب العمل والاجتهاد والتدبر، والصوفي العراقي معروف الكرخي (200هـ) أشار إلى هذا بقوله: "إذا أراد الله بعبد خيرا فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرا أغلق عنه باب العمل وفتح عليه باب الجدل"[8].

وهذا الأمر ظاهر بجلاء في الطريقة البودشيشية حيث رفضت كل نزعات الكلام واللغو واللغط وفوضى الجدل.

---

[7]- مستشرق إيطالي قضى زهاء أربعين عاما من عمره في دراسة التصوف الإسلامي أو علم التصوف المقارن، له كتاب "تأملات في التصوف والحوار الديني"، ومنه اخترت مقاله.

[8]- سراج الغيوب في أعمال القلوب، عبد الكبير بن عبد المجيد علوات، تحقيق عبد الله شريف وزاني، كتاب ناشون، بيروت لبنان.

وفي المقابل دأبت الطريقة البودشيشية على إبراز التصوف السني باعتباره ثابتا من الثوابت التي تؤكد الخصوصية الدينية المغربية إلى جانب المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية التي تنتظم في سلك الإمامة العظمى.

ولتعميم التجربة الصوفية العرفانية في العالم، تنظم الطريقة البودشيشية في كل سنة ملتقى فكريا يجلي دور الديبلوماسية الروحية في نشر القيم الإنسانية عبر القيم الكونية التي تمثل المشترك الإنساني والروحي والقيمي باعتبارها جسرا حضاريا للتواصل مع الآخر.

هذه الدبلوماسية من شأنها أن تنشر الإشعاع الروحي والقيمي بين البلدان والقارات والحضارات وذلك بغية الإسهام في بناء حضارة معاصرة متوازنة وآمنة ومتعاونة ومسالمة.

ويبرز نجل شيخ الطريقة الأستاذ الدكتور منير القادري أن الملتقى الفكري والروحي الذي يستقطب كل سنة مفكرين وعلماء من مختلف دول العالم، يستلهم من القيم الإسلامية التي تنبني على أساس الرحمة والتسامح وترسيخ روح التعايش من أجل نسج خطاب إسلامي أصيل يعطي صورة مشرقة عن الإسلام والمسلمين ويقوي صلاتهم بسائر المكونات الثقافية الأخرى.

وفي هذا السياق يجمع المتدخلون في كل ملتقيات الطريقة وهم علماء يحجون من مختلف بقاع العالم، على كون التصوف يشكل مرجعا روحيا وثقافيا مهما ذلك أنه يعد من أكثر المكونات الدينية رعاية وخدمة للأبعاد الروحية والوجدانية، كما قدم طيلة تاريخه نماذج إنسانية وحضارية راقية، شكلت مرجعا قيميا وأخلاقيا وروحيا كبيرا، وكان لها الأثر البالغ في إشاعة روح التعايش والتسامح بين الأفراد والشعوب.

وفي هذا السياق يمثل هؤلاء العلماء والمفكرون بالمغرب من خلال التذكير بالدور الكبير والرائد في تفعيل الدبلوماسية الروحية في أرقى مستوياتها وذلك في سياق ما عرفه من تميز وتفرد لهذا البعد الروحي وما شكله من عمق وتجدر مكونات هويته، إذ شكل التصوف مرجعا ثقافيا وروحيا وحضاريا مهما ضمن مقومات هذه الهوية ما أعطى التجربة الدينية المغربية توازنها وخصوصيتها.

وتجدر الإشارة إلى أن الملتقى الثالث عشر- نموذجا- بسط مقدمات نظرية للعلاقة بين التصوف والدبلوماسية الروحية من خلال إثارة مواضيع تتعلق بدبلوماسية الحوار في ضوء القرآن الكريم، والدبلوماسية الروحية بوصفها رحلة نحو الآخر ونحو الذات، إضافة إلى تسليط الضوء على إسهام الإرث الصوفي في التعارف بين الشعوب، وإفشاء القيم الإنسانية النبيلة الداعية إلى التعايش والتسامح وتقبل الآخر، وترسيخ الوسطية.

كما ناقش المشاركون في الملتقى قضايا مرتبطة على الخصوص بالدبلوماسية الروحية وثقافة السلام والدبلوماسية الروحية ودورها في الوقاية من آفتي الغلو والتطرف، والدبلوماسية الروحية وتنمية الرأسمال اللامادي للشعوب، والدبلوماسية الروحية المغربية في العمق الإفريقي، والدبلوماسية الروحية والقضايا الوطنية.

يقام هذا الملتقى منذ أربعة عشرعاما في معترك مداغ محج المريدين والذاكرين ليتحقق الموازنة بين التأصيل النظري للتصوف والممارسة العملية في حضرة شيخ الطريقة رضى الله عنه، وبهذا تكون الطريقة البودشيشية أكثر الطرق خدمة للأبعاد الروحية والوجدانية لامتنا وذلك لاختصاصه بخدمة الجانب الإنساني من الدين الإسلامي المتمثل في تزكية النفس وتطهيرها والسمو بها إلى كمالات الأخلاق.

ثانيا: بين التصوف السني والمذهب المالكي

التصوف بما هو خلق يدعو إلى محبة الآخر، قادر على إرساء أفق من العلاقات جديد بين الأمم والشعوب أساسه الإخاء والتعاون والتسامح، يمتلك من القوة الروحية ما يجعله أكثر صمودا وأسرع انتشارا وتمددا، خاصة إذا علمنا أن هناك تلازما بين الحقيقة الصوفية والممارسة الفقهية.

فإلى أي حد نستطيع إثبات هذا التلازم بين التصوف السني والمذهب المالكي؟ وما هي النتائج والآثار المترتبة عن ذلك؟

يعتبر القرن الثالث للهجرة مرحلة مفصلية في تاريخ ونشأة التصوف، حيث أصبح علما مستقلا عن علم الفقه من ناحية الموضوع والمنهج والغاية... ولا شك أنه كان لحركة تدوين العلوم الشرعية التي سبقت تدوين التصوف أثر في ذلك وقد أشار إلى

ذلك ابن خلدون بقوله (فلما كتبت العلوم ودونت، وألف الفقهاء في الفقه وأصوله، والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة –يقصد الصوفية– في طريقهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله المحاسبي في كتاب "الرعاية" ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم كما فعل القشيري في "الرسالة".. وصار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط)[9].

كما يوضح ابن خلدون اختصاص كل علم بما يدخل في ماهيته ومقصده يقول صاحب المقدمة: (وصار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهو الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات، وصنف مخصوص بالقوم –يقصد الصوفية– في القيام لهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقى فيها من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك)[10].

وفي ضوء كلام ابن خلدون يجد الدارس للعلوم الإسلامية نفسه أمام جانبين متلازمين من الممارسة والعمل وإن اختلفا في الاصطلاح والتسمية، إذ أكد الطوسي في كتابه اللمع أن علم الشريعة علم واحد، وهو اسم واحد يجمع معنيين، الرواية والدراية فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة وهي العبادات والأحكام مثل الطهارة والصلاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك من العبادات وأما الأحكام فكالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض –المواريث– والقصاص وغيرها، وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب وهي المقامات والأحوال مثل التصديق والإيمان واليقين والصدق والإخلاص والمعرفة والمحبة والرضا والذكر والشكر... فإذا قلنا: علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي

[9]- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمان بن خلدون دراسة وتحقيق عبد الواحد وافي نهطة مصر للطباعة والنشر ط 4، 2006، ج3/ ص 991.

[10]- المصدر نفسه/ ج3، ص 991.

على الجارحة الباطنة وهي القلب، كما إذا قلنا علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة[11].

لقد حاول البعض أن يثير بناء على هذه المفارقة بين علم الفقه وعلم التصوف كثيرا من القضايا والشبهات منها أن الصوفية لا تهتم بعلم الظاهروتجلياته وبالتالي يرى التهاون منهم أو عدم أداء أحكامه أحيانا، والدكتور مبارك حامدي عضو مركز البحوث والدراسات في حوار الحضارات والأديان المقارنة بكلية الآداب سوسة بتونس يعتبر أن هذا القول لا يتعلق بتهاون أو حرص على الواجبات الدينية الظاهرة على النحو الذي يمارسه المسلمون وما يزالون، وإنما هو أبعد من ذلك لأنه وصول بقراءة مخصوصة لكيفية أداء العبادات ولفهم فلفستها ومقاصدها.

وساق الأستاذ مجموعة من الأمثلة خاصة ما تعلق بالعبادات وأسرارها ودلالاتها، فهو يعتبر أن المسلم العادي ينظر إلى العبادة من حيث صورتها الظاهرة، أما من ترقى في طريق الله وتشبعت روحه ليفهم العلوم فإنه من السذاجة أن تتوقع منه إيمانا كإيمان العجائز حسب قوله.

فالتميز بين العامة والخاصة وبين الظاهر والباطن وبين الشريعة والحقيقة... عند المتصوفة أكثر واقعية من التفسير النمطي الذي يسعى إليه أهل الرسوم.

على أن التمييز عند البعض اعتباري ليس إلا، ولا خلاف بين العلمين في الحقيقة، فأحدهما وهو علم الباطن ثمرة للعلم الآخر وهو علم الظاهر، ومتى تحقق العبد بالعمل بأحكام الشريعة، واتجه بقلبه نحو الله، وسلك غمار هذه التجربة الدينية فقد حصل على العلم الباطن الذي لا ينكره أحد فالشعراني في طبقاته يعد علم الباطن أو علم التقوى علما استقر في قلوب الأولياء والمقربين حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل هما انفتح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها، نظير ما انفتح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه في أحكامها.

[11]- بين الفقه والتصوف مقال حورية بن قادة، نشرته الرابطة المحمدية للعلماء في صفحتها الرقمية الرسمية.

فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس، كما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النحو[12].

وفي نفس الاتجاه ذهب الإمام القشيري في رسالته، إذ يصور العلاقة بين الشريعة والحقيقة تصويرا رائعا بقوله (الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فأمرها غير محصول... والشريعة جاءت بتكليف الخلق والحقيقة إنباء عن تصريف الحق... والشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر)[13].

والإمام الشاطبي في الموافقات يصرح بوجود فروق بين الفقه والتصوف ولكل واحد منهما خصائص تميزه عن الآخر، لكن لابد للمسلم أن ينظر إلى عمله من جهة الظاهر الذي يقتضي الإتيان به على الشكل المخصوص والهيئة الصحيحة، ولابد له أيضا أن ينظر إلى الباعث والقصد لأن العمل لا يصح إلا بالنية العملية.

بل اعتبر الإمام مالك أن التحقق لا يحصل للمسلم إلا بفقه الظاهر وسلامة الباطن، ولله دار الإمام الشافعي:

فَقيهاً وَصوفِياً فَكُن لَيسَ واحِداً فَإِنّي وَحَقُ اللَهِ إيّاكَ أَنصَحُ

فَذَلِكَ قـاَسٍ لَـم يَذُق قَلبُهُ تُقىً وَهَذا جَهولٌ كَيفَ ذو الجَهلِ يَصلُحُ

وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم، لأن صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالا وعملا وذوقا بخلاف فقيه الصوفية، فإنه المتمكن من حلمه وحاله، ولا يتم له ذلك إلا بفقه صحيح وذوق صريح.

من كل ما سبق نخلص إلى أن علم الفقه ملازم لعلم التصوف تلازم الأرواح للأجساد، ولا يصح أحدهما من دون الآخر وقد أشار إلى ذلك الشيخ أحمد زروق بقوله: صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما لا يرضاه، ولا يصح مشروط بدون شرطه (ولا يرضى لعباده الكفر)[14]، فلزم تحقيق الإيمان (وإن

---

[12]- الطبقات الكبرى للشعراني، ص 12.

[13]- الرسالة القشيرية، أبو القاسم القشيري تحقيق معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت ص 2005، ص 82-83.

[14]- سورة الزمر، آية 7.

تشكروا يرضه لكم)[15]، فلزم العمل بالإسلام، فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بتصوف وتوجه لله تعالى ولا هما –الفقه والتصوف– إلا بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما بدونه، فلزم الجمع لتلازمهما في الحكم، كتلازم الأرواح للأجساد، إذ لا وجود لهما إلا فيها، كما لا كمال له إلا بهما فافهم[16].

ولهذا التلازم بين الفقه والتصوف فقد حرص علماء المغرب على تحصيلهما وألزموا أنفسهم وغيرهم بهما، فكانا من الثوابت التي يجب مراعاتهما لتحقيق الأمن الروحي؛ ومن هؤلاء العلماء الشيخ أحمد بن عجيبة فهو من أهم علماء الصوفية الذين عرفهم القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجريين وكان من مؤلفاته التي جمع فيها بين علم الظاهر وعلم الباطن "البحر المديد" دون أن يخرج عن مقررات وأصول المذهب المالكي.

وفي نفس السياق يبرز الدكتور طه عبد الرحمان عناية المغاربة بالفقه المالكي مقرونا بالتصوف يقول: (اشتهر عن المذهب المالكي أنه مأخوذ مباشرة عن أعمال أهل المدينة، فلقد عاشر الإمام مالك هؤلاء (وهم تابعو التابعين) وعاين أفعالهم عن قرب وتأدب بأحسن آدابهم في إقامة حقوق الله ... وقد نقل عنه أهل المغرب مذهبه بنفس الطريقة التي أخذ بها هو عن عمل أهل المدينة، فكان كل جيل منهم يعاين معاينة سلوك الجيل الذي قبله، ويأخذ عنه أخذا مباشرا وهكذا صعدا إلى الإمام مالك ومنه إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم.

وإذا سلمنا بهذه الحقيقة التاريخية عن المذهب المالكي، وسلمنا بأن التصوف هو العلم الذي اختص من بين العلوم الشرعية بترتيب قوانين مراقبة السلوك، أدركنا أن يجد التصوف في بلاد المغرب التي ترسخ فيها المذهب المالكي أرضا خصبة، فتقبله النفوس عن رضى وتتطبع به جميع جوانب الحياة في هذه البلاد.

---

[15]- سورة الزمر، آية 7.

[16]- قواعد التصوف أحمد زروق (899هـ) القاعدة الرابعة، ص 45/44 تقديم نزار حمادي، المركز العربي للكتاب الشارقة..

فبهذا الاعتبار يكون التصوف بموضوعه والمالكية بمنهجها صنوان لا يفترقان إذ ينهلان من مصدر واحد ألا وهو ملاحظة العمل، وكل من ظن إمكان الفصل بينهما بالإبقاء على المالكية في صورتها الأصلية وإقصاء التصوف، فقد فاته الصواب، لأنه مهما أمعنا في إطفاء جذوة التصوف وفي التضييق على أصحابه من المالكيين، فأجأنا التصوف بالتولد من البذور العملية والآثار السلوكية التي تحملها المالكية في صلبها، فالمالكية إن صح لنا التعبير، تفرز التصوف كما تفرز الغدة مادتها)[17].

والمتتبع لمؤلف الدكتور جمال الدين القادري يدرك هذه الحقيقة بجلاء، ففي سياق حديثه عن شيوخ الطرق الصوفية يبين أنهم يستقون آراءهم الفقهية من المذهب المالكي وأن نشأة التصوف السني ودخول المذهب المالكي إلى المغرب مسألة ضاربة في التاريخ.

إن ارتباط التصوف بالتاريخ المغربي حقيقة لا يماري فيها أحد، وقد تمكنت البيئة السنية العملية بالمغرب أن تطبع تصوفها بطابعها الخاص وأن يسير التصوف بذلك جنبا إلى جنب مع المذهب المالكي[18].

ونقف مع الدكتور جمال الدين في الترجمة للشيخ مولاي العربي الدرقاوي حيث كان يتولى بنفسه رحمه الله إلقاء الدروس الفقهية على مريديه من خلال كتب الفقه المالكي مثل شروح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني وشرحي المرشد المعين لميارة الكبير والصغير وشرح الرسالة للشيخ زروق وغيرها من مصادر العلم والمعرفة.

ويورد شيخ الطريقة في المجلد الرابع من مؤلفه نبذة من سيرة الشيح الراحل سيدي حمزة ويذكر أنه أرتشف من زلال العلم من أنواع مشاربه كالاجرومية والألفية وقطر الندى وغيرها من متون قواعد اللغة والبلاغة، والمرشد المعين على الضروري من علوم الدين لعبد الواحد بن عاشر وشروحه المختلفة ومتن الرسالة لابن أبي زيد القيرواني وشروحها المتنوعة والمختصر الخليلي وشروحه والتحفة لابن عاصم وشروحها، هذا إلى جانب دراسة التفسير والحديث وغيرها من العلوم الإسلامية[19].

---

[17]- العمل الديني وتجديد العقل، د. طه عبد الرحمان، ص 192-193، مركز الثقافي العربي الدار البيضاء.

[18]- مؤسسة الزاوية بالمغرب، الدكتور العلامة جمال الدين القادري، ج2، ص 438.

[19]- مؤسسة الزاوية بالمغرب، الدكتور العلامة جمال الدين القادري، ج4، ص 889.

ثالثا: صلة التصوف بالعقيدة الأشعرية.

أسهمت العقيدة الأشعرية مع التصوف السني والمذهب المالكي في خلق انسجام مذهبي ووحدة عقدية في المغرب جنبته كثيرا من الفتن والقلاقل التي وقعت ولا تزال في كثير من البلدان في العالم الإسلامي مرجعها للخلافات العقدية والنزاعات المذهبية والطائفية أحيانا.

وإن نظرة في التاريخ الإسلامي تعطينا انطباعا على التوافق بين التصوف والعقيدة الأشعرية خاصة إذا علمنا أن كثيرا من المتصوفة كانوا أشعريين في الاعتقاد كالغزالي والباقلاني والقرافي وابن عساكر والشيرازي... وكانوا يعتبرون التصوف سلوكا والعقيدة الأشعرية منهجا عقديا، والسلوك يقوم أساسا على أحكام العقائد. وهذه الحقيقة خلافا لما ورد في كتاب "أثر التصوف على مذهب الأشاعرة" التي حاولت مؤلفته منيفة بنت خليف حمود الشمري أن تغير واقعا وتحدث شرخا بين أهل التصوف والأشاعرة، وذلك انطلاقا من محاور رسالتها خاصة في المبحث الثالث الذي وضعت له عنوان "علامة الأشاعرة الأوائل من التصوف".

قالت (وقد اتضح لي من خلال البحث والاستقراء لكتب الأشاعرة الأوائل عدم وجود أي ذكر للتصوف فيها، بل كان جل اهتمامهم الكلام عن حدوث العالم وإثبات ذلك، وعن أسماء الله وصفاته والرد على المعتزلة وغير ذلك من الأمور الكلامية)، وحتى عند النظر لتراجمهم في كتب التراجم والطبقات، لا أجد أي ذكر عندهم بل كان الكلام عن براعتهم في علم الكلام ومتابعتهم لأبي الحسن الأشعري (260-324هـ).ويمكن لي الرد على هذه الكاتب بما يلي :

أولا: ما ذكره أبو اسحاق الاسفرايني في كتابه التبصير بالدين وخاصة في الباب الخامس عشر في بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة وبيان مفاخرهم ومحاسن أحوالهم، وقسمه إلى فصول وضع فيه أصول الاعتقاد عندهم وأجاد وأفاد في أكثر من ثلاثين صفحة، ثم ذكر علومهم ومنها علم التصوف حيث قال: (وسادسها –العلوم- علم التصوف والإشارات ومالهم فيها من الدقائق والحقائق لم يكن قط لأحد بين أهل البدعة فيه حظ، بل كانوا محرومين من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة وقد ذكر أبو عبد

الرحمان السلمي من مشايخهم قريبا من ألف، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم ولم يوجد في جملتهم قط من ينسب إلى شيء من بدع القدرية والروافض والخوارج، وكيف يتصور فيهم من هؤلاء وكلامهم يدور على السلم والتفويض)[20]. فإذا كانت الكاتبة تقصد التصوف البدعي فأبو الحسن منه براء وهو ما استدركته في بعض كلامها.

ثانيا: أما الحافظ بن عساكر فذكر في التبيين بابا ذكر فيه ما عرف من أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه من الاجتهاد في العبادة ونقل عنه من التقليل من الدنيا والزهادة، وقد بدأ هذا الباب بما رواه الإمام أبو الحسن بن سمعون قال سمعت أبا عمران موسى بن أحمد بن علي الفقيه قال سمعت أبي يقول: خدمت أبا الحسن بالبصرة سنين وعاشرته ببغداد إلى أن توفي رحمه الله فلم أجد أورع منه ولا أغض طرفا ولم أر شيخا أكثر حياء منه في أمور الدنيا وأنشط منه في أمور الآخرة.

وذكر كلاما لعلي بن محمد الطبير أن أبا الحسن الأشعري كان قريبا من عشرين سنة يصلي صلاة الصبح بوضوء العتمة.

وذكر أيضا أنه رحمه الله كان يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري[21].

فيتبين بهذا أن أبا الحسن يدخل في مسمى التصوف وقد عاش بداية ظهوره كعلم قائم بذاته.

ومما يؤكد نزعة أبي الحسن الأشعري الصوفية ما ذكره أحمد الطيب بن شيخ الأزهر في كتابه: الإمام أبو الحسن الأشعري- إمام أهل السنة والجماعة- نقلا عن أبي الحسين السروي "الفصل في الكلام"، بقول: "كان الشيخ أبو الحسن -يعني الأشعري- قريبا من عشرين سنة يصلي صلاة الصبح بوضوء العتمة وكان لا يحكي عن اجتهاده شيئا إلى أحد..."[22].

---

[20]- كتاب التبصير في الدين، لأبي المظفر السفرايني (471ه) تحقيق كمال يوسف الحوت، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، طبعة عالم الكتب.

[21]- نفس المصدر، ص 142.

[22]- الإمام أبو الحسن الأشعري ومدرسته الصوفية،أحمد الطيب ص 245، الطبعة الأولى 1434ه/2014م.

ومعنى أنه يصلي صلاة الصبح بوضوء العتمة –أي العشاء– أنه يقوم الليل كله حتى الفجر مجتهدا في العبادة والصلاة والتجهد، لأنه لو أغمض عينه لحظة لكان عليه أن يجدد وضوءه كما هو معروف.

ومعنى أنه "... وكان لا يحكي عن اجتهاده شيئا إلى أحد" أي مجال العبادة والتهجد، أن العجب والغرور لا يعرفان لهما طريقا إلى نفسه بل الورع والإخبات.

ويتناول ابن عساكر ورع الشيخ أبي الحسن وحياءه وتدينه، يقول نقلا عن أبي عمران موسى بن أحمد بن علي الفقيه عن أبيه: (... خدمت الإمام أبا الحسن بالبصرة سنين وعاشرته ببغداد إلى أن توفي –رحمه الله– فلم أجد أورع منه، ولا أغض طرفا، ولم أر شيخا أكثر حياء منه في أمور الدنيا، ولا أنشط منه في أمور الآخرة..)[23].

وهذا يعني أن الإمام أبا الحسن الأشعري كان يبتعد عن الشبهات، بل المحرمات، وكان يغض الطرف عن الشهوات والصغائر، والضغائن والخصومات والعداوات، بل كان عفيف النظر سمح الوجدان والمشاعر، لا يحمل موجدة أو ضغينة على أحد، ولا يتدنى إلى مستوى الخلافات الشخصية وبغية الضغائن[24].

إضافة إلى ما سبق: "كان أبو الحسن الأشعري يأكل من غلة ضعية وقفها جده بلال ابن أبي يرده بن أبي موسى الأشعري على عقبه...".

ويعنى هذا بجلاء أن حياته رحمه الله –كانت حياة زهد وعفاف وحلال، ولا يمكن لهذا المبلغ الزهيد أن يرضي إنسانا ما إلا إذا كان شخصا اجتمعت له صفات الإمام في حياته الروحية، وأوصافه الدينية العقدية، وسلوكياته ورياضاته اليومية العملية، وإذا كان ذلك كذلك فليس تمة غرابة في أن يعده صوفية عصره –وما بعد عصره– واحدا منهم، كما عدوا فكره العقدي المذهبي معبرا عن عقيدتهم الدينية الخاصة، إلى جانب تعبيره عن عقيدة أهل السنة والجماعة[25].

وإلى جانب ذلك فإن الإمام الأشعري حين أراد أن يشارك بنصيب في مجال التراث الصوفي –على الأقل فيما وصلنا– لم ينس أنه عالم حجة من أعمدة علماء الكلام

---

[23]- نفس المصدر، ص 245.

[24]- نفس المصدر، ص 245، بتصرف قليل.

[25]- نفس المصدر ص 247.

والعقيدة أولا، ومع ذلك فإنه يقدم لنا كذلك في الوقت نفسه إشارة واضحة، وعنوان جليا لمشربه الصوفي ونزعته العرفانية[26].

ألم يظهر لها ما ذكره أبو اسحاق الأسفراييني الملقب بركن الدين في كتابه "التبصير في الدين" حيث عقدا فصلا بعنوان: من فصول المفاخر لأهل الإسلام، وبيان فضل أهل السنة والجماعة –الأشاعرة– وبيان ما اقتصد به من مفاخرهم، وعدد العلوم التي يفضلون بها غيرهم فذكر منها، علم التصوف فقال: "وسادسهم علم التصوف والاشراقات ومالهم فيها من الدقائق والحقائق، لم يكن قط لأحد من أهل البدعة فيه حظ، بل كانوا محرومين بما فيه من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة".

أما الحافظ ابن عساكر فقد ذكر طبقات الآخذين عن الأشعري والمنسبين إليه وهي خمس طبقات وفي كل طبقة يوجد علماء ينتسبون إلى التصوف فيذكر في كل طبقة عالما واحدا على سبيل المثال، ففي الطبقة الأولى يذكر عبد الله بن خفيف الشيرازي(276هـ-371هـ).

وفي الطبقة الثانية: يذكر أبا علي الدقاق النيسابوري(405هـ).

وفي الطبقة الثالثة: يذكر أبا اسماعيل عبد الله بن محمد الهروي (396هـ/481هـ) صاحب كتاب منازل السائرين.

وفي الطبقة الرابعة: يذكر أبا القاسم القشيري (376هـ/465هـ) صاحب الرسالة.

وفي الطبقة الخامسة: يذكر أبا حامد الغزالي (450هـ/505هـ) صاحب الإحياء.

ونؤكد أن هؤلاء الخمسة الذين ذكرهم ابن عساكر فيهم من كان أكثر إثباتا للصفات من غيره كابن خفيف الشيرازي والهروي (481هـ)، وأكثر المذكورين من هؤلاء كان قد قيد علمه بالكتاب والسنة إطلاقا.

وإذا ما تعمقنا أكثر ونظرنا في الخصائص التي تتميز بها العقيدة الأشعرية نجدها ظاهرة من خلال كتب علماء الصوفية الذين تبنوا هذه العقيدة، ومن هذه الخصائص:

أ- تقديس النصوص الشرعية واعتبارها المصدر الرباني للعقيدة، يقول الأشعري في الابانة عن أصول الديانة (قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها المتمثل بكتاب

[26]- يحسن الرجوع إلى نفس المصدر ص 247 فما بعدها.

ربنا عز وجل وبسنة نبينا صلى الله عليه وسلم وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل – نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبة– قائلون، ولما خالف قوله مخالفون"[27].

ب– حمل النصوص الشرعية على ظاهرها أولا وعدم اللجوء إلى التأويل إلا إذا أوجبته ضرورة تنزيه الخالق عز وجل عمالا يليق به من الصفات.

ج– تأييد معاني العقيدة التي عبرت عنها النصوص الشرعية بالبرهان العقلي الذي يكون مساعدا لمعطيات النص لا حاكما عليه.

د– إثبات الصفات الإلهية التي عبرت عنها النصوص الشرعية (القرآن وصحيح السنة) وتفويض العلم لله في الصفات الخبرية كالاستواء على العرش أي من غير تكييف ولا تمثيل ولاتحريف ولا تعطيل.

هـ– القرآن كلام الله والوحي المنزل على رسول الخاتم، قديم قدم الذات الإلهية.

و– ثبوت الرؤية لله تعالى بالأبصار في الآخرة.

ر– إثبات الغيب الذي أخبر الله عنه (الحوض– الميزان– البرزخ – الشفاعة....).

فعلم الكلام الأشعري لا يناهض حقيقة التصوف كما رأى زروق في شرح عقيدة الغزالي.

وحينما تتبعت أعلام العقيدة الأشعرية الذين سلكوا طريق التصوف وجدتهم على عقيدة صحيحة مؤصلة بالكتاب والسنة بعيدة عن العقائد الباطلة التي تبنتها فرق كلامية كالجهمية والجبرية والقدرية والباطنية....

منهجية البحث:

سأنطلق في هذه الأطروحة من رسالة شيخ الطريقة البودشيشية الدكتور العلامة جمال الدين القادري نفعنا الله بعلمه، والتي وسمها بعنوان **مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة**، والتي تظهر من أجزائها الأربعة معالم التجديد في فكره الصوفي ومقاربته العرفانية حيث تعرض للسلف الصالح المتمثل في

[27]- أبو الحسن الأشعري في كتاب الإبانة أصول الديانة دراسة وتحقيق محمد حامد محمد نسخة مضبوطة ومصححة، ص 89.

رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم وأرضاهم، من خلال ممارساتهم واقتدائهم بنبي الإسلام، وبالتالي قام بتأصيل علمي لحياة الزهد الإسلامية من منابعها، كما عرض لكثير من أعلام التصوف في تفاعلهم مع الحياة والناس، مستلهمين تعاليم القرآن والسنة فظلوا أمناء على التراث الإسلامي العظيم، يصدون به أمواج الانزلاقات والتغييرات (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)[28] ولم ينقطع بعدهم على مر العصور من يجدد لهذه الأمة دينها واضعين نصب أعينهم الحديث العاصم لهم من الزلل (تركت فيهم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله)[29].

قد يسأل سائل عن السبب في عدم انتشار الدعوة إلى التصوف في صدر الإسلام وعدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عصر الصحابة والتابعين، والجواب على هذا أن أهل هذا العصر كانوا أهل تقوى وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم برسول الله كما في حيث حنظلة الآتي ذكره.

فكانوا يتسابقون في الاقتداء به صلى الله عليه وسلم، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى تلقينهم علما يرشدهم إلى أمر هم به قائمون و في ظلاله متفيؤون، وإنما مثلهم في ذلك كمثل العربي القح، يعرف اللغة العربية بالتوارث حتى إنه لينظم القصيدة من الشعر بالسليقة والفطرة دون أن يعرف شيئا من قواعد اللغة والإعراب والنظم والبيان.

(فالصحابة والتابعون وإن لم يتسموا باسم المتصوفين–كانوا صوفيين فعلا وممارسة, وإن لم يكونوا كذلك إسما ,وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية، والإقبال على بالروح والقلب في جميع الأوقات، وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي إلى أسمى الدرجات، فهم لم يكتفوا بالإقرار بعقائد الإيمان والقيام بفروض الإسلام، بل

---

[28]- هذا الحديث روي بطرق مختلفة رقت به إلى مستوى الحديث الصحيح، رواه الإمام البخاري ومسلم وأحمد في المسند. وأخرجه البيهقي (458هـ) في السنن الكبرى الجزء العاشر ص 354 بلفظ (يرث هذا العلم... الحديث) السنن الكبرى تحقيق محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية الطعبة 1423هـ/2009م.

[29]- الحديث مأخوذ من خطبة حجة الوداع من كتاب خطب الرسول (ص) جمع محمد خليل الخطيب ص 64 طبعة دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان، وزادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسول صلى الله عليه وسلم من نوافل العبادات، وابتعدوا عن المكروهات فضلا عن المحرمات حتى استنارت بصائرهم، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم، وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم وكذلك كان شان التابعين وتابعي التابعين، وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق كما في حديث خير القرون قرني...)[30].

ويسمي الدكتور طه عبد الرحمن عمل الصحابة والتابعين بالسلف بقوله (تسلف الأوائل: فلم يكن تسلفهم نظرا في النصوص بقدر ما كان توجها إلى السلوك ومراقبة دائمة له، فقد توجه الصحابة رضوان الله عليهم إلى سلوك رسول الله، وراقبوه مراقبة مستمرة، وتفقدوا تفقدا مباشرا جميع أعماله وأغلب أحواله، حتى إنهم ربما توقفوا عن الفعل الذي أباحه لهم قولا مع تركه إياه، حرصا منهم على تقديم الاقتداء بالفعل على العمل بالقول، وقد راقب التابعون نفس المراقبة سلوك الصحابة وتابع تابعوا التابعين سلوك التابعين....)[31].

ولما كان الهدف من هذه الأطروحة الوقوف على معالم التجديد عند العلامة جمال الدين القادري كان من الموضوعي الحديث عن التصوف ومواقف الباحثين منه حسب ما جاء مفصلا في رسالة شيخ الطريقة، فأغلب هؤلاء الباحثين المعاصرين المؤيدين للتصوف الإسلامي يصفونه بأنه الثورة الروحية في الإسلام، أو أنه أروع صفحه تتجلى فيها روحانية الإسلام حيث يفسر هذا الدين تفسيرا عميقا يشبع العاطفة ويغذي القلب بدلا من التفسير العقلي للمتكلمين والفلاسفة أو التفسير الصوري للفقهاء إلى غير ذلك من عبارات تجعله في أعلى درجات الرقي الأخلاقي تصل بالمسلم إلى مقامات الربانية والصديقية على حد قول سعيد حوى[32].

وما دمت أني إزاء موضوع تعددت فيه الأبحاث وتراكمت، واختلفت فيه الآراء والنظريات بين التأييد والمعارضة، فالمنهجية العلمية تحتم علي إلقاء نظرة عامة على هذه الدراسات التي تكاد تنحصر في ثلاثة مواقف:

---

[30]- حقائق عن التصوف عبد القادر عيسى (1412ه) الطبعة الخامسة والعشرون، على نفقة أولاده.

[31]- العمل الديني وتجديد العقل، طه عبد الرحمن ص 191-192، المركز الثقافي العربي الطبعة التاسعة 1997.

[32]- ألف سعيد حوى كتابا بعنوان مدكرات في منازل الصديقين و الربانيين.

أولها: كتابات المؤيدين والمدافعين عن التصوف كالكلاباذي والسلمي والقشيري والغزالي والجيلاني، وبعد إطلاعي وتتبعي لهذه الكتابات وجدت أنها تؤيد التصوف دون التفصيل بين السيء منه وغيره.

الثاني: كتابات المعارضين للتصوف فقهاء ومتكلمين، أوائل ومعاصرين كابن الجوزي مثلا وهذا الاتجاه يفتقد للدراسة الموضوعية والنظرة العلمية الصحيحة، إلى جانب تأثره الشديد بمن اعتبر التصوف إما أهواء متبعة أو رهبانية مبتدعة، وهنا تدخل الكتابات الاستشراقية التي أشار إليها الدكتور جمال الدين وبين قصور نظرتها وسطحية تحليلها للممارسة الصوفية، وهناك من أدخل الإمام الشافعي وأحمد في هذا الاتجاه.

الثالث: الموقف الوسط ويعبر عنه أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن خلدون والشاطبي والعز بن عبد السلام وعلال الفاسي... وقد فصل شيخ الطريقة القول وعرض لأقوال هؤلاء العلماء التي وصفها بالموضوعية والوسطية، وبين أنهم يؤيدون الاتجاهات الصوفية المطابقة للكتاب والسنة، والبعيدة عن المنزلقات الفلسفية والممارسات المبتدعة.

ومن هذه الأقوال قول ابن تيمية (فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء، أو طريق أحد من العباد والنساك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطئ ضال مبتدع)[33].

والذي تجمع عليه الأمة أن القرون المفضلة التي طبق فيها الإسلام بأبعاده الثلاث (إيمان وإسلام وإحسان) هي العهد النبوي و بداية عصر الصحابة والتابعين فقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم (خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)[34].

وهذا يعني أن المسلمين في القرون الأولى قاربوا حد الكمال في فهمهم للإسلام عقيدة وسلوكا وعبادات.

---

[33]- الصوفية والفقراء، ابن تيمية، ص 17 تهذيب وتعليق طبعة دار الفكر العربي، بيروت 1993 زهير شفيق الكبي.

[34]- رواه البيهقي في السنن الكبرى الجزء العاشر ص 209.

لكن بعد ذلك تلاقت حضارة الإسلام بالحضارات الأخرى (الفرس، الروم، الهند، اليونان) فنقل المسلمون تراث هذه الحضارات وتأثروا بها وأثروا فيها، وحدث الأخذ والعطاء.

وبمرور الزمن، ضعف البعض في الأخذ بهذا المنهاج، فتشعبت بالمسلمين المسالك واختلفت بهم الطرق.

وكان من أهم النتائج المترتبة على هذا، وبعد ما كان المسلمون الأوائل يفهمون الإسلام في دائرته الكلية الشاملة –عقيدة شريعة وعبادة ومعاملة وأخلاقا، فقد انقسم المسلمون في أفعالهم، فأصبح الاتجاه العقلي الفلسفي والكلامي في جانب، والاتجاه العاطفي الوجداني في جانب، والاتجاه الفقهي في جانب وهكذا...

وبحثي هذا يتألف من مدخل تمهيدي وثلاثة أبواب وخاتمة، ضمنت في المدخل التعريف بالطريقة القادرية البودشيشية وصلة التصوف بالمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، كما ألمحت فيه إلى الأسباب والدوافع لاختيار الموضوع وكذا الأهداف والنتائج التي أريد التوصل إليها.

أما الباب الأول فوضعت له عنوان: "الطريقة القادرية البودشيشية ودورها في خدمة التصوف السني بالمغرب".

وهو يتألف من خمسة فصول تحت كل فصل مباحث، أما الفصل الأول فيدور حول السند الصوفي وأهميته في مجال التصوف.

بينما الفصل الثاني فخصصت مباحثه للإستشراق ومدارسه ورؤيتها للتصوف ومكوناته.

أما الفصل الثالث فكل مباحثه جعلتها لأعلام وشيوخ الطريقة القادرية البودشيشية.

بينما الفصل الرابع فخصصته لرؤية الدكتور جمال الدين لشيخ التربية من حيث الشروط والمعايير.

أما الفصل الخامس فكل مباحثه خصصتها لملتقيات وفعاليات الطريقة القادرية البودشيشية وكذا شهادات ثلة من المفكرين في حق الطريقة.

والباب الثاني عنونته ب: **معالم التجديد عند العلامة الدكتور جمال الدين القادري.** ويتألف من فصلين كبيرين، أما الفصل الأول فيتكون من مبحثين خصصت الأول منهما لدراسة المصطلحين: معالم- التجديد و أيضا لدراسة مفهوم التجديد ومرتكزاته ومجالاته ثم لمعالم التجدبد في فكر الشيخ جمال الدين.

بينما المبحث الثاني فجعلته لدراسة مؤلف الشيخ: مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة.

في حين جعلت الفصل الثاني لوظائف الزاوية في مؤلف الشيخ جمال الدين: من الوظيفة الإجتماعية إلى الدور العلمي والإشعاع الديني إلى الوظيفة السياسية ثم السماع ومكانه في الطريقة ثم انفتاح الطريقة على العالم -إفريقيا نموذجا-

أما الباب الثالث فوضعت له عنوان: **التأصيل العلمي لعلم التصوف وأقوال العلماء فيه عبر التاريخ ...**

ويتألف هذا الباب من سبعة مباحث خصصت كل مبحث لعلم من أعلام المسلمين وهم بالترتيب: ابن خلدون ثم أبو إسحاق الشاطبي ثم أبو الوليد ابن رشد ثم علماء بن الصديق ثم المختار السوسي ثم أحمد التوفيق ثم يوسف القرضاوي.

أما الخاتمة فكانت عبارة عن إشارات دلت على انخراط الطريقة البودشيشي في السياقات الوطنية والدولية وحضور شيخها بتواصله مع مريديه عن بعد ثم ألمحت إلى استنتاجات وتوصيات والله أسال أن يوفقني ويجعل جهدي كله في مرضاته إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الباب الأول:

الطريقة القادرية البودشيشية ودورها

في خدمة التصوف السني بالمغرب

الفصل الأول: السند.

السند في لسان العرب ما ارتفع من الأرض في قبل الوادي أو الجبل.

والجمع أسناد لا يكسر على غير ذلك، وكل شيء أسندت إليه شيئا فهو مسند.

ويسمى سندا ما يتكأ عليه كالجدار و أمثاله.

ويعرف العرب طريق متن الحديث سندا لاعتماد الحفاظ عليه في صحة الحديث أو ضعفه وقد أكرم الله هذه الأمة المحمدية بخصائص كثيرة ومزايا وفيرة منها ما يتعلق بذات الشريعة المطهرة من أنواع العبادات والمعاملات والطاعات، ومنها ما يتعلق بخدمة الشريعة ونقلها وتبليغها وتدوينها وحفظها وفي كل نوع من هذين النوعين خصائص ومزايا.

ومن أهم هذه الخصائص للأمة المحمدية خصيصة الإسناد في تبليغ الشريعة المطهرة وعلومها من السلف إلى الخلف، فقد كان الإسناد ولا يزال الشرط الأول في كل علم منقول فيها، حتى في الكلمة الواحدة يتلقاها الخالف عن السالف، واللاحق عن السابق بالإسناد، حتى إذا من الله تعالى على الأمة بتثبيت نصوص الشريعة وعلومها، وأضحت راسخة البنيان محفوظة من التغيير والتبديل تسامح العلماء في أمر الإسناد اعتمادا منهم على شيوع التدوين وثبوت معالم الدين.

وقد ترتبت عن هذا خاصية الجرح والتعديل، وهو علم تميزت الأمة بتأسيسه وإنشائه والتفنن فيه، وقد أبدع العلماء في الحفاظ على سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم من التقول والدخيل، والمكافحة للدجالين والمشعوذين والخراصين، فكان هذا العلم من أكبر النتائج النافعة التي تولدت عن تلك الحملة الماكرة على السنة المطهرة.

وتجدر الإشارة إلى أن السند أو الإسناد لم يكن يحتاج إليه إلا بعد وقوع الفتنة التي وقعت بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وظهور النزاعات والخلافات السياسية وبروز الزنادقة ومن شابههم في الإغارة على السنة المطهرة.

وعن ضرورة الإسناد قال التابعي الجليل أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي البصري (93هـ) (كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالبصرة، فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم)[35].

وقال التابعي الجليل هشام بن عروة (146هـ): "إذا حدثك رجل بحديث فقل عمن هذا؟ فإن الرجل يحدث عن آخر دونه في الاتقان والصدق"[36].

وقال الحافظ السمعاني (562هـ) (وألفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم لابد لها من النقل، ولا تعرف صحتها إلا بالإسناد الصحيح، والصحة في الإسناد لا تعرف إلا برواية الثقة والعدل عن العدل)[37]، وقال سفيان الثوري(161هـ): (الإسناد زين الحديث فمن اعتنى به فهو السعيد)[38]. وقال أيضا: (الإسناد سلاح المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل)[39].

وقال التابعي بن سيرين(729هـ) (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)[40].

وفي بيان أن الأسانيد هي الطريق إلى معرفة أحكام الشريعة قال عبد الله بن المبارك رحمه الله (181هـ): (الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)[41].

وقال الإمام الشافعي (مثل الذي يطلب الحديث بلا إسناد كمثل حاطب ليل)[42].

---

[35]– الكفاية في معرفة أصول الرواية، الخطيب البغدادي، ص 403، تحقيق إبراهيم آل بحبح الدمياطي، الطبعة الأولى 1483هـ/2003م، دار الهدى القاهرة..

[36]– الجرح والتعديل، لابن ابي حاتم 34/1، الإملاء والاستملاء للحافظ السمعاني (562هـ) ج 1، ص 104 دراسة وتحقيق أحمد محمد عبد الرحمن محمد سجود، مطبعة الحمودية .

[37]– أدب الإملاء والاستملاء للحافظ السمعاني، ج1، ص 114، وكتاب الإسناد في الدين ص 9.

[38]- كتاب الإسناد من الدين. ع الفتاح أبو غدة، ص 19 الطبعة الثالثة 1435هـ/2014م، بيروت لبنان، دار البشائر الإسلامية.

[39]– نفسه وأيضا كتاب الإسناد من الدين، ص 19 تحقيق محمد الطحان مكتبة المعارف الرباط طبعة 1403هـ/1983م.

[40]– مقدمة صحيح مسلم باب بيان أن الإسناد من الدين، ص 14، الجزء الأول ضبط وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

[41]– أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه.

[42]– دور الإسناد في الحفاظ على السنة النبوية– د. بشرى محمد أحمد، ص 7. وكتاب الإسناد في الدين ص 20 وأدب الإملاء والاستملاء، ج1 ص 117.

وقال الحاكم النسابوري (405هـ) (فلولا الإسناد وطلب هذه الطائفة له وكثرة مواظبتهم على حفظه، لدرس منار الإسلام وتمكن أهل الإلحاد والبدع منه)[43].

وقال أيضا: "مثل الذي يطلب أمر دينه بلا إسناد كمثل الذي يرتقي السطح بلا سلم"[44].

وقال يحيى بن سعيد القطان رحمه الله (198هـ): (لا تنظروا إلى الحديث، ولكن أنظروا إلى الإسناد، فإن صح الإسناد وإلا فلا تعتبر بالحديث إذا لم يصح الإسناد)[45].

ومن العلماء من اعتبروا أن الإسناد لم يكن في الأمم السابقة إطلاقا فهذا القاسمي رحمه الله يقول: (اعلم أن الإسناد في أصله خصيصة فاضلة لهذه الأمة، ليست لغيرها من الأمم، قال ابن حزم: نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم من الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل وأما مع الإرسال والاعضال فيوجد في كثير من اليهود والنصارى)[46].

وقال محمد بن حاتم بن المظفر رحمه الله: (إن الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد)[47].

وقال عبد الحي الكتاني رحمه الله، وفي شرح الاسم الثاني عشر ومائة من سراج المريدين للقاضي أبي بكر بن العربي المعافري ما نصه: والله أكرم هذه الأمة بالإسناد، لم يعطه أحدا غيرها، فأحذروا أن تسلكوا مسلك اليهود والنصارى فتحدثوا بغير إسناد، فتكونوا سالبي نعمة الله عن أنفسكم، مطرقين للتهمة إليكم وخافضين لمنزلتكم ومشتركين مع قوم لعنهم الله وعضب عليهم، وراكبين لسنتهم[48].

---

[43]– نفس المصدر.

[44]– كتاب الإسناد من الدين وصفحة مشرقة من تاريخ سماع الحديث عند المحدثين، عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثالثة 1435هـ/2014م دار البشائر الإسلامية، لبنان. وأدب الاملاء والاستملاء، ج1، ص 115.

[45]– كتاب الفوائد والفوائد الحديثة لابي التفل مسعود بن محمد الحدوش، ص 99، طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

[46]– قواعد التحديث ص 204 / والفصل لابن حزم 2/69–70 محمد جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

[47]- شروط أصحاب الحديث للحافظ الخطيب البغدادي (392هـ/463هـ)، ص 84، تحقيق عمر عبد المنعم سليم، وفيه كلام لسفيان الشوري (إنما الدين بالآثار ليس بالرأي مرنين)، ص 84، مطبعة ابن تيمية القاهرة.

[48]– فهرس الفهارس والأثبات، عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ج1، ص 80 دار الغرب الإسلامي بيروت.

ويقول أبو حاتم الرازي رحمه الله (277هـ) (لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار الرسل إلا هذه الأمة، فقال له رجل: يا أبا حاتم ربما رووا حديثا لا أصل له ولا يصح؟ فقال: علماؤهم يعرفون الصحيح من السقيم، فروايتهم ذلك للمعرفة، يتبين لمن بعدهم أنهم ميزوا الآثار وحفظوها)[49].

ولعل أعظم مثال على أهمية الإسناد عند علماء المسلمين ما تركوه لنا من التراث الضخم والهائل، وما سخروا للإسناد من ثروة علمية في كتب الرجال، وما دام أن بالإسناد يصح الحديث ويحفظ من الدخيل والزائد، اعتبر العلماء معرفته واجبا عملا بقاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

تتعدد المقاربات وتتنوع حول تأصيل السند الصوفي، لأنه يتعلق بالممارسة الصوفية التي تستلهم مقاماتها من السنة النبوية الشريفة ومن التأسي الهادي والتجلي الباني للسيرة المباركة العطرة، وبالتالي فأقوى سند للتصوف كممارسة هو صحيح الحديث النبوي وصريح سيرة سيدنا رسول الله ، فهو يمثل ثلث الإسلام بروحه وقلبه وهو الدافع الذي يسلك به المسلم مسالك العبادة ونقصد بذلك مقام الإحسان الموجود في حديث جبريل الذي رواه مسلم في صحيحه: الإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فإنه يراك)[50].

وهذا يعني أن التصوف السني ينبثق من الحديث النبوي الصحيح ومن السيرة العملية لرسول الله صلى الله عليه وسلم التي انتقلت إلى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين إلى أن أضحت علما كما العلوم الشرعية.

وحينما نستعرض تاريخ نشأة التصوف في المغرب، نجد أن جل من يتحدث عن سلاسل التصوف المغربي يربطه بالإمام أبي القاسم الجنيد (ت297هـ) والشيخ عبد القادر الجيلاني (ت561هـ) رضي الله عنهما.

---

[49]– شرف أصحاب الحديث–البغدادي ج الأول، ص 89، تحقيق عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة العلم بجدة الطبعة الأولى 1417هـ/1996م، ص 42–43– وابن عساكر في تاريخ دمشق 30/38.

[50]- الحديث أورده الإمام مسلم (261هـ) في صحيحه في كتاب الإيمان الجزء 1 ص 37 تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1412هـ/1991م.

ولا يخفى على ذوي الأفهام من العلماء الأعلام والخواص والعوام أن الأمة أجمعت على قبول طريق الإمام الجنيد بن محمد البغدادي القواريري شيخ الصوفية وسيد الجماعة فأرشدوا إلى تقليده في الطريق.

قال العلامة عبد السلام اللقاني (1078هـ) في شرح المنظومة المسماة ب"إتحاف المريد بشرح جوهرة التوحيد" الذي ضمنه مختار أهل السنة مالك بن أنس (179هـ) وباقي الأئمة المعهودين، يعني أئمة المسلمين كأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (150هـ) وأبي حنيفة النعمان بن ثابت (150هـ) وأبي عبد الله أحمد بن حنبل (241هـ)، ثم قال: مثل من ذكر في الهداية واستقامة الطريق أبو القاسم بن محمد الجنيد الزاهد سيد الصوفية علما وعملا وكان على مذهب أبي ثور صاحب الشافعي رضي الله عنه وكذا أصحابه هداة هذه الأمة التي هي خير الأمم و خيارها بعد الصحابة ومن معهم.

ومن المعلوم أن المتبع من الأصول إنما هو المعصوم صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء الأئمة رضي الله تعالى عنهم جاؤوا فقرروا أحكام الشريعة ودلوا الأمة على طريق النبي صلى الله عليه وسلم فأجمعت الأمة على الأخذ بمذاهبهم والاقتداء بهم ومنهم سيد الطائفة الصوفية الجنيد أبو القاسم رضي الله عنه وسند طريقته ينتهي من طريق الإمام الحسن البصري (110هـ) إلى الإمام علي المرتضى (40هـ) رضي الله عنه، فهل لو كان منقطع السند أو هل لو كانت أذكاره وفروع طريقته المباركة لا أصل لها في الدين يمكن أن يحصل الإجماع على قبول طريقته والأمة المحمدية لا تجتمع على ضلالة كما هو معلوم في صحيح الحديث النبوي الشريف، وقد نرى أن طرق السادة الصوفية رضي الله عنهم تنتهي أسانيدها بالطرق الموثوقة التي لا تقبل النزاع إليه رضي الله عنه وأرضاه.

والذي يعلمه الجميع علماء وغيرهم أن طريق القوم العمل بالكتاب والسنة ظاهرا وباطنا وأما من يظن أن التصوف غير ذلك فأنكره فقد انصرف إلى طريق الزيغ والابتداع وجحد حقوق أناس طهرت سرائرهم وأضاءت بنور الهدي المحمدي بصائرهم، هجروا المألوفات وأقبلوا على الله بخالص النيات وانطوى في مشربهم حال النبي صلى

الله عليه وسلم وأدبه وخلقه ومشربه، أولئك هم الصفوة الأولى، من عاداهم فقد عادى الله وباء بخزي من الله بل يحاربه الله بدليل الحديث الصحيح: (من عادى لي وليا فقد اذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه)[51] كيف لا وهم أهل الله عليهم رضوان الله ولنتدبر كيف قال الله تعالى في أهل العمى القلبي والبعد الكلي {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا}[52].

ومن المعلوم أن السند عند أهل الطرائق يفيد معرفة الاتصال التربوي الذي لابد فيه من اتصال بين شيخ وآخر، كما يحدث عند رجال سند الحديث لأجل ثبوت عدم الانقطاع.

وإذا تتبعنا أجزاء كتاب مؤسسة الزاوية بالمغرب لشيخنا الكتور جمال الدين القادري، رأينا سلسلة السند الصوفي ينتقل عبر المدارس الصوفية التي انتشرت في المغرب والتي تعرض لها الدكتور بذكر شيوخها ومريديها.

وكلهم من رسول الله ملتمس ** غرفا من البحر أو رشفا من الديم[53].

إن ما يحسم بحثنا في السند الصوفي هو كفايتنا لسند الطريقة القادرية البودشيشية حيث يؤكد شيخنا رضى الله عنه على أن الشيخ عبد القادر الجيلاني (561هـ) هو بوابة الزاوية القادرية ودليلها المرجعي وسندها الشرعي، فقد أخذ عن أبي سعيد المخرمي (513هـ)[54]، وهذا الأخير أخذ عن أبي الحسن علي بن محمد الهكاري (486هـ) الشيخ العالم الزاهد[55] أخذا عن الشيخ أبي الفرج الطرسوسي وهو تلقى ذلك عن أبي الفضل بن عبد الرحمان بن عبد العزيز التميمي، وهو تلقى ذلك عن الشيخ

---

[51]- شرح الأربعين النونية عمر عبد الجبار ص 26.

[52]- سورة الكهف آية 51.

[53]- من قصيدة البردة للإمام البوصيري.

[54]– وليس المخرومي أبو سعيد المتوفى في 94هـ، الفقيه المتحدث سيد التابعين.

[55]– تفرد بطاعة الله في الجبال وابتنى اربطة ومواضع يأوي إليها الفقراء والمنقطعون وكان كثير العبادة حسن الزهادة مقبولا وقورا.

الكبير العارف بالله تعالى أبي بكر دلف بن جحدر الشبلي، وهو تلقى ذلك عن سيد الطائفة الشيخ أبي القاسم الجنيد البغدادي وهو تلقى عن سري الدين السقطي (251هـ)، وهو تلقى ذلك عن أبي محمد حبيب العجمي المتوفى ببغداد[56] وهو بدوره تلقى عن أبي سعيد الحسن ابن يسار البصري (110هـ) وهو تلقى عن أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو تلقى عن ابن عمه سيدنا أبي القاسم النبي صلى الله عنه عن أمين الوحي جبريل عليه السلام وهو تلقى ذلك عمن {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[57].

لقد أسس الإمام الجيلاني طريقته على الكتاب والسنة ووضع لها ضوابط شرعية حتى لا يكثر الشطط والنقصان والتغيير والابتداع ويدعي المشيخة من يقدر ومن لا يقدر، ومن يعلم ومن لا يعلم، فوضع الشيخ ضوابط وشروطا ينبغي أن تتوفر في الشيخ المربي المرشد الذي يتصدر للتربية والإرشاد والأخذ بالمريد إلى طريق الحق والسداد. وهذه الشروط حوتها أبيات شعرية:

إذا لم يكن للشيخ خمس فوائد.... وإلا فدجالٌ يقود إلى جهل
عليم بأحكام الشريعة ظـاهراً.... ويبحث عن علم الحقيقة عن أصل
ويظهر للورَّادِ بالبشر والقرى.... و يخضع للمسكين بالقول والفعل
فهذا هو الشيخ المعظم قـدره.... عليم بأحكام الحرام من الحل
يهذب طـلاب الطـريق ونفسه..... مهذبة من قبل ذو كرم كلي[58]

لقد بين الشيخ في هذه الأبيات بعض شروط الشيخ المربي وهي خمس:

1- أن يكون عالماً بأحكام الشريعة والدين كتابا وسنة.

2- أن يكون عالماً بعلم الحقيقة والطريقة خبير بأحوال السالكين وتقلبات نفوسهم وطرق تزكيتها.

3- أن يكون كريماً سخياً مع مريديه وضيوفه تأسيا بسيد المرسلين عليه السلام.

---

[56]- بحثت عن تاريخ وفاته في كتب التراجم فلم أجد تاريخا محددا، وبلا شك أن وفاته تأخرت عن وفاة شيخه الحسن البصري.

[57]- سورة الشورى آية 11.

[58]- كتاب أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانشاء طريقته، عبد الباقي مفتاح ص 38، طبعة دار الكتب العلمية.
- ويكيبيديا 059 تحت عنوان: شروط الشيخ المرشد عند عبد القادر الجيلاني.

4- أن يكون متواضعاً يخفض جناحه للمسلمين المريدين.

5- أن يكون ناجحاً في تربية المريدين وتزكية نفوسهم ولن يكون له هذا إلا إذا كان قد زكى هو نفسه على يد شيخ خبير بارع وأن يكون قد أذن له بالإرشاد والمشيخة من قبل شيخه وفق سند متصل حتى لا يدعي المشيخة من هي منه براء.

ومن أقوال الشيخ المروية:

- طِر إلى الحق بجناحي الكتاب والسنة.
- أخرجوا الدنيا من قلوبكم إلى أيديكم فإنها لا تضرُّكم.
- الاسم الأعظم أن تقول الله وليس في قلبك سواه.
- لا تظلموا أحداً ولو بسوء ظنِّكم فإنَّ ربَّكم لا يجاوز ظلم ظالم.
- ليس الرجل الذي يُسلّم للأقدار، وإنما الرجل الذي يدفع الأقدار بالأقدار.
- لقمة في بطن الجائع أفضل من عمارة ألف جامع وخير ممن كسا الكعبة وألبسها البراقع، وخير ممن قام لله بين ساجد وراكع، وخير ممن جاهد للكفر بسيف مهند قاطع، وخير ممن صام الدهر والحر واقع، فيـا بشرى لمن أطعم الجائع[59].
- علامة إخلاصك أنك لا تلتفت إلى حمد الخلق، ولا إلى ذمهم، ولا تطمع فيما في أيديهم، بل تعطي الربوبية حقها، تعمل للمنعم لا للنعمة، للمالك لا للملك، للحق لا للباطل.

تجدر الإشارة إلى أن الدكتور جمال الدين أورد صفحات من مؤلفه ضمنها شهادات كثير من العلماء في الشيخ عبد القادر الجيلاني منها:

أ- قول شيخ الإسلام ابن تيمية (728هـ): والشيخ عبد القادر من أعظم مشايخ زمانهم أمرا بالتزام الشرع والأمر والنهي.

ب- قول الإمام النووي (676هـ): ما علمنا فيما بلغنا من الثقات الناقلين وكرامات الأولياء أكثر مما وصل إلينا من كرامات القطب شيخ بغداد محيي الدين عبد القادر الجيلاني، كان شيخ السادة الشافعية والسادة الحنابلة ببغداد وانتهت إليه رياسة العلم في وقته وتخرج بصحبته غير واحد من الأكابر وانتهى إليه أكثر أعيان مشايخ

[59]- هذه الأقوال وغيرها جمعتها من موقع نفحات الطريق، وهو موقع رقمي خاص بالطريقة القادرية البودشيشية .

العراق وتتلمذ له خلق لا يحصون عددا من أرباب المقامات الرفيعة... وأهرع إليه أهل السلوك –التصوف– من كل فج عميق، وكان جميل الصفات شريف الأخلاق وكامل الأدب والمروءة كثير التواضع دائم البشر وافر العلم والفعل شديد الاقتفاء لكلام الشرع وأحكامه معظما لأهل العلم مكرما لأرباب الدين والسنة. مبغضا لأهل البدع والأهواء محبا لمريدي الحق مع دوام الجهاد ولزوم المراقبة إلى الموت، وكان له كلام عال في علوم المعارف شديد الغضب إذا انتهكت محارم الله سبحانه وتعالى، سخي الكف كريم النفس على أكمل طريقة، وبالجملة لم يكن في زمنه مثله كما في بستان العارفين للنووي.

ج– قول الإمام العز بن عبد السلام (660هـ): إنه لم تتواتر كرامات أحد من المشايخ إلا الشيخ عبد القادر الجيلاني، فإن كراماته نقلت بالتواتر[60].

د– قول الذهبي (748هـ): الشيخ عبد القادر الإمام العالم الزاهد العارف القدوة، شيخ الإسلام علم الأولياء محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله ابن جنكي دوست الجيلي الحنبلي شيخ بغداد[61].

هـ– قول ابن حجر العسقلاني (852هـ): كان الشيح عبد القادر متمسكا بقوانين الشريعة، يدعو إليها وينفر عن مخالفتها، ويشغل الناس فيها، مع تمسكه بالعبادة والمجاهدة... ومن كان هذا سبيله كان أكمل من غيره لأنها صفة صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم[62].

و– قول ابن قدامة المقدسي (620هـ): دخلنا بغداد سنة أحدى وستين وخمسمائة فإذا الشيخ عبد القادر لما انتهت إليه الرياسة بها علما وعملا وحالا واستفتاء، وكان يكفي طالب العلم عن قصد غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر... وما رأيت بعده مثله ولم أسمع عن أحد يحكي من الكرامات أكثر مما يحكى عنه. ولا رأيت أحدا يعظمه الناس من أجل الدين أكثر منه.

---

[60]- سير اعلام النبلاء، الذهبي ج2 ص 443 رتبة حسان عبد المنان، طبعة بيت الأفكار الدولية.

[61]- نفس المصدر ج 20، ص 439.

[62]- قلائد الجواهر محمد بن يحيى التادفي ص 23.

ر- قول الحافظ بن كثير (774هـ): الشيخ عبد القادر الجيلي كان فيه تزهد كثير وله أحوال صالحة ومكاشفات.

ز- قول أبي سعد بن السمعاني (562هـ)عنه: إمام الحنابلة وشيخهم في عصره، فقيه صالح، دين خير، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة.

هذا غيض من فيض شهادات العلماء على اختلاف مذاهبهم وعصورهم في الشيخ الكبير عبد القادر الجيلاني الذي يرتبط به سند الزاوية القادرية البودشيشية.

ورغم تعدد الطرق الصوفية في المغرب، إلا أن عالم الاجتماع الفرنسي ادوارد ميشو بلير (1930م) حدد المراحل التي مرت بها المدارس الصوفية بالمغرب في ثلاث:

1- من الجنيد إلى الشاذلي (656هـ).
2- من الشاذلي إلى الجزولي (870هـ).
3- ما بعد الجزولي (870هـ).

وكان بلير أكثر دقة عندما جعل التصوف بالمغرب ممثلا في ثلاث مدارس:

أ- مدرسة الجنيد: يتبعها الشعيبيون والأمغاريون.

ب- مدرسة الغزالي: يتبعها الماجريون والحاحيون والأغماتيون والحنصاليون.

ج- مدرسة الشاذلي: وقد مثلها الجزولي وزروق وأتباعها.

وقد تبع الأستاذ علال الفاسي هذا التقسيم مع تعديل بسيط عندما جعل المراحل أربعة:

1- من الجنيد والبسطامي إلى عهد أبي مدين والجيلاني.
2- من أبي مدين إلى ابن مشيش والشاذلي.
3- من الشاذلي إلى الجزولي.
4- ما بعد الجزولي[63].

ولكل مدرسة من هذه المدارس سندها أو أسانيدها الصوفية الموصلة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فالمدرسة الجنيدية تعددت أسانيدها وكلها ربطت الجنيد برسول الله

[63]- التصوف اللإسلامي في المغرب علال الفاسي، ص 44.

صلى الله عليه وسلم عن طريق كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعلي وعبد الله بن مسعود، وقد أورد صاحب "كتاب المواهب القدسية" محمد بن عمر بن إبراهيم الملالي[64](897هـ) ستة أسانيذ نكتفي بذكر أشهرها وأكثرها تداولا:

- عن خاله السري السقطى.
- عن داوود الطائي.
- عن معروف الكرخي.
- عن حبيب العجمي.
- عن الحسن البصري.
- عن علي ابن أبي طالب.
- عن الرسول صلى الله عليه وسلم[65].

وتتجمع أسانيذ الطرق الصوفية المغربية عند الجنيد لتتفرع بعد ذلك، إذ لا نكاد نجد طريقة لا تتصل بها إلا نادرا، وحتى في هذه الحالة غالبا ما تتوفر هذه الطريقة على سند ثان يوصلها إلى الجنيد.

مما يفسر حرص هذه الطرق على أن تكون سائرة على نهج السنة المحمدية لشهرة الجنيد بذلك.

ومن الصعب الإحاطة بأسماء كل الذين أخذوا عن الجنيد وأسانيدهم، لذلك سأركز الحديث على ما يهمنا من هؤلاء وهم الذين ذكرهم الدكتور جمال الدين القادري، وأسانيدهم عالية إلى أبي مدين (594هـ) عبر شخصيات كان لها أكبر الأثر في التصوف وهي: ابن حرزهم رأس المدرسة الغزالية بالمغرب:

- عن عمه صالح بن حرزهم (وأبي بكر بن العربي).
- عن الإمام الغزالي (505هـ).
- عن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني (478هـ).
- عن أبي طاهر المكي.

---

[64]- لازال مخطوطا أطلعت عليه بتقنية pdf.

[65]- مؤسسة الزاوية.

- عن الجنيد[66].

أما السند الثاني: أخذ عبد القادر الجيلاني رائد الطريقة القادرية.

- عن أبي سعيد مبارك المخزومي(513هـ).
- عن أبي القاسم القرشي.
- عن أبي الفرج محمد التميمي.
- عن أبي بكر الشبلي.
- عن الجنيد.

ويوصل صاحب المواهب القدسية الجيلاني بالجنيد بالسند الثاني:

- عن أبي سعيد العكاري.
- عن أبى الفرج الطرطوشي.
- عن أبي الفضل الهندي.
- عن أبي بكر الشبلي.
- عن الجنيد.

نستخرج سندا ثالثا أشار إليه الدكتور جمال الدين القادري، ويتعلق بأبي يعزى النور (572هـ) حيث أخذ عن:

- أبي شعيب أيوب بن سعيد أيوب بن سعيد الصنهاجي (مؤسس الطريقة الشعيبية).
- عن أبي ينور عبد الله الدكالي الأغماتي.
- عن أبي الفضل عبد الله الجوهري.
- عن أبي بكر الدينوري.
- عن أبي الحسين بن محمد النوري.
- عن الجنيد.

نخلص من خلال هذا العرض للنتائج الآتية:

[66]– أنس الفقير وعز الحقير بن قنفد (810هـ) تحقيق محمد الفاسي، ص 93، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي.

1- يعتبر السند الصوفي إطارا مرجعيا للممارسة الصوفية وأداة أوصلت إلينا الميراث النبوي الشريف.

2- إذا كان السند في علم الحديث هو الطريق الموصل إلى أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، فإن السند في علم التصوف هو السبيل المؤدي إلى أفعال النبي صلى الله عليه وسلم وتقريراته وأحواله التي توارثها أعلام كل جيل من المسلمين بدءا بالصحابة والتابعين فتابعيهم إلى اليوم.

3- نتج عن تعدد الأسانيد الصوفية بروز مجموعة من المدارس التي انتشرت في المغرب وكان لها نفوذ وإشعاع في مناطق متعددة من البلاد.

4- كل رجال الأسانيد الصوفية عدول وأهل تقوى وورع، شهد لهم بذلك أهل العلم قديما وحديثا، مسلمون ومستشرقون، خلافا لرجال الأسانيد الحديثية ففيهم العدول وفيهم المتروكين والمتكلم في عدالتهم وضبطهم بشهادة المحدثين أنفسهم كالذهبي والشوكاني وغيرهما.

5- يتضح من خلال عرض الأسانيد الصوفية أن الطريقة القادرية البودشيشية طريقة مبنية على الأصول الواضحة من الكتاب والسنة مما جنبها خطر الوقوع في المزالق العقدية والخوض في التأويلات الفرعية في ظل راهنية الأحداث وسرعة الإستقطاب، الشيء الذي جعلها تتوسع وتنتشر في شتى بقاع العالم كما أكد على ذلك المفكر يوسف زيدان وغيره.

6- الزاوية القادرية البودشيشية مؤسسة تتفرع عن السند الصوفي النبوي، فمن حيث التسمية الأولى فهي ترجع إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (470هـ) أي أن التسمية الأولى ترجع إلى القرن الخامس الهجري، أما التسمية الثانية "بودشيشية" فظهرت بعد أن انتقلت فروع القادرية إلى المغرب، وقد ظهرت هذه التسمية بالضبط في حياة الشيخ علي بن محمد أحد أجداد الشيخ جمال الدين القادري بودشيش (الشيخ الحالي للطريقة) دلالة على الإطعام الذي لازال معروفا وسنة متعبة إلى اليوم.

7- لما كان سند الطريقة القادرية البودشيشية سندا متصلا بالدوحة النبوية الشريفة، فقد عرفت الطريقة التربية الروحية منذ نشأتها، إلا أنها كما هو معلوم في

تاريخ التصوف، كانت تحتاج أحيانا إلى ما يسمى بالتجديد الروحي وهو ما وقع في مراحل متعددة من تاريخها، إلا أن أبرزها ما قام به الشيخ سيدي بومدين بن المنور من خلال قيامه بالبحث عن شيوخ التربية عبر التراب المغربي وخارجة والأخذ عنهم.

8- إن أهم تجديد تعرفه الطريقة القادرية البودشيشية، هو التجديد الذي برز حاليا على يد شيخها أبو منير جمال الدين القادري -وقبله سيدي حمزة رحمه الله-. فقد أصبح للطريقة بالإضافة إلى البعد الوطني الذي شمل الطاقات الشابة والفئات العالمة والمثقفة، بعد عالمي واسع إذ أصبحت الطريقة تساهم في هداية القلوب إلى الإسلام ليتشبع المهتدون بهديها بعد ذلك بروح الإسلام في مقامه الإحساني الذي هو التصوف وذلك اعتمادا على المنهج النبوي في التربية الروحية.

وهكذا وتحت رعاية الشيخ سيدي جمال القادري أصبحت الطريقة منتشرة عبر بقاع العالم، وأصبحت لها فروع وزوايا بأوروبا وأمريكا وآسيا واستراليا بالإضافة إلى عمق أفريقيا.

9- من معالم التجديد عند شيخ الطريقة القادرية اليوم منهجه القويم في تربية المريد وجعله صوفيا ابن وقته، يشارك الناس في متطلبات الحياة إلا أنه يتميز بنظرة خاصة للحياة تجعله مراقبا لله ومستحضرا له في كل أوقاته، وهذه النظرة تجعله فاعلا ومنتجا ومتخلقا في الوقت ذاته في أي موقع من مواقع المهام أو المسؤولية ونلمس هذا من خلال كلمته الجامعة احتفالا بالمولد النبوي هذه السنة والتي سنفصل فيها الحديث في الفصول القريبة الآتية بحول الله.

وتأسيسا عليه يحصل للمريد وعي جديد ومتجدد بوجود سير روحي بمقارنته بين حالتين: حالته التي كان عليها من الغفلة عن الله قبل السير في سلك التربية الروحية، وحالته بعد الذكر والتي يشعر فيها باتصال روحه بعالم نوراني تترقى فيه روحه من حالة إلى حالة ومن مقام إلى مقام وبالتالي فاستفادة المسلم من التصوف أصبحت ضرورة شرعية وواقعية، فهو يحقق له التوازن بين متطلبات النفس ومتطلبات الروح والذي بدونه يختل الوجود الإنساني ويصبح مصدر قلق واضطراب.

فمهمة التربية بتأمينها غذاء يوميا للروح والذي يتمثل في أنوار الذكر تضمن للروح توازنها دون أن تصرف الإنسان عن تلبية المتطلبات المشروعة لنفسه.

10- يتبين من خلال سند الطريقة القادرية البودشيشية أنه لا يمكن اختزال الزاوية في الشيخ ومن سيكون بعده، لأنها امتداد تاريخي أقدم من زمن الشيخ وأبنائه، ولو أنه في عهد الشيخين الجليلين سيدي حمزة و سيدي جمال الدين عرفت الزاوية انتشارا وإشعاعا لم تعرفه من قبل، أقله تحولها من المحلية إلى العالمية، وتكاثر عدد الأتباع داخل وخارج المغرب والاتجاه إلى البعد المؤسساتي وتوزيع المهام وتنظيم المسؤوليات وإحداث مؤسسة المشيخة...

وبالتالي حضيت الزاوية بشهرة كبيرة تعلق الأمر بالمشيخة والمريدين التابعين لها وأهل الفكر الذين يؤطرون ملتقياتها وضيوفها الذين يحضرون لياليها...

إن تحول الزاوية من المحلية إلى العالمية لم يأت بين عشية وضحاها، ولم يكن ذلك بتمويل ودعم ماليين كما عرفته بعض التيارات الدينية... فالفرق مختلف على اعتبار أن التصوف يرجع انتشاره إلى العامل الخلقي والروحي واعتماده أساسا على أخلاق المعاملة وليس أخلاق التحريم والتكفير والدعوة التقليدية السائدة لدى التيارات والحركات الإسلامية (السلفية والوهابية والإخوانية) والتي تنهل من مرجعيات راديكالية.

الصوفيون متصالحون مع ثقافات وهويات الشعوب، وهنا يكمن التأثير الإيجابي والقبول الصادق الذي حظيت بهما الطريقة القادرية البودشيشية في الداخل والخارج.

الفصل الثاني: الدراسات الاستشراقية حول التصوف بين الأمس واليوم.

خصص العلامة الدكتور جمال الدين في كتابه مبحثا طويلا لدراسة المستشرقين للتصوف، واعتمد تحديدا على ما كتبه المستشرق الانجليزي نيكلسون (1945م) Nichlson الدارس المتخصص في التصوف والأدب الفارسي ويعتبر من أفضل المترجمين لأشعار جلال الدين الرومي (672هـ) وله مقالات كثيرة في دائرة المعارف الإسلامية وكتابه في التصوف الإسلامي و تاريخه الذي نقله أبو العلا عفيفي إلى العربية ينم عن تمكن هذا العالم من موضوع التصوف عموما كما أنه جدير بالدراسة

وقد اطلعت على فقرات من كتابه "في التصوف الإسلامي وتاريخه" فتكونت لدي قناعة أنه يتناول موضوع التصوف بطريقة معمقة قل نظيرها عند المستشرقين قبله و بعده.

واعتمدأيضا على المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (1962م) Massignon من أكثر مستشرقي فرنسا وأشهرهم كان يتقن خمس لغات إلى جانب لغته الأم، بحث في كثير من العلوم الإسلامية لكن أشهرها التصوف، فدرس الحلاج دراسة مستفيضة وكتب عن أبي سعبين (669هـ) وعن الصحابي الجليل سلمان الفارسي (33هـ) وأصدر "حوليات العالم الإسلامي حتى عام 1954م".

مع إشارته إلى المدرستين الاستشراقيتين: الفرنسية والإسبانية وكيف كانتا تربطان الزهد بالتصوف ولا تحددان الفروق بينهما شأنهما في ذلك شأن المستشرقين السابقين...

لكن هل تنحصر الدراسات الإستشراقية للتصوف في هذا المبحث الشائك أحيانا والملتبس أخرى؟ أم أننا أمام منهج شامل من قبل المستشرقين لما يتعلق بالمشرق والمغرب، والتصوف نموذجا؟

لا شك أن اهتمام المستشرقين بالتراث العربي الإسلامي تعود جذوره إلى زمن بعيد، فمنذ أن ظهرت نشاطاتهم وبدأت تهتم بالإسلام والعلوم الإسلامية، أخذ التصوف مكانه من ذلك الاهتمام، وعلى الرغم من اختلاف مناهج المستشرقين فيما بينهم إلا أن التيارات الاستشراقية التي تناولت الفكر وميادين توسعه في المجتمع الإسلامي كانت واضحة المقاصد والغايات.

ولعل الغاية التي دعت الدكتور جمال الدين إلى إيراد هذا المبحث تتجسد في تصحيح النظرة الغربية التي أخذها المستشرقون عن الإسلام وبنوا عليها آراءهم وطعوناتهم فيه، فالبحث يستدعي ذلك خاصة وأن الطريقة القادرية أصبح لها بعد عالمي وإشعاع في الوسط الغربي كما يعلم الجميع.

إن الغرب يمتلك صلات قديمة مع الشرق، تلك الصلات ولدت بمرور الوقت تصادما ثقافيا واضحا كان هدفه في البداية دينيا يتمثل في دور الكنيسة ورجال الدين بالتثقيف ضد الإسلام عوض أن يكون تثاقفا إيجابيا، وبمرور الزمن أصبح سياسيا

استعماريا يهدف إلى السيطرة على الأفكار وزرع التفرقة في وحدة الصف الإسلامي والتخويف من الدين الإسلامي (الإسلاموفوبيا).

لقد أثر هذا الصراع على كتابات المستشرقين حيث أصبحت تتجه إلى دراسة الإسلام دراسة ممتدة من واقع الحقد والبغضاء للإسلام وفرقه دون تمييز بين البدأ و الممارسة، وقد أخذ التصوف الإسلامي نصيبا من ذلك، حيث أرجعوا بداياته إلى الرهبنة المسيحية وربطوا أفكاره بأفكارها أو على الأقل ربطوه بالزهد في أبعاده السلبية (الإنعزال–الإنزواء– التطرف..).

لقد تناول المستشرقون من علماء أوروبا وأمريكا الإسلام وحضارة الشرق بالدراسة من نواحي مختلفة، وكان بعضهم ممن ملكه الهوى فأضله على جهل أو علم فاعتبر المسلمين أعداء يقفون على حدودهم ويهدودن ثقافاتهم، ومنهم من آثر أن يكون منصفا يصدع بالحق متى هدي إليه بعد البحث والتنقيب.

ومهما يكن من أمر فإن الدراسة الاستشراقية التي تتميز بالجد والعمق للإسلام لم تبدأ إلا منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وكان التصوف ولازال يتبوأ مكانة هامة لدى كل المدارس الاستشراقية نظرا للدور الفكري الذي يؤديه في تاريخ الإسلام، وبالتالي أخذت أقلام رواد هذه المدراس بالكتابة عنه وعن أصوله وأهم شخصياته ودرسوها دراسة مستفيضة فكانت أقلامهم موحدة وغاياتهم شتى وأغراضهم بعيدة عن واقع حال التصوف.

ولاشك أن مسارهم في البحث غير واضح وطريقهم غير مأمونة كما هو معروف لديهم، إذ التصوف عندهم حاول أن يحل محل الفلسفة وعلم الكلام كما يمتاز بنوع خاص من المعرفة لا نجدها في الأنواع الأخرى من الفكر الإنساني والإسلامي.

فالتصوف حسب رؤية شيخ الطريقة وغيره هو معرفة ذوقية تجريبية يصعب على كل دارس يعتمد المقاربة التجريبية في بحثه.

يمكن تقسيم الدراسات الاستشراقية من حيث الزمن إلى مرحلتين:

1) مرحلة الدراسة الشخصية: تذكر المصادر أن أول نص وصل إلى الغرب عن التصوف الإسلامي وأول دراسة له هو نص رابعة العدوية في القرن الثامن الهجري

عن طريق المستشرق الفرنسي GONEVEIL، بعد هذا العمل بدأت عملية الترجمة تنشط في الوسط الأوروبي خاصة الشعر الصوفي كشعر ابن الفارض (1235هـ) الذي نشره فايبرتسيو Fabriciue وكذا قصائد حافظ الشيرا زي (792هـ) وأشعار عمر الخيام(1040هـ).

ويعتبر القرن التاسع عشر هو ذروة تطور نشاط الاستشراق، ففي هذه الحقبة بدأت أوروبا مرحلة جديدة متمثلة بتطلع الغرب نحو الشرق، وقيام الرحلات لاكتشاف آفاقه وترجمة الكتب المتعلقة به، وقد تم طبع العديد من الأعمال العلمية عن تاريخ التصوف الإسلامي وهو الأمر الذي مكن علماء الغرب تدريجيا من الحصول على صورة أوضح عن بدايات تطور التصوف الإسلامي.

وقد توجت هذه المرحلة بتأليف كتب ورسائل حول التصوف الإسلامي يمكن رصدها حسب الترتيب الزمني:

* كتاب "التصوف أو فلسفة وحدة الوجود" للعالم الألماني طولوك Tholuk.
* كتاب "باقة زهور من تصوف الشرق" للعالم ذاته.
* كتاب "التصوف في المشرق"، للمستشرق بالمر Palmar (1898م).

2) مرحلة المدارس الاستشراقية وأبعادها ومناهجها:

حينما تتبعت كتابات الدكتور جمال الدين حول هذا المبحث، وجدته يدافع بشكل مستميت عن مجموع من القضايا والشبهات التي أثارها المستشرقون الذين أصبحوا يتزعمون مدارس استشراقية دافعها مذهبي أو ديني، الشيء الذي جعل كتاباتهم تجانب الصواب والمنطق، فأدخلوا في التصوف ماليس منه وخلطوا فيه الحابل بالنابل و وشطحوا بفكرهم حول أصوله وأبعاده.

لهذا فالدكتور يشير إلى أخذ الحيطة والحذر الشديدين حينما نبحث عن التصوف من مدارسهم وكتبهم دون مقارنتها بما في المكتبات الإسلامية من مراجع وأصول.

ومن القضايا التي وقف عندها شيخ الطريقة القادرية ربط التصوف بالمسيحية من حيث الأصل والممارسة، أو التأثير والتأثر، فقد ذهبت كثير من المدارس الاستشراقية إلى أن التصوف حركة كانت ملازمة لحركة النسك إلى حد تأثرها بالنصرانية

والمسيحية، وهذا موقف يهدف إلى ربط التأثير الصوفي في المعتقدات الغربية (المسيحية) وقد دعم هذا الموقف الكثير من المستشرقين ولعل مقولة الغرب "إن التصوف نبتة غربية في صحراء الإسلام" خير شاهد على ما نقول.

وهناك رأي آخر في تفسير أصل التصوف يرى أنه ظهر نتيجة التأثر بالآراء الهندوسية ولعل أول من نادى بهذا الرأي المستشرقان "فون كريمر" (النمسا 1889م) و"رينهارت دوري" (1883م) وتبعهما المستشرق جولد تسيهر (1340هـ) إذ يرى أننا حينما نلقي نظرة على تاريخ التصوف لا يمكن أن نتجاهل هذه المؤثرات بصفتها عوامل ذات أثر نافع وأقصد بها الموثرات الهندية[67].

بل من المستشرقين ممن يذهب إلى أبعد من هذا حينما يدعي أن التصوف تجربة مقتبسة من حضارات وأفكار ورؤى سابقة عن الإسلام وفلسفات صارت في عمق التاريخ الديني وبالتالي فالحقيقة الثابتة لديهم أن التصوف تأثر في نشأته بالأفلاطونية الحديثة القديمة[68]، ويرد الدكتور جمال الدين هذه المواقف والحقائق عند أصحابها إلى الخلفية التي استلهم منها المستشرقون مواقفهم والتي كانت سببا في مجانبتهم الموضوعية والصواب.

رب سائل يسأل: أي تصوف يتحدث عنه هؤلاء المستشرقون التي تستحكمهم نزعات كاتوليكية أو بروتستانتية أو أرتدوكسية؟؟

هل هو التصوف السني الذي يتعرض له شيخ الطريقة بالدراسة؟ أم هو تصوف الشطحات الفكرية والانزلاقات الفلسفية؟

هل من الموضوعية أن نسمع لمن يدعى أن الحلاج مسيحي ثان جاء ليتمم عمل المسيح في هذه البقعة من الأرض التي لم تعرف المسيح عليه السلام؟

يلاحظ أن الدكتور العلامة جمال الدين ليس في موقف دفاع حتى يقارن بين التصوف السني الذي يدعو له وله الإذن في تربية المريدين عليه وبين التصوف الذي تتناوله هذه المدارس الإستشراقية، ولا مجال للمقارنة إذ لا قياس مع وجود الفارق.

---

[67]– جهود المستشرقين في دراسة تاريخ التصوف.. زهير عليوي يوسف الجيدري، ص 5.

[68]– الأفلاطونية الحديثة: هي محاولة فلسفية لا يجاد محيط يدخل فيه ما نقل من الآراء الفلسفية والدينية الإغريقية أو الشرقية الأصل، وقد ظهر هذا النوع في القرن الثالث الميلادي نتيجة امتزاج عدة فلسفات أو أفكار أو ديانات.

أَلَمْ تَرَ أنَّ السَّيْفَ يَفقدُ قدْرُهُ إذا قيل إنَّ السيفَ أمضى من العصا

وأقل من المواقف السابقة للمستشرقين، نبه الدكتور جمال الدين إلى إشكالية طرحها الفكر الغربي مرتبطة بالتصوف ألا وهي هل التصوف هو الزهد؟ أو أنه أعم من ذلك؟

ونظرا لأهمية هذا الموضوع فقد خص له شيخ الطريقة مبحثا خاصا ضم إثني عشر صفحة حوت ردودا موضوعية منه ومتوسلا في سياق ذلك بآراء العلماء على اختلاف حقبهم ومذاهبهم.

استهل الدكتور هذا المبحث وتفكيكا للإشكالية بالمستشرق المجري جولد تسيهر لأن هناك إجماعا بين الباحثين الغربيين على أنه أول من وضع التخطيط العام لفكرة تقسيم الحياة الروحية عند المسلمين إلى زهد وتصوف[69]، ثم تابعه في ذلك آخرون.

وما يضر لو كان الزهد هو التصوف، أو التصوف هو عين الزهد، لكن الأمر أبعد مما يتصور المسلم، لأن إثارة مثل هكذا أمور تكون من ورائها أهداف مبيتة وغايات مبطنة لا يدركها إلا أولوا النهى والدكتور جمال الدين يعتبر أن هذه الفكرة تأثر بها مفكرون مسلمون[70] كمحمد أركون.

بل من المستشرقين من اعتبر الزهد حركة سياسية ودينية ارتبطت بأحداث معينة كما يدعي نيكلسون بقوله: (وقد انفرد القرن الأول في الإسلام بالعوامل الكثيرة التي شجعت على ظهور الزهد وانتشاره، فالحروب الأهلية الطويلة الدامية التي وقعت في عهد الصحابة وبني أمية، والتطرف العنيف في الأحزاب السياسية، وازدياد التراخي والاستهانة في المسائل الخلقية، وما عاناه المسلمون من عنف الحكام والمستبدين الذي يملون إرادتهم وآراءهم الدينية على غيرهم ممن أخلصوا في إسلامهم، ورفض هؤلاء الحكام علانية كل فكرة تتصل بالخلافة الدينية التي حاول المسلمون إرجاعها.

كل أولئك عوامل حركت في نفوس الناس الزهد في الدنيا ومتاعها، وحولت أنظارها نحو الآخرة، ووضعت آمالهم فيها، ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة،

---

[69]- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي الشار، 64. ومقدمة كتاب في الصوف الإسلامي وتاريخه الصفحات الأولى 1-2-3-4.

[70]- يرجى الرجوع إلى الفكر الإسلام نقد واجتهاد محمد أركون ص 131–134، وكتاب القرآن والحديث، إبراهيم عوض د. أبو العلاء عفيفي، ص 46.

وانتشرت على مر الأيام، فكان زهدا دينيا خالصا، بادئ الأمر، ثم دخل إليها بالتدريج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت في النهاية إلى أقدم صورة نعرفها عن التصوف الإسلامي، وظلت هذه الحركة تحمل طابع مذهب أهل السنة الدقيق طيلة حكم بني أمية، أي نحوا من قرن من الزمان (661هـ/850هـ) وكان القائمون عليها من أشهر أتقياء المسلمين، بل كان منهم القراء وأهل الحديث وعلماء الدين، ومن هؤلاء جميعا استمدت قوتها وشبابها)[71].

وهكذا يذكر الدكتور جمال الدين في مؤلفه مؤسسة الزاوية بالمغرب تناقضات المستشرقين أمثال نيكلسون وماسنيون، وأنهما حاولا أن يحدثا قطيعة بين الزهد كممارسة مقتبسة وبين التصوف الذي ظهر في قرون متأخرة وعليه يسهل ربط الزهد برهبانية المسيح أو عبادة اليهود يقول المستشرق أوليري في كتابه "الفكر العربي ومكانه في التاريخ" ناقلا عن فون كريمر: "إن هذا الفريق من الزهاد أو النساك كان ذا نمو محلي بين العرب تطورت به مؤثرات مسيحية مما قبل الإسلام، ونحن نعلم أن الرهبانية المسيحية كانت معروفة لدى العرب على تخوم الصحراء السورية، وفي صحراء سينا، ويحتمل حقا أن الذي أوحى بالنسك إلى النساك الأولين في الإسلام هو الأديرة المسيحية إما مباشرة أو من طريق ما ذكرنا من تحنث محمد"[72].

ندرك من خلال هذا الكلام أن تحنث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في غار حراء كان هو نفسه مقتبسا من التحنث المسيحي، مما يعكس بجلاء أغراض المستشرقين من وراء ربط الزهد الإسلامي بالمسيحية وأن هدفهم هو تجريد الإسلام من أصالته، ولم يكن التصوف إلا مطية لتحقيق غاياتهم المكشوفة.

ومن المؤسف أن كثيرا من الدارسين عميت عنهم هذه الغايات والأهداف فراحوا يروجون لمثل هذه القضايا وألغوا في ذلك كتبا مثل "أثر الحياة الرهبانية في فكر الزهاد المسلمين"، فمؤلفه يوظف بعض الحقائق خدمة لهذا الغرض إذ يؤكد على أن الداعي إلى زهد المسلمين هو ثناء نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم على القسيسين والرهبان

---

[71]- في التصوف الإسلامي وتاريخه للمستشرق رينولد نكلسون ص 4 بتصرف ترجمة وتعليق أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1366هـ/1947م.

[72]- مؤسسة الزاوية بالمغرب بن الأصالة والمعاصرة، د جمال الدين القادري، الجزء الأول، ص 222.

انطلاقا مما جاء في القرآن قوله تعالى: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}[73] مدعيا في الوقت ذاته أن الثقافة المسيحية لعبت دورا في تصوف المسلمين.

غير أن الدكتور جمال الدين يشير إلى أن علماء المسلمين تفطنوا لمثل هذه الإدعاءات ولم تخف عليهم الغايات والأهداف من وراء ذلك أمثال ابن خلدون الذي أكد أصالة التصوف والزهد وسيلة من وسائله لم يزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه.. وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف[74].

ويورد شيخ الطريق كلاما لأحد أقطاب الحركة السلفية بالمغرب وهو علال الفاسي الذي تفطن لسموم المستشرقين فقال: ولا نطيل القول في أصل التصوف، وإنما نكتفي برد ما زعمه بعض المستشرقين الباحثين من المسلمين من أن للرهبنة أثرا في خلق مذاهب التصوف الإسلامي، وما زعمه جولد تسيهر واستدل به نيكلسون على أن التصوف الإسلامي أخذ في القرن الثالث صورة جديدة تختلف تمام الاختلاف عن العصر الأول لا يمكن تفسيرها بأنها نتيجة تطور لعوامل روحية من صميم الإسلام نفسه.. والواقع أن في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وفي الآيات القرآنية العديدة وفي أخلاق الزهاد من الصحابة الذين آثروا على أنفسهم وباعوها لله ما يكفي لإمداد الذين تتجه نفوسهم إلى الزهد والأخذ بالأحوط من الدين وبمقتضيات الورع وبكل عناصر الفكر والخلق التي امتاز الصوفية الأولون بها[75].

وفي معرض الدفاع عن أصالة الزهد وأنه مرتبط بالتصوف الإسلامي، يعطينا شيخ الطريقة صورة حية من مراحل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بدءا بتحنثه في غار حراء وأخلاقه الكاملة ودعوته الصادقة وارتباط صحابته به وتأسيهم بأخلاقه

---

[73]- سورة المائدة آية 82-83.

[74]- الصوفيون والتصوف في المغرب العربي حتى القرن الرابع، لمياء عز الدين الصباغ، المجلد السابع ص 2، عن مجلة كلية العلوم الإسلامية، الموصل 1434هـ/2013م.

[75]- مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة، ج الثاني صفحة 227.

ومحبتهم لجنابه الكريم وزهدهم ومجاهداتهم في عبادة الله تعالى، ثم يقول "أليس في ذلك كله حجة على أصالة الزهد وارتباطه بدين الإسلام بل هو منهج من مناهجه المحكمة؟ أليس هذا كله دليلا على أن الحياة الروحية عند المسلم ليست بجافة في سيرتها وتطورها وكمالها دون أن تقتبس من مذهب معين أو دين آخر؟

نفهم من تساؤلات شيخ الطريقة أن إحياء الزهد داخل المؤسسة الروحية "الزاوية" ومجالس الشيخ ومريديه هو انبعاث تجديدي يعيد المسلمين إيجابيا إلى سيرة سيدنا رسول الله وأصحابه الكرام رضي الله عنهم.

وهنا يلتقي الدكتور جمال الدين مع الفيلسوف الهندي في كتابه عز العبودية لله الذي يؤصل لمفهوم "زهد المقتدر" وهو زهد لا يحرم زينة الله التي أخرجها لعباده والطيبات من النعم والأرزاق، يخالط فيه المسلم الناس فيتعاون معهم على البر والتقوى والصلاح والإصلاح.

3- المدارس الاستشراقية: الأهداف والغايات.

إن الدراسة الاستشراقية للتصوف الإسلامي ليست نمطية وعلى اتجاه واحد، بل تعددت الأنماط واختلفت الاتجاهات فتبلور عن ذلك ظهور مدارس ذكر الدكتور جمال الدين أهمها وأهم روادها منها المدرسة الفرنسية بزعامة المستشرق ارنست رينان E.Renam (1892) والمستشرق ماسينيون، وتعتبر هذه المدرسة من أهم المدارس الاستشراقية خاصة منذ إنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية سنة 1795م برئاسة المستشرق الفرنسي المشهور سلفستر ساسي (1838م) مما أتاح بواكير الإتصال الثقافي بين فرنسا والشرق الإسلامي في مدارس الأندلس وصقلية.

وقد حول المستشرقون الفرنسيون دراسة الشرق إلى مدارس بفرنسا أنشئت لتدرس تلك العلوم بعد أن استفادوا مما نهلوه و تعلموه من تجربتهم في الأندلس وصقلية، فبعد أن كانوا طلابا للعلم أصبحوا هم المعين الذي تنهل منه أوروبا علوم الشرق –والتصوف خصوصا– وذلك بإنشاء مدارس وكراسي للغات الشرقية بموطنهم.

يشير الدكتور جمال الدين في كتابه مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة أن منهج المدرسة الفرنسية غير علمي في واقع الأمر، وغلبت عليه النزعة

الدينية بأن جعلت التصوف امتدادا للمسيحية من جهة، والنزعة الاستعمارية والسياسية من جهة ثانية[76].

أما المدرسة الإيطالية فهي مهد الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، فقد كان البابوات هم الذين وجهوا إلى الاهتمام بالعلوم الإسلامية ومنها التصوف الإسلامي وقد تعاون مجموعة من نصارى الشام مع الكنيسة الكاثولوكية الأم لنشر ديانتهم في المشرق، وأهم رواد هذه المدرسة المستشرق الأمير ليونه كايتاني (1345هـ) والمستشرق كارولو نيللو (1938هـ) الذي درس الفلك والأدب في جامعة القاهرة، والمستشرق دافيد سانيتلا (1855هـ) والمستشرق بييثرو سافورنيان (1905هـ).

واللافت للنظر أن هذه المدرسة درست التصوف الإسلامي بدافع تنصيري كاثولوكي كما أشار الدكتور جمال الدين في كتابه مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة.

أما المدرسة الإسبانية فنشأ الاستشراق فيها بدافع عدائي لكل ما هو عربي ومسلم أفصح عنه المستشرق خوان كوستيولو بقوله عن المستشرقين(إنما يكتبون ويتصرفون وينطقون باسم المسيحية في مواجهة حضارة متدنية واختلط الدافع الديني الحاقد بدافع استعماري سياسي حينما بدأت حركات الاحتلال الأوروبي للعالم الإسلامي)[77].

وما تزال إسبانيا تحتفظ بالكثير من المخطوطات العربية في مكتباتها الكبرى كمكتبة الاسكوريال ومكتبة مدريد الوطنية ومكتبة جمعية الأبحاث الوطنية.

ومن رواد هذه المدرسة الذين اهتموا بالتصوف ميكل آسين بلاثيوس 1944م، اهتم بأبي حامد الغزالي ومحي الدين بن عربي.

أما المدرسة الاستشراقية البريطانية فكانت بدايتها منذ 1632م في جامعتي كمبريدج وأكسفورد، ثم انشئت مراكز استشراقية لتدريب موظفين وعلماء يستطيعون دراسة حضارة الشرق وكان من رواد هذه المدرسة وليام بدول وجورج سيل وتوماس أرنولد ومرجليوت وجيب ووات منونتكمري.

---

[76]- مؤسسة الزاوية بالمغرب، مجلد الأول ص 227 فما بعدها.

[77]- مؤسسة الزاوية بالمغرب، مجلد الأول ص 229.

وقد غلب الدافع العدائي والديني على جل دراساتهم وأبحاثهم في التصوف كما هو الشأن في باقي مدارس الاستشراق.

أما المدرسة الهولدنية فيعتبر رائدها كريستيان سنوك هورخيرونيو (1936م) أهم المستشرقين الهولنديين إبان مرحلة استعمار العالم الإسلامي وكان لدراسته لحضارة المسلمين اتجاهان: أولهما يرتبط بالسياق الزماني وهو ذو طابع سياسي استعماري والثاني عبارة عن تحليلات ودراسات ذات طابع علمي خالص.

دون أن ننسى المدرسة المجرية ورائدها جولد تسيهر فهو مستشرق مجري ذو نزعة يهودية عرف بنقده للإسلام وبجدية كتاباته ومن محرري دائرة المعارف الإسلامية ولقد عرف بغزارة إنتاجاته عن الإسلام سواء تعلق الأمر بالتصوف أو بغيره من العلوم من خلال رحلته إلى سوريا وفلسطين ومصر، وهو أول مستشرق قام بمحاولة واسعة شاملة للتشكيك في الحديث النبوي الشريف.

مما سبق يمكن استخلاص النتائج التالية:

1- اتسم القرن الأول بالزهد الذي سيعرف فيما بعد بأسماء أخرى، إذ كان أهله أهل تقوى وورع وأرباب مجاهدة النفس وإقبال على العبادة وهي من الأمور التي أقرها الإسلام للحفاظ على وحدة المجتمع وسلامته من أي انحراف وبحكم اتصالهم بالرسول صلى الله عليه وسلم.

2- يجمع علماء التصوف أن الزهد أحد المقامات السبع إلى جانب التوبة والورع والفقر والصبر والتوكل والرضا والمحبة والشكر وبالتالي فالتصوف أوسع من الزهد.

3- وسط هذا الاستشراق المحكوم بخلفيات عقدية وسياسية وإيديولوجية، يوجد استشراق معتدل يؤمن بأصالة التصوف الإسلامي وخصوصيته مما دفع البعض إلى اعتناق الإسلام في النهاية كالمستشرق جورج واشنغطن وآتين دينيه وتوماس كارليل المعتدلين في دراستهم للإسلام.

4- من الحيف الفكري و الخلل المنهجي أن نفصل الزهد عن التصوف للتمويه على الدارس والمزايدة على هذا المقام الأصيل في الدين، ما جعل علماء المسلمين

يتصدون لمثل هذه المراوغات الفكرية أمثال الدكتور سامي النشار في كتابه "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام".

5- لئلا يقع المسلم في الالتباس بين مفهوم الزهد والرهبانية أورد الدكتور جمال الدين[78] كلاما للمفسرين وغيرهم يؤكدون أن الرهبانية مسيحية والزهد إسلامي وبينهما مفارقات ونقاط اختلاف يرجع إليه كل دارس في مضان كتب التفسير والعقيدة.

6- إذا كان التصوف امتدادا للرهبنة المسيحية واقتباسا كليا منها فلماذا نرى المتصوفة لا يجلسون في الأديرة وأماكن العبادة كالرهبان؟ لماذا يخالطون الناس فمنهم العالم ومنهم العامل ومنهم الصانع ومنهم التاجر...

7- على الدارس والباحث في التصوف الإسلامي الحذر مما تكتبه الأقلام الاستشراقية وبعض الأقلام المسلمة نظرا لغياب النزاهة والموضوعية.

8- يبدو أن المستشرقين الذين سقطوا في هذا الإسقاط الخطير لم يعرفوا أن تمة فروقا بين رسالة المسيح والرسالة المحمدية خاصة على المستوى التشريعي، إذ المسيح عليه السلام أرسل والدولة قائمة على خلاف بعثة النبي عليه السلام، والأمر يبدو أكثر وضوحا برجوعنا إلى الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضى الله عليه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كَانَت بَنُو إسرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبياءُ، كُلَّما هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبيٌّ، وَإنَّهُ لا نَبِيَّ بَعدي، وسَيَكُونُ بَعدي خُلَفَاءُ فَيَكثُرُونَ، قالوا: يَا رسول اللَّه، فَما تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: أَوفُوا بِبَيعَةِ الأَوَّلِ فالأَوَّلِ، ثُمَّ أَعطُوهُم حَقَّهُم، وَاسأَلُوا اللَّه الَّذِي لَكُم، فَإنَّ اللَّه سائِلُهم عمَّا استَرعاهُم)[79].

الفصل الثالث: أعلام وشيوخ الطريقة القادرية البوحشيشية.

المبحث الأول: أهم محاور كلمة شيخ الطريقة القادرية ذ. جمال الدين القادري.

– أساس هذه الطريقة المباركة متين مبني على الكتاب والسنة متجل في قوله تعالى {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} (الحشر 7).

---

[78]- في كتابه مؤسسة الزاوية بالمغرب الجزء الأول من ص 227/217.

[79]- أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ص 147 جمع محمد فؤاد عبد الباقي الطبعة الأولى 1412هـ/1991م، دار الكتب العلمية، لبنان. وأخرجه البخاري في كتاب الأحكام.

وفي قوله صلى الله عليه وسلم (قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)[80].

وبهذا التصور والرؤية من شيخ الطريقة في دراسته للتصوف السني تضحد كل شبهة مغرضة تدعي وتزعم أن مريدي الطريقة يقدسون كلام الشيخ أكثر من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

– مقصد الطريقة إصلاح النفوس وتزكيتها بالتخلق بالأخلاق الربانية كما ورد في الأثر (تخلقوا بأخلاق الله)[81]، وتأسيسا عليه تهتم الطريقة بإصلاح الفرد والمجتمع وتأهيلهما لخدمة الوطن بكل صدق وأمانة وإخلاص.

– تعتمد الطريقة على وسيلة الذكر الذي ينور القلوب ويثمره ويزرع فيه الرحمة والمحبة للناس وذلك من خلال الاستقامة المستمدة من قوله تعالى {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ}[82]، والتي أوضحها سيدنا محمد في سنته من خلال أقواله و أحواله وأفعاله وتقريراته، وكما يقول الدكتور جمال الدين: "فديننا الحنيف دين لطف ورحمة، وليس دين عنف وتشدد"، قال رسول الله (إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق)[83] والمؤمن لين هين كالسنبلة، بعيد عن الغلو والتطرف وكما قيل: (التصوف ضد التطرف).

ولا شك أن هذه الآلية الذوقية بمثابة مرآة صافية ناصعة تعكس صورة الإسلام الصحيح بالتحلية ثم التخلية.

إذا حلت الهداية قلبا ** نشطت للعبادة الأعضاء[84].

---

[80]- رواه ابن ماجة في سننه في باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزء 1 ص 4 تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي مطبعة دار الاحياء الكتب العربية، وردا أيضا أبو داود وأحمد والزهري و أخرجه أحمد في المسند و ابن ماجة في السنن و الحاكم في المستدرك.

[81]- ذكره ابن القيم في عدة الصابرين والوابل العيب.

والرازي في تفسيره (مدار هذا المعنى على رسول الله صلى الله عليم وسلم (تخلقوا بأخلاق الله)) التفسير الكبير ج 7 ص 72.

[82]- سورة هود الآية 112.

[83]- أخرجه البيهقي في السنن وحسنة الألباني في صحيح الجامع.

[84]- من قصيدة الهمزة للإمام البوصيري.

– طلب التصوف من حيث أنه سلوك إلى الله تعالى وإتباع منهاجه القويم فرض عين على كل مسلم ومسلمة لأن الإنسان مجبول على الخطأ مفتقر إلى التوبة والتي تقتضي لين القلب والذي يقتضي استحضار عظمة الله تعالى ورقابته، وهي جميعها لا تتأتى إلا بالمداومة على السير إلى الله سبحانه تحت نظر خبير مرب كما قال أبن عاشر رحمه الله:

تصحب شيخا عارف المسالك *** يقيه في طريقه المهالك

يـذكـــــــــــــره الله إذا رآه *** ويوصل العبد إلى مولاه[85]

وهذا جوهر التصوف كما يقول الدكتور، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب يقول تعالى{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[86]، وقال عز وجل {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}[87]، فهذا أمر إلهي يدعو إلى الرجوع إلى الله والدخول في منهاج طريقة التوبة والتزكية.

– الصبر والثبات في الطريقة لأن الله مع الصابرين، قال الشاعر: (والصبر كالصبر)[88].

– التأكيد على البعد العالمي للطريقة (طريقتنا هذه طريقة كونية) نقلا عن والده رحمه الله.

– التصوف السني الذي تنهجه الطريقة هو ثابت من ثوابت الهوية الدينية للمملكة المغربية الشريفة الذي هو مقام الإحسان والذي هو من مراتب الدين السامقة ويهدف إلى نشر قيم المحبة والرحمة والسلام بأسلوب هين لين كما في الحديث الشريف (المؤمن هين لين كالسنبلة)[89].

---

[85]- كتاب المرشد المعين للعلامة محمد بن احمد ميارة شارع مرشد المعني لابن عاشر ص 582 تحقيق عبد الله المنشاوي درا الحديث القاهرة طبعة 1429هـ/2008م.

[86]- سورة النور الآية 31.

[87]- سورة البقرة الآية 197.

[88]- هو بداية بيت متدوال عبر السنة العلماء وهناك من نسبه إلى الفضيل بن عياض رحمه الله.

[89]- هذا الحديث بهذا النقل ضعيف لكن معناه صحيح وله شواهد تقويه كما في صحيح الجامع للألباني (حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس) والحديث بهذا اللفظ أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود وابن أبي اشيبه والترمذي وابن حبان والبيهقي والطبراني في كتبهم الحديثية.

المبحث الثاني: الشيخ حمزة بن العباس ودوره في تجديد مؤسسة الطريقة.

الشيخ حمزة الشيخ السابق للطريقة القادرية البودشيشية هو الإمام الفاضل العارف بالله قدوة السالكين ابن الحاج عباس بن المختار المجاهد بن محيي الدين بن المختار بن الشيخ المختار الأول بن سيدي محمد بن سيدي علي أبي دشيش بن سيدي امحمد ابن سيدي امحمد بن سيدي أبي دخيل بن سيدي الحسن بن سيدي شعيب بن سيدي علي بن سيدي عبد القادر بن سيدي محمد بن سيدي عبد الرزاق الثاني بن سيدي اسماعيل بن سيدي عبد الرزاق بن سيدي محي الدين بن سيدي عبد القادر الجيلاني قدس الله سره نسبة إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولد رحمة الله عليه سنة 1341هـ/1922م بقرية مداغ من إقليم بركان شرق المغرب الأقصى، حفظ القرآن الكريم وتلقى علوم الشريعة الغراء بزاوية أسرته العريقة أولا فأخذ علوم الفقه واللغة والنحو عن الفقيه العلامة سيدي أبي الشتا الجامعي، والعلامة سيدي محمد بن عبد الصمد التجكاني، والفقيه العلامة سيدي علي العروسي اليزناسني والفقيه العلامة الحاج حميد الدرعي.

أخذ الطريقة عن الشيخ أبي مدين الذي أخذها عن العارف بالله سيدي المهدي بلعريان والعارف بالله سيدي محمد لحلو الفاسي.

وكان الشيخ أبو مدين في حياته يوصي والد سيدي حمزة (سيدي العباس) به خيرا ويصرح بتقدمه في درجات المعرفة وحقائق اليقين، ثم شاء الله أن يستخلف الشيخ أبو مدين سيدي العباس بن المختار على القيام بمهمة الإرشاد في هذه الطريقة الصوفية القادرية، وقبل انتقال هذا المرشد إلى جوار ربه ترك وصيته التي أشهد عليها كبار الطريقة إلى سيدي حمزة الذي كان مؤهلا كامل التأهيل ليكون نعم الخلف لخير السلف في الدلالة على طريق الله، وتحبيب الله إلى العباد وتحبيب العباد إلى الله.

وهكذا تقلد الشيخ سيدي حمزة منذ سنة 1972 مهمة الإرشاد في الطريقة القادرية إلى أن انتقل إلى جوار ربه في 19 ربيع الثاني 1438 (18 يناير 2017) تاركا وصيته المباركة لابنه الرضي سيدي جمال الدين القادري.

وقد رزق الله الشيخ حمزة القبول لدى الخاصة والعامة، ولا يمل كل من التقى به مجالسته، و يزداد رغبة في معاودة ذلك وتمديده والأخذ من أخلاقه في المحادثة والصبر على الإصغاء من الكبير والصغير إضافة إلى فضيلة الإكرام والإطعام، وقد بقي على حاله من الاجتهاد في العبادة والذكر والتهجد إلى آخر عمره رحمه الله.

ونورد في هذا المبحث جملة من أقواله رضى الله عنه:

1- قوله: من صاحب العارف بالله لابد وأن يقع له الفتح في الدنيا، وإن لم يقع فهو غيرة من الله عليه، أو في الغرغرة عند خروج الروح أو عند نزوله القبر.

2- قوله: إن الله يحب الصفاء والطريقة أيضا، ونحن مقصودنا الدلالة على الله، والذي يدل على الله يجب أن يكون صافيا وطاهرا من جهة الشريعة ومن جميع الأمور التي تكدر القلب بين العبد ومولاه، والمريد وشيخه.

3- المحبة زاد الروح ولا تدرك إلا بصحبة شيخ عارف بالله، يعرف كمائن النفس وأمراضها.

4- بالصحبة يحصل الشعور، فمن صحب الشيخ المربي، صاحب الإذن الرباني الذي له دواء القلوب، عند ذكر الله تحصل للمريد المحبة والارتباط بينه وبين شيخه ويحصل معها التجلي الإلهي، فيعرف الله في جميع ما خلق الله وفي جميع الأكوان قال الله تعالى: {هو الأول والآخر والظاهر والباطن}[90]، ولا تدرك هذه الأمور إلا بصحبة الشيخ المربي الذي يتدرج بالمريد في جميع المقامات.

5- من لم ينصلح حاله بذكر الله فليرجع إلى سلوك نفسه، فبالذكر والتوجه وعدم الالتفات عن الواسطة سيعود باطنه كله خير ونور.

6- أنا عندي إذن قوى ولست أدعي، فأنا رجل مسكين، وأحسب كل ما خلق الله تعالى خير مني وأنا هو الأخير.

7- طريقتنا ربانية لا ينفع معها إلا الجد والاجتهاد والإخلاص في العمل، فالإخلاص هبة من الله ومقام لا يدركه المريد حتى يفنى عن جميع الموجودات، ومقام الإخلاص أعلى مقام ومنه يترقى إلى مقام العبودية.

---

[90]- سورة الحديد، الآية 3.

8- عليكم بالكتاب والسنة، فالشريعة باب، والبيت إن لم تدخله من الباب لن تعرف ما فيه، والبيت هو الحقيقة فمن أراد الدخول من الباب عليه أن يكون نظيفا، والسر لا يحل إلا في القلب الطاهر، والذي يطهر القلب هي الصحبة والذكر، ولذلك الصوفية يحثون عليه، فالذكر وسيلة والغاية دخول الحضرة الإلهية.

9- إذا أردت أن تسمو بأخلاقك وتصفو أذواقك وتهيج أشواقك فعليك بذكر الله وصحبة الصالحين المحبين والتأدب معهم، فالأخلاق هي جوهر الصوفية، وأساسها تزكية الضمائر وصفاء السرائر، لأن الله هو الظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير.

10- إن طريقتنا طريقة الكمال المحمدي والسر الرباني، ولا يحفظ السر سوى التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب الاستطاعة ومقتضى العصر.

11- إن الخير كله في القرآن الكريم، والعز كله في القرآن الكريم، والحفظ كله في القرآن الكريم.

12- تعلموا العلم وعلموه للفقراء، ولا تقفوا مع علمكم، لأنه وسيلة لمعرفة ربكم، لا زي يقتنى ولا حلية يتزين بها في المناسبات أو تتخذ للمماراة والمراءاة، وإلا صار حجابا، وهو حجاب نوراني، والحجب النورانية أشد لأن إزاحتها عن القلب أعسر من الحجب الظلمانية.

13- من أراد الله به خيرا غيب عنه عورات المخلوقات وعيوبهم، فلا يرى في الكون إلا الجمال، فإن الخلق هم الباب وهم الحجاب.

رحم الله الشيخ سيدي حمزة في إعادة المجد للتصوف السني، فأحيا به الطريقة وقربها من الناس في كل بقاع العالم، فقد استقطبت الطريقة البودشيشية مريدين لها من المغرب وخارجه، إذ شمل صيتها أفريقيا شمالها وجنوبها، وفي أوروبا الشرقية والغربية خصوصا وفي الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وفي بعض دول آسيا كالهند والفيتنام وفي جل الدول العربية وتركيا.

والذي يلاحظ أن أغلب أتباع الطريقة ومريديها من الشباب والطبقة المثقفة وقد كتبت حولها العديد من الكتب القيمة والأبحاث العلمية وصدرت عنها وعن المنتمين إليها المؤلفات التي تعرض التصوف السني في أصفى مجالاته وبشتى اللغات الحية.

ورسالتي هذه ليست بدعا من البحوث، لكن اتوخى من ورائها معالم التجديد في فكر وسلوك شيخ الطريقة البودشيشية الحالي قدس الله سره وأظهر على يديه النور المحمدي والسر النبوي.

المبحث الثالث: شيوخ الطريقة القادرية البودشيشية ما قبل الشيخ حمزة رحمه الله

البودشيشي أو البوتشيشي أسرة قادرية بالمغرب الشرقي، اشتهر منها مجاهدون ومتصوفة عرفت طريقتهم بالبودشيشية، وأصبح لها زوايا في مختلف أنحاء المغرب منهم:

أ- البودشيشي بومدين بن المنور بن الحاج المختار بن المختار الأول بن محمد (فتحا) بن الشيخ علي بن محمد بودشيشية ولد حوالي سنة 1292هـ/1877م، وأخذ الإذن في طريقة أسلافه القادريين من الشيخ المختار بن محيي الدين، ولم يكتف بهذه التلمذة بل استنار بمواعظ وإرشادات سيدي محمد (فتحا) لحلو الفاسي (شيخ درقاوي)[91] توفي بومدين في أوائل ربيع الثاني 1375هـ وهو نزيل بني ازناسن قرب مدينة وجدة، الشيخ المربي الشهير، له أتباع كثيرون بجل مدن المغرب، دفن بقرية تبعد عن أبركان بنحو اثنى عشر كيلومترا، ويذكر عنه أنه كان يقول: لا يستقل المغرب إلا بعد وفاتي، فتم استقلال المغرب فعلا بعد وفاته بيومين[92].

كما تتلمذ على يد المهدي بلعريان السباعي.

طريقة سيدي بومدين لها وراثة صوفية دينية من أربعة مصادر، تعلم المجاهدة في العبادة من قيام الليل والصيام وتلاوة القرآن والتمسك الصارم بالشرع من سيدي الطيب الشركي، وأخذ الورد أيضا عن سيدي محمد بن موسى مقدم الطريقة التيجانية بأحفير، كانت أمارات الجذب ظاهرة عليه فورث عنه أسرارا تتعلق بالحقيقة المحمدية

---

[91]- تاريخ وجده وانكاد في دوحة الأمجاد. د. م إسماعيل م عبد الحميد العلوي ج 2 ص 154. الطبعة الأولى 1405هـ/1985م مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

[92]- موسوعة إعلام المغرب المجلد الأول، ص 330.

وتجلياتها، كما ورث عن شيخه محمد (فتحا) لحلو الحال وهو ما يظهر عليه وعلى تلامذته من اضطربات ظاهرية تصحبها رجفة القلب فيتغير لون المريد أو يكثر بكاؤه أو يقوم كهيئة الراقص من شدة الوجد. كما استفاد من أخذه عن الشيخ بلعريان السباعي معاني التوحيد، وذاق على يديه الفناء الصوفي، وكان يتمنى لو أنه اكتفى بهذا الشخص (معلومات أخذت من مقابلة مع الشيخ سيدي حمزة بتاريخ 1984/04/08).

من الواضح أن سند هذا الشيخ في الطريق قادري شاذلي حلوني، وكان شديد التعلق بالشرع غير متهاون بأمور الظاهر زيادة على أمور الباطن، كثير الاهتمام بنظافة ثيابه وطهارتها.

كان يقطن بدوار بويحيى جنوب أحفير، يعيش عيشة الكفاف والعفاف، كان مثالا للورع المفرط، فإذا اشترى نعلا أو ثيابا أو تسلم نقودا كان يحرص قبل كل شيء على أن يغسلها بيده، وكان لا يأكل طعام الأعيان الذين يرى فيهم شبهة في دينهم وسلوكهم، ولو حضر مجالسهم مع الضيوف، ولا يحمل أحدهم متاعه حتى يغسل يديه، وكان يشترط في مريديه الالتحاء، بقدر ما كان الشيخ بومدين متمسكا أشد ما يكون التمسك بظاهر الشرع، كان أيضا يخاصم كل مظاهر البدعة والدعوى والتواكل في مجال التصوف، ولذلك كان له تصور خاص للطريق إلى الله، فهو لم يقصد مشايخ الطرق الصوفية الأخرى غير القادرية إلا من أجل تكسير تقليد كان ساري المفعول عن أصحاب الزوايا، وهو الاعتماد على الانتماء التقليدي الضيق لطريقة صوفية معينة، فحينما قصد الشيخ محمد (فتحا) لحلو وغيره فمن أجل أن يأتي بالجديد في هذا المجال[93].

ولقد أبدع الشيخ بومدين في مسألة الخلافة، فهو لم يترك الأمر من بعده لأبنائه من صلبه، بل تركه لمن يستحقه في نظره وهو سيدي العباس والد الشيخ حمزة رحمه الله، وجد شيخ الطريقة الحالي سيدي جمال، وهذا تحد واضح للتقليد الطرقي الصوفي

[93]- تاريخ وجدة وانكاد ج 2 ص 154.

بصفة عامة في أغلب الحالات، أما الاعتماد على النسب أو الاكتفاء به فهذا ما لم يكن يقبله الشيخ بومدين بأي حال.

ومن مظاهر سلفيته أنه كان يرد على العقائد الشعبية السائدة بنوع من الحزم والصرامة، كما كان يمنع مريديه من التحدث عن الأسرار الربانية عن طريق المحاكاة والتعلم، أما إذا تكلم مريدوه فكلامهم يكون في حدود المعقول والمنقول، أو مع إشارات رمزية إلى الحقائق الكبيرة، فهو قد نهض لمحاربة الشطح الصوفي ومبالغاته، وحارب البدع داعيا إلى التوحيد كركيزة أساسية في الدين: إذا كان العوام يلجؤون في كل شيء إلى الأولياء في قضاء الحوائج والاستسقاء والاستشفاء، فإن هذا الشيخ كان ينادي مرة بأعلى صوته في أحفير: يا بني إزناسن لا تقصدونا في قضاء الحوائج وطلب الغيث فإن الله هو الذي يقصد في كل شيء.

كانت وفاة الشيخ بومدين البودشيشي في 15 رمضان عام 1376هـ/15 أبريل 1957م.

ب- البودشيش العباس بن المختار بن محيي الدين بن الحاج المختار بن المختار بن محمد (فتحا) بن الشيخ علي بودشيش دفين تاغجيرت ببني إزناسن، الشيخ القادري الشهير، ولد بقرية بويحية جنوب أحفير في الجبل المطل عليه في بيت علم وتقوى، ونشأ في كنف والده فدخل الكتاب وحفظ القرآن وبعض المتون، شأنه في ذلك شأن أقرانه الذين تلقوا ثقافة على يد فقهاء الزاوية.

ولما بلغ الشيخ العباس سن الرشد تكلف بأمور الزاوية في علاقاتها مع المخزن، واهتم خاصة بالجانب الفلاحي، بينما تكلف أخوه الأكبر السيد المكي (ت1936م) بتسيير أمور الطريقة في جانبها التنظيمي خلفا لوالده الشيخ المختار (ت1914م)، غير أن العباس كان لديه ميل مبكر لسلوك طريق القوم، فنصحه أحد الزهاد بالصبر والانتظار إلى أن يأتي الوقت المناسب، وبالفعل جاء بومدين البودشيشي عند العباس ليقدم إليه التعازي بمناسبة وفاة إحدى بناته، فالتمس منه المكوث عنده في منزله بمداغ وظل يسترشد به في كيفية طريق التصوف، إلى أن فتح له على يده وأضحى وارث سره دون أن يكون طامعا من قبل في تلك المنزلة وقد أوفده أخوه المكي بن المختار

السالف الذكر في مهمة إلى مدينة فاس وأحوازها خاصة إلى قبيلتي أشجع وأولاد جامع من أجل إصلاح ذات البين ومحو نزاع طرأ بين المقدم السيد البشير وبعض المريدين، واتصل في تلك المناسبة بالشيخ محمد لحلو الدرقاوي، فأعجب بالعباس كثيرا، وتفرس فيه بلوغ المقام العالي في المستقبل.

بقي العباس ملازما لأخيه المكي بإشارة ونصيحة من أحد الصالحين بوجدة، إذ بدونه لا تسقيم أحوال الزاوية، فهو إن لم يكن رئيسا لها فإن الدور الذي كان يقوم به بكيفية لا شعورية كبير، فهو مصدر وعين مدد وبركة بالنسبة لأخيه المكي، كما كان أبوه الشيخ المختار مصدر مدد وبركة لأبيه محيي الدين، وكذلك الأمر بالنسبة للشيخ عبد القادر الكيلاني الذي كان يستمد من أحد مريديه حسب بعض الروايات.

جمع السيد العباس بين صفتين التسامح والكرم مع الشيخ بومدين ومع إخوانه المريدين، بل إنه قد جاء بنفسه لإرضاء شيخه: أعطاه "فلسه ونفسه" من أجل علاج قلبه المريض.

تعتمد الطريقة البودشيشية في زمن الشيخ العباس على الأوراد القادرية والشاذلية في نفس الوقت، لكن المعتمد فيها الاستغفار بصيغة: استغفر الله العظيم مائة مرة أو أكثر والهيللة "لا إله إلا الله" بعدد كبير، المفضل أن يفوق خمسة عشر ألف مرة.

والاسم المفرد "الله" للمجتهدين فقط. والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ "اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذي ملآت قلبه من جلالك وعينه من جمالك، فأصبح فرحا مؤيدا منصورا، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، والحمد لله على ذلك". مائة مرة صباحا ومساء.

أما ورد المجتهدين لديه فهو تلاوة حزبين من القرآن الكريم في اليوم وذكر الله بالاسم المفرد بدون حصر، وأسماء الله الحسنى يالطيف بعدد 4444 مع الدعاء المتعلق به: "اللهم لا فرج إلا فرجك، فرج عنا كل هم وغم وكرب وشدة، يا من بيده مفاتيح الفرج، اكفنا شر من يريد أن يضرنا من إنس وجان وباغ وحاسد، وادفعهم عنا بيدك القوية. إنك على كل شيء قدير" سبعين مرة يا قوي يا عزيز 400، يا حي يا قيوم 1000 مرة. حزب النصر للشيخ عبد القادر الكيلاني.

الحزب (الوظيفة). الذكر الجماعي بعد صلاة المغرب تعقد مجالس الذكر يتلى فيها ما تيسر من القرآن وخاصة صورة الفتح إلى قوله "لقد رضي" سورة الفاتحة 10 مرات، يالطيف 100 مرة، لا إله إلا الله الفردية، الدرس التوجيهي المتعلق بالسلوك الصوفي أو بالمسائل الشرعية التعبدية، القصائد الصوفية والأمداح النبوية، وهي متنوعة المواضع في الحب الإلهي وحب الرسول صلى الله عليه و سلم وذكر فضائل أهل الطريق.

والملاحظ أن مريدي الشيخ العباس كانوا يرددون أشعار الصوفية من مختلف العصور كابن الفارض والحسن اليوسي وأبي مدين الغوث، وسيدي عبد الرحمان المجذوب والشيخ الحراق وغيرهم، كما أن هناك قصائد من تأليف وإنتاج الطريقة نفسها.

أملى الشيخ العباس قبل وفاته بحوالي أربع سنوات وصيته على مريديه لأنه لم يكن بالإمكان أن يكتبها هو بنفسه لأنه كان قد فقد بصره، لكنه وقعها أمام السلطة المحلية بمدينة السعيدية.

أما كاتب الوصية فهو أحد أعيان مدينة وجدة مدير مدرسة سيدي زيان يحيي العتيقي، تتناول الوصية مسألة الخلافة، ويؤكد فيها أن المأذون في خلافته نجله الحاج حمزة.

يبشر صاحب الوصية بانتشار طريقته في عهد خليفته وبظهور العلم والحال والعلاج فيها، وبنجاح دعوته المعتمدة على الصدق والتمسك بالشرع، ثم إنه يوصي مريديه خاصة والمسلين عامة بالتمسك بحبل الله المتين متعاضدين سالكين الطريق المستقيم ملتفين حول مرشدهم، كما يوصي ابنه حمزة بأن يهتدي بهدى الإسلام ويسير على ضوء تعاليمه السامية وأن يكون ناصرا للحق متفقدا أحوال المريدين أنى كانوا عطوفا عليهم محترما للعلماء ورثة الأنبياء، وأصلا لقرابته .

توفي الشيخ العباس يوم الثلاثاء 15 ذي الجحة 1391/ 22 فبراير 1972 بمصحة الدكتور اليعقوبي بوجدة عن سن فاق الثمانين وقرئت وصيته قبل مواراته في قبره.

ج- بودشيش المختار بن محيي الدين، شيخ الزاوية القادرية بجبل ازناسن في نهاية القرن الثالث عشر (19م) ومطلع القرن الذي يليه، ينتمي إلى فرقة أهل تاغجيرت بشرق المغرب في نهاية 1907/132 وهو حفيد الشيخ المختار بودشيش الذي عاصر الأمير عبد القادر الجزائري، وناصره في الجهاد ومقاومة الغزاة الفرنسيين، مما زاد في إشعاع الزاوية وقوى نفوذها بين قبائل شرق المغرب، غير أنه من الصعب تتبع سلسلة نسب البودشيشيين، وحسب بعض الروايات فإن الزاوية تأسست في منتصف القرن الثاني عشر (18م) على يد الشيخ علي بن محمد البوتخيلي، وفي أيامه اشتهرت باسم الزاوية البودشيشية نظرا لإطعام الوافدين إليها الدشيشة أثناء المجاعات والقحوط، وخلال القرن الذي يليه تعززت مكانة الزاوية في المنطقة الشرقية بعد أن انعم السلاطين العلويون على شيوخها بظهائر التوقير والاحترام، وكان المختار بن محيي الدين يستشار من طرف السلطان م. الحسن في أمور القبائل، ويعهد إليه بالتحكيم وحل النزاعات بينها، وهذا ما أكسبه هيبة كبيرة وأهلية ليتزعم المقاومة ضد الجيش الفرنسي بجبال بني ازناسن في نهاية سنة 1907م (أكتوبر دجنبر) حيث حاول الجنرال ليوطي آنذاك استغلال الخلافات الواقعة بين قواد بني ازناسن بسبب ثورة الجيلالي الزرهوني، فاستمال البعض منهم إليه وبادر إلى التدخل لحمايتهم، حينئذ التفت قبائل بني ازناس حول الشيخ المختار بن محيي الدين الذي انتصب زعيما للجهاد بعد أن صالح بين القبائل وسوى الخلافات الموروثة عن صراع المخزن مع الرومي في المنطقة.

بلغت المقاومة ذروتها خلال الشهور الثلاثة الأخيرة من سنة 1907م، فطارد المجاهدون الجيوش الغازية داخل التراب الجزائري وألحقوا بها هزائم متتالية، غير أن الجنرال ليوطي استقدم إمدادات عسكرية كبيرة من وهران، وحاصر المجاهدين داخل جبل بني ازناس ثم اقتحم مواطن قبيلة بني خالد في بداية شهر دجنبر 1907، وبها مقر الزاوية البودشيشية، فدمر الجيش الفرنسي زاوية الشيخ المختار باعتباره من أهم متزعمي حركة المقاومة. وبعد ذلك بقليل وقع اكتساح شامل لجبل بني إزناسن انطلاقا من سهل تريفة شمالا، ومن بسيط أنكاد جنوبا، فاضطر الشيخ المختار إلى الاستسلام

للقوات الفرنسية قرب أغبال يوم 26 ذي القعدة عام 1325/ 31 دجنبر 1907، بعد أن طلب الأمان لنفسه ولكافة القبائل، والتزم بقبول شروط المستعمر، ولم يعمر بعد ذلك طويلا، إذ توفي سنة 1914/1332م، وبعد وفاته تفرعت الزاوية إلى عدة فروع، أهمها الفرع الذي استقر قرب قرية مداغ بسهل تريفة، حيث كان الشيخ المختار يملك أراضي هناك، وقد صار هذا الفرع يمثل الزاوية الرئيسية، وله مريدون كثيرون في جل مناطق المغرب.

البودشيشية من خلال معلمة المغرب

البودشيشية طريقة صوفية متفرعة عن الطريقة القادرية الكبرى، يرجع ابتداؤها إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري (18م). وظهر في سندها رجال من الطرق السلفية وفروعها، وتنسب إلى مجددها علي بن محمد بودشيشة بن البودخيلي الإزناسني المغربي موطنا ونشأة، وهو دفين تاغجيرت بلدة جبلية في المغرب الشرقي من قبائل بني ازناسن (فرقة بني خالد) ويتصل نسبه –حسب الوثائق العائلية– بالشيخ عبد القادر الجيلاني من ولده عبد الرزاق إلى الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه و أرضاه.

ذكرت تاغجيرت في مؤلفات المؤرخين الأجانب والمغاربة كمكان نظمت فيه المقاومة والجهاد ضد المستعمر الفرنسي على يد رجال من أصل بودشيشي قادري، ذكر ذلك المكان في كتاب تحفة الزائر (المجلد الأول ص 497) محمد بن الأمير عبد القادر فمنه انطلقت مفاوضات الأمير مع الجنزال الفرنسي لامورسيير Lamorcière من أجل أن يقدم نفسه حيث كان نازلا فيها على صديقه المختار بودشيش.

كما ذكرها المؤرخ فوانو Voinot في كتابه وجدة والعمالة في مواطن مختلفة، وإسماعيلي عبد الحميد في تاريخ وجدة (المجلد الثاني ص 152) وتحدث قدور الورطاسي عن الزوايا ببني اوناس فذكر الزاوية البودشيشية وربطها بالشيخ عبد القادر الجيلاني، كما تحدث عن الدور الجهادي الذي قام به أبناء الزاوية (بنويزناسن: 61).

وهناك دراسات جامعية تتحدث عن عودة الطرق إلى الحياة اليومية المغربية كظاهرة تجديدية، وتتمحور هذه الأبحاث حول البودشيشية كأطروحة محمد الطورني (Aix 1984) ومصطفى عمروس (Nanterre 1986).

عرفت البودشيشية قبل ظهورها كطريقة، كعائلة مجاهدة يقصد افرادها للتبرك وراعى لها الملوك تلك الحرمة، وقد ورد في ظهير 1876/1293 "إننا بحول الله وقوته أقررناهم على عادتهم المألوفة وطريقتهم المعروفة بحيث لا تخرق عليهم عادة، ولا

يحدث في جانبهم نقص ولا زيادة، ونأمر الموافق عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعمل بمقتضاه ولا يتعداه"[94].

أما كلمة بودشيش فآتية من الدشيش، لقب به جدهم سيدي علي أثناء مجاعة اجتاحت المنطقة وأهلكت الضرع والزرع، فجاء الأهالي من كل حدب وصوب وضربوا خيامهم بجوار الزاوية، فأطعمهم الطعام المعروف بالدشيشة حتى زالت المخمصة وظهرت سبل الكسب والعيش، وبفضل هذه الأعمال الاجتماعية المقرونة بالتأثير الروحي بلغت الزاوية البودشيشة شأوا كبيرا عند الخاص والعام، فأسدل عليها الملوك العلويون رداء التوقير والاحترام والإجلال وانتظم في سلكها أصحاب الرياسة والجاه[95].

ثم اشتهر حفيده الحاج المختار بمؤازرة الأمير عبد القادر الجزائري في محاربته للاستعمار الفرنسي كما هو مشار إليه في تحفة الزائر وكتاب الزاوية القادرية يقول أبو العباس الوطاسي (ولقد استنجد الحاج عبد القادر (أي الجزائري) ببني إزناسن وعلى رأسهم الشيخ السيد المختار بودشيش صاحب الزاوية القادرية) بنويزناسن 77.

ولقد ذكر الشيخ العباس بودشيش في وصيته المخطوطة أن الشيخ المختار صديق الأمير عبد القادر كان من مجددي الطريقة أهل الإذن في ذكر الاسم المفرد (الله).

وقد عرفت الطريقة البودشيشية تجديدا عميقا مع الشيخ بومدين بن المنور بن محيي الدين بن الشيخ المختار صديق الأمير عبد القادر، الذي أخرجها من طبيعتها التبركية كما أخرجها مما يمكن أن يعتبر عصبية طرقية، وراح يلتمس المدد من كثير من الطرق، وكلما سمع بشخص فيه خير وتصرف في القلوب قصده، ولذلك تتلمذ لشيوخ درقاويين وتيجانيين زيادة على الورد الأصلي الذي أخذه عن قطب العائلة البودشيشية الشيخ المختار الذي قاوم الاستعمار الفرنسي سنة 1908/1326م.

تجاوزت الطريقة البودشيشية ميدانها الإقليمي بركان وأحفير وبوطيين، وعمالة ووجدة، وظهرت بأهم المدن المغربية كسلا والدار البيضاء، وخريبكة ومراكش وأكادير

---

[94]- تاريخ وجدة وأنكاد ج 2 ص 153.

[95]- تاريخ وجدة وأنكاد الجزء الثاني الصفحة 152.

ثم فاس وتازا ومكناس في عهد سيد العباس وارث سر سيدي بومدين ثم زاد انتشارها في عهد ولده ورفيقه في الطريق سيدي حمزة فأصبح لها أتباع خارج المغرب، وازدادت إشعاعا وانتشارا في عهد شيخها الحالي سيدي جمال.

** خصائص هذه الطريقة:

تحدث صدى قويا لما تتميز به من الانتشار السريع والتأثير العميق في سلوك المنتمين الجدد، إذ تظهر فيهم بوادر الاستقامة السريعة المفاجئة، ويحدث انقلاب في سلوك المنتمين لها ولو كان ماضيهم غير لائق من الناحية الأخلاقية والسلوكية، يحدث في سلوك المريدين تغير بالغ فيقبلون على العبادة والذكر الكثير بشغف حتى إن بعض الأبناء يفاجئون آباءهم المتدينين بعد أن أتعبوهم في محاولة إصلاحهم وتقويم اعوجاجهم، ويصبحون أشد تعلقا بالدين، وهذا ما استخلصناه من مقابلتنا مع من استجوبناهم.

بالإضافة إلى سرعة الانتشار والتأثير العميق الذي يحدثه الانتساب إلى هذه الطريقة من الناحية الأخلاقية السلوكية يسجل الملاحظون أو الحاضرون في مجالس الذكر لتلك الطريقة قوة التأثير، فمنهم من يبكي خشوعا، ومنهم من يصيح اضطرارا، ومنهم من يقوم راقصا أو يتكلم كلاما غير مفهوم يدل فقط على الابتهاج وهو مكون من كلمات متقطعة وحروف منفصلة، يتميز الحال بسرعة الانتقال من شخص إلى آخر كأنه تيار كهربائي ينتقل بالمحاكاة والعدوى.

ويظهر أن أفراد (العائلة) والطريقة البودشيشية لا يهجرون الدنيا ولا يهملونها لعلمهم أن الزهد في الدنيا والإعراض عنها ليس في ترك الأسباب، فالمرغوب فيه هو تحصيل الدنيا من أجل بذلها في الخير، فهم لا يرون بأسا في الاستمتاع بها بشرط الإنفاق على الآخرين وصرف المال فيما يرضي الله.

التعامل مع الآخرين في إطار المصالح المادية لا ينبغي بحال أن يغلب عليه في نظرهم الأنانية والأثرة، فالمال والجاه ليسا مرفوضين في حد ذاتهما أو مستهجنين كما يمكن أن يفهم من تصرف بعض الزهاد المتقديمن فكل عمل في الدنيا يؤجر عليه صاحبه، إذا كان مطلوبا من قبل الشرع.

ويتميز شيوخ الطريقة البودشيشية بعلاقة وقار مع ولاة الأمور في الماضي والحاضر، إذ كانوا يقومون بدور الوساطة في نزاع القبائل زمن "السيبة" وبتكليف من طرف الملوك في بعض الأحيان أو من طرف القواد[96].

وفي الحاضر يلاحظ عدم تدخل الطريقة في الأمور السياسية، بل إنهم رسموا لأنفسهم طريق الحياد والإهتمام بأمور المسلمين كافة معتمدين على الإخلاص لله في الغيب والشهود تاركين مبدئيا العمل السياسي لغيرهم من المنشغلين به.

** الأوراد والأحزاب: تتبني الطريقة على أنواع الذكر من قراءة القرآن الكريم ودلائل الخيرات وجميع الأذكار المعروفة في الطريقة الشاذلية والقادرية من أحزاب وأدعية، فهي كلها مقبولة مبدئيا، إلا أن الشيخ هو الذي يأذن بها لمن يشاء، ما عدا القرآن الكريم فهو فرض. وأما دلائل الخيرات للإمام الجزولي ولا إله إلا الله والاستغفار، فإن الإذن فيها عام وكذلك الصلاة الجمالية التي ذكرها يوسف بن اسماعيل النبهان في كتابه أفصل الصلوات على سيد السادات واعتبرها من أفصل الصلوات وهي كذلك مذكورة في كتاب الجزولي دلائل الخيرات في حزب يوم الأربعاء.

أما الأدعية والأذكار الخاصة التي أصبحت شبه راتبة فيذكرها كل من أصبح لديه الذكر اعتياديا فهي لطيفا بن حجر الهيثمي (973هـ)، وحزب النصر للشيخ عبد القادر الجيلاني (561هـ).

وإن مقياس حرارة الإيمان والنجاح للاجتماعات العامة يقاس بمدة الذكر والمذاكرة والتواجد وغلبة الأحوال.

الفصل الرابع: الشيخ المربي كما يراه الدكتور

لقد خصص الدكتور فوزي أحمد أبو زيد بابا في كتابه "المنهج الصوفي والحياة العصرية" جمع فيه ما يخص الشيخ المربي من حيث أوصافه وعلاماته وعلومه ومعارفه وأخلاقه.

وتأسيسا عليه اعتبر الشيخ المربي هو الرجل العالم العامل الذي وهبه الله عز وجل النور الكاشف للظلمات والشبهات، ومنحه الفقه في دين الله وتأويل المشابهات

[96]- تاريخ وجدة وأنكاد، ج 2 ص 153.

وفك رموز الخفيات من آيات القرآن وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الفرد الذي تنزل عليه الفيوضات والإلهامات، من العلوم الوهبية اللدنية زيادة على ما حصله من العلوم الكسبية والاجتهادية ما يجدد به أثار السنة المطهرة، ويعيد إلى الأذهان ما خفي من هدي الأئمة وما اندرس من آداب وأحوال وسلوك السلف الصالح رضي الله عنهم[97].

ويعطي المؤلف في هذا السياق مثالا للخضر عليه السلام الذي أعطاه الله علما لدنيا وكشوفات وفيوضات ربانية ما جعل ضرورة وجود الرجل الذي يجدد الله به معالم الدين وسنة سيد المرسلين في كل عصر من العصور حتى تقوم الساعة. لقد امتلأت كتب علماء الصوفية وغيرهم بالشرح والتفصيل لمقام الشيخ المربي أو المرشد الرباني بما لا يسع ذكرها كلها في هذا الشأن هنا، وبهذا يكتفي أبو زيد بأهم المواصفات وهي كما يلي:

1- هو رجل يبين للناس كلام الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يناسب عقولهم مع الرحمة بهم، وذلك بالحكمة الرشيدة والبصيرة النافذة. (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)[98].

2- هو رجل يلح في كمال اتباعه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما لا يقدر معه أن يلتفت عن رسول الله طرفة عين ولا أقل، ولا أن يخالفه في أي شيء مهما كان صغيرا.

3- هو عبد من عباد الله المخصوصين لذاته، والمفردين حضرته جل جلاله، وقد أتاه الله رحمة من عنده تسع الناس في عصره، فهو يعطي كل واحد منهم نصيبه من هذه الرحمة التي وهبها الله له.

4- هو رجل علمه الله علما من لدنه سبحانه وتعالى، وهذا العلم ينفع الله به الناس في زمانه، لأنه علم قريب العهد بالله، قد أكرم به من حضرة الله الإلهية مباشرة

---

[97]- المنهج الصوفي والحياة العصرية، ص 195، طبعة دار نون للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، دون كتابة التاريخ.

[98]- سورة يوسف، آية 108.

بدون واسطة، وهي حضرة القرب الأقرب من الله عز وجل، وهذا العلم تقوم به الحجة على المعاندين والمجادلين، وتتضح به الطريقة للمؤمنين والمسترشدين.

5- هو رجل ورث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علوم الشريعة وعلم الطريقة وعلم الحقيقة.

6- هو رجل جعله الله خبيرا بمعاني تجليات الحق تبارك وتعالى، وعليما بأسراره وغيوبه القدسية وجعله الله حفيظا على هذه الأسرار والغيوب فلا يبيح منها شيئا إلا لأهلها بقدر طاقتهم وحسب حاجتهم، قال تعالى: {الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}[99].

7- هو رجل قلبه مع الله ورسوله دائما أبدا وأن جسمه مشغول بالأعمال الكونية، أو بهداية الناس إلى الله، فهو مع الحق بسره، ومع الخلق بجسمه.

8- هو رجل قائم لله بالحق، لا يتزحزح عنه قدر أنملة، وإن خالفه الناس أجمعون، ولو اجتمعوا على أن يغيروا من موقفه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

9- هو رجل يرجع الناس إلى أمره جميعا، عند اختلافهم حول محدثات الأمور، من المشاكل التي لم يجدوا لها حلا في كتاب الله ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في أقوال الأئمة المجتهدين، لأنه أعلم أهل زمانه بدين الله.

10- هو رجل فات المقامات، وتخطى المنازل بالنسبة للناس جميعا في عصره، فلم يفته سابق منهم، ولم يدركه لاحق منهم، والله أعلى مقامه فوقهم جميعا.

11- وهو رجل واحد في الأمة وله أبدال (مقدمون) كثيرون يبلغون الناس ما علمه الله له، وما ألهمه به من الفقه في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، مما يحتاجه أهل عصره في حل مشاكلهم وتزكية نفوسهم، فكان من دعاء الإمام علي رضي الله عنه: اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجة، إما ظاهرا مشهورا وإما باطنا لئلا تبطل حجج الله وبياناته كما في كتاب نهج البلاغة .

وهو رجل مجدد يدخل في عموم الحديث الصحيح: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[100]، فهو يتناول بالتجديد أصول علم

---

[99]- الفرقان آية 51.

[100]- تخريج الحديث: ذكره الإمام أبو داود (275هـ) في ستة كتاب الملاحم باب ما يذكر في القرن المائة، الجزء الثالث، ص 113، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية-بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1416هـ/1996م.

التصوف الذي هو فرع عن أصول الإيمان وقواعد ومراتب الإحسان، وقد قال في شأنه الإمام محمد ماضي أبو العزائم (1356هـ):

والعارف الفرد مَحْبُوبٌ لِخَالِقِهِ فَاتَ المَقَامَاتِ تَحْقِيقاً وَتَمْكِينا
فِي كلِّ نَفَسٍ لَهُ نُورٌ يُوَاجِهُــهُ مِنْ حَضْرَةِ الحَقِّ تَرْوِيحاً وتيقينا
معناه غيب ومبناه مشاهدة والفرد معنى وليس الفرد تكويناً
يمشي على الأرض فى ذل ومسكنة هام الملائك شوقاً فيه وحنيناً
لا يعرف الفرد إلا ذو مواجهة صافي فصوفي فأحيا النهج والدينا[101].

كما يذكر صفات للعارف بالله وهي: الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق والزهد.

أما الأخلاق التي يجب أن يكون عليها المربي أو المرشد الرباني فهي أخلاق الدين وصفات الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم، ورغم شساعتها وكثرتها إلا أن أهل العلم أجملوها في:

1- أن يكون المربي حكيما رحيما حريصا على النفوس مشهورا عند الناس بإتباع الكتاب والسنة والعمل بها.

2- أن يكون متمكنا من أصول التوحيد.

3- أن يبتعد عما ينفر القلوب من الأعمال والأقوال والأحوال.

4- أن يكون طيبا خبيرا بأمراض النفوس ودوائها.

5- أن يجاهد نفسه أولا بعلمه ثم يدعو الناس إلى ذلك.

6- ألا يفرق بين مريدين على أساس الفقر والغنى والجاه والنسب.

7- بذل ما في اليد للناس تأليفا لهم وعدم التطلع إلى ما في أيديهم.

8- المسارعة إلى فعل الواجبات والفضائل والمكرمات ومناقشتهم ومشاركتهم في ذلك.

9- الشفقة عليهم والاجتهاد في دفع المكاره عنهم وتخفيف آلامهم.

10- الغضب في الله والرضا في الله والحب في الله والبغض في الله.

[101]- الموقع الرسمي للشيخ فوزيمحمد أبو زيد موقع صفاء الإسلام، الأربعاء 28 دجنبر 2016.

11- دعوة المريدين إلى عدم التهاون في الوجبات كالمحافظة على الصوات خصوصا.

12- وقد جمع بن اعجبية أخلاق الشيخ الرباني في قوله:

إذا لم يكن للشيخ خمس فوائد.... وإلا فدجالٌ يقود إلى جهل

بصير بأحكام الشريعة عارفٌ ... ويبحث في علم الحقيقة عن أصل

يبادر للورَّادِ بالبشر والقرى... ويخضع للمسكين بالقول والفعل

فهذا هو الشيخ المعظم قدره.... جدير بتمييز الحرام من الحل[102].

وقال أيضا:

(لابد للشيخ أن يكون له علم صحيح، وذوق صريح وهمة عالية وحالة مرضية)[103].

اهتم كثير من علماء المسلمين بشيخ التربية في المجال الصوفي، من حيث المواصفات والمعايير التي يجب أن تتوفر فيه حتى يكون أهلا لهذه المهمة الكبيرة التي ينوب فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حصر دعوته في إتمام مكارم الأخلاق، والتصوف خلق فمن فاتك في الخلق فقد فاتك في التصوف ومن جهة أخرى لغلق الباب أمام أدعياء المشيخة ممن تنعدم فيهم هذه الضوابط و المعايير.

والظاهر أن الدكتور جمال الدين القادري خصص مباحث بأكملها من رسالته متعرضا بالكلام عن خمسة من العلماء وهم: ابن خلدون والشاطبي والغزالي وابن عباد والشيخ زروق، حيث تقاطعت عباراتهم وهم يحددون شروط وصفات شيخ التربية، ولانفهم من هذا أنه لا يوجد غيرهم من العلماء الذين تكلموا في المشيخة وشروطها، فحينما عمقت البحث وجدت علماء آخرين أشاروا إلى الموضوع أيضا مثل الأئمة الأربعة مالك بن أنس (179هـ) والشافعي (204هـ) وأحمد بن حنبل (241هـ) وأبو حنيفة (150هـ) والرازي (606هـ) والعز بن عبد السلام (660هـ) أبو الفضل عبد الله

---

[102]- يحسن بالباحث الرجوع إلى كتاب إيقاظ الهمم في شرح الحكم العطائية لابن عجيبة (1224هـ) والذي منه جمعت بعض أقواله في العارف بالله خاصة الباب الثاني: آداب العارف صفحات 86 فما بعدها.

[103]- يحسن بالباحث الرجوع إلى كتاب إيقاظ الهمم في شرح الحكم العطائية لابن عجيبة (1224هـ) والذي منه جمعت بعض أقواله في العارف بالله خاصة الباب الثاني: آداب العارف صفحات 86 فما بعدها.

بن الصديق الغماري (143هـ) والشيخ محمد أمين الكردي (1332هـ) والشريف الجرجاني (816هـ) وأبو الوفا التفتازاني (1994م) وشيخ الإسلام بن تميمة (728هـ) وتلميذه ابن القيم (751هـ) وتلميذه ابن رجب الحنبلي (795هـ) وأبو الوليد الباجي (474هـ) والقاضي عياض (544هـ) وغيرهم...

فقد تناول هؤلاء العلماء الذين تعددت مذاهبهم قضية المشيخة ووضعوا لها شروطا ومواصفات لقطع الطريق على كل من يدعي المشيخة وليس له بضاعة من علم أو تقوى أو تزكية من شيوخ العلم والمعرفة، فيتصدر للمشيخة العلمية أو التربوية فيضل ويضل كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتَّخذ الناس رؤوسًا جهالاً، فسُئِلوا فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأضلوا))[104].

ووجه الاستدلال بهذا الحدث لإظهار خطورة منزلة المشيخة إذا لم تقعد بقواعد الشريعة وأصول العقيدة الصحيحة ومعاني التحقق والتدرج الإحساني، وأيضا لأن الشيخ المربي يكون مرجعا للمريدين وعونا للطالبين وهداية للحائزين، وهذا ما جعل العلماء الذين اعتمدهم الدكتور جمال الدين وغيرهم يضعون مواصفات دقيقة ومعايير كثيرة، وإن كانت تختلف من عالم لأخر فهي تشكل إطارا مرجعيا ووحدة متكاملة في عمومها، ويمكن ذكرها كالآتي:

1- أن يكون الشيخ حيا ويمتلك بصيرة نورانية.
2- ان يكون سالكا للطريق بأن خاض التجربة الصوفية.
3- أن يكون عالما بالشريعة والحقيقة وواقع المريدين.
4- أن يكون مالكا لأحواله لا صاحب أحوال.
5- أن يكون صاحب سند صوفي يتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[104]- الحديث رواه البخاري في الجامع الصحيح في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم ص 38 الطبعة الأولى 1423هـ/2002م دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ورواه سلم في صحيحه في كتاب العلم باب رفع العلم وقبضه رقم الحديث 13 ص 2058، طبعة دار إحياء الكتب العربية بيروت تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

6- أن يكون عالما بأحوال النفوس ظاهرا وباطنا وما يعينها على الكمال وما يميل بها نحو النقص.

7- أن يكون صاحب حكمة بأن يضع كل شيء في محله بلا إفراط ولا تفريط.

8- أن يكون صاحب ورع وبصيرة ومراقبة لله في السر والعلن.

9- أن يكون صاحب حال منهضة ومقال دال على مكارم الأخلاق.

10- أن يكون منفردا بالتربية للسالك: بأن يشترط على المريد أن يقتصر عليه دون غيره.

11- النصح والوقار لله تعالى على الحقيقة.

12- أن يكون صاحب عقيدة صحيحة: بأن يوحد الله في ذاته وصفاته وأفعاله.

13- الصدق وإخلاص النية.

14- الكشف والمجاهدة.

15- التصفية والتجرد من العلائق البدنية.

16- طهارة الظاهر والباطن من الأرجاس.

17- الرأفة والرحمة والعفو والصفح وعدم المؤاخذة.

18- الخشية والزهد.

19- القدوة الحسنة والإسوة الطيبة.

20- علو الهمة.

هذه أهم الشروط والمعايير اللازمة لشيخ التربية، ويلاحظ أن العلماء السابق ذكرهم قد اتفقوا في معظمها إن لم نقل في كلها، مع اختلاف في العبارات والمصطلحات وتباين في تقديم شرط على آخر.

الفصل الخامس: المؤتمرات والملتقيات والمقالات حول الطريقة.

المبحث الأول: الدبلوماسية الروحية جسر حضاري لتعزيز التواصل مع الآخر

بعد كل عملية إرهابية تحدث في مكان و آخر، ترتفع الأصوات المنادية بضرورة ترسيخ خطاب ديني وسطى ومعتدل يسحب البساط من تحت الدعاوى المغالية

والمتشددة التي توغلت وتسربت إلى ساحات التدين الشعبي، ليصبح البحث عن بديل ديني هادئ يسد الطريق على الرؤى المتطرفة ضرورة ملحة وحاجة ضاغطة.

إن الرهان على التدين الصوفي الشعبي رهان ممتلك لكل مقومات الوجاهة، بل إن بعض الدراسات الفكرية توصلت إلى أن التجربة الصوفية يمكن أن تضطلع بدور الدبلوماسية الروحية التي تهتم بالدور المركزي في تفعيل الحوار بين أتباع الملل وترسيخ قيم التعايش، بل هي جسر وصمام أمان ضد التطرف بكل أشكاله.

يقوم التصوف بالدور المهم في الحياة الروحية والاجتماعية للمغاربة، حيث يرتكز الإسلام السني بالمغرب على التصوف السني إلى جانب مرتكز المذهب المالكي والعقدية الأشعرية كخصوصية تحدد الهوية الدينية بالمملكة وتنشر اللأمن الروحي و المجتمعي. ويظهر الحضور الصوفي في الممارسة والسلوك الشخصي والمؤسساتي عبر احتضان وعناية الدولة بما بات يسمى بالدبلوماسية الروحية.

وفي هذا الصدد يجمع مسيرو الطريقة القادرية البودشيشية بشراكة مع المركز الأورومتوسطي لدراسة الإسلام اليوم في كل الملتقيات العالمية التي تنظم بالزاوية الأم وأخص بالذكر الدورة الثانية عشرة للملتقى العالمي للتصوف بين 28 نوفمبر إلى فاتح دجنبر بمداغ شرق المغرب تحت شعار التصوف والدبلوماسية الروحية، الأبعاد الثقافية والتنموية والحضارية، لدراسة أبعاد الدبلوماسية الروحية لمواجهة ترسبات الفكر المتطرف وتهديده للاستقرار والأمن الروحي والمادي للمجتمع الإنساني.

وشدد مدير الملتقى وشيخ الطريقة البودشيشية العلامة الدكتور جمال الدين القادري بودشيش على "أن الدبلوماسية الروحية بمثابة جسر للتواصل مع الآخر وعلينا أن نستلهم من القيم الإسلامية التي تنبني على أساس الرحمة والتسامح وترسيخ روح التعايش لنسج خطاب إسلامي أصيل يعطي صورة مشرقة عن الإسلام والمسلمين ويقوي صلاتهم مع سائر المكونات الثقافية الأخرى".

وباعتبار التصوف ممارسة وثقافة وتربية روحية إحسانية، فضلا عن الأدوار التي يمكن أن يقوم بها في مواجهة مد الإسلام السياسي فقد أكد صابر مولاي أحمد باحث مغربي مختص في قضايا الفكر الإسلامي المعاصر أن الأمر هنا لا يتعلق بمواجهة

الإسلام السياسي أو منازعته، لأن المشكلة في الأصل هي انسداد العقل الجماعي للأمة المسلمة بشكل عام وتقوقعه حول الماضي وكل ما هو قديم ومتجاوز على حساب الالتحام بروح العصر وثقافته.

ولم يتضاءل اتسام المغاربة بالخطاب الصوفي سواء الشعبي أو النخبوي لكونه خطابا يتأسس على الأخلاق والسلوك القويم والتربية الروحية، بل ظلت الزوايا منخرطة تاريخيا منذ قرون روحيا واجتماعيا وسياسيا داخل النسيج المجتمعي المغربي.

وأكد منتصر حمادة الباحث في مركز المغرب الأقصى للدراسات والأبحاث أن ما يميز التدين الصوفي أن خطابه معتدل ووسطي وبعيد عن تصيد هفوات الاعتقاد والتطاول على عقائد العامة والخاصة، إضافة إلى أنه لا ينازع السلطة السياسية في قضايا خلافية ذات صلة بالسياسة أو الدين أو الاجتماع لأن هاجس الفاعل الصوفي هاجس فردي وجماعي وإنساني.

ونظرا لخطابها الإحساني المعتدل والوسطي تستقطب الزاوية القادرية البودشيشية أكثر من مائة ألف مريد يحضرون من كل الطبقات الاجتماعية وتمتد هذه الطريقة إلى آسيا وأمريكا وأوربا بل وبعض دول الخليج العربي، وحول الدور المنتظر من العناية بالمعرفة الصوفية كرؤية للوجود والكون والإنسان لمقاومة كل مظاهر التطرف وإملاء قيم التجديد والتسامح يقول صابر مولاي أحمد: إن التصوف بدوره في حاجة إلى أن يحرر ويتحرر من قالب الطقوس التي طالت المعرفة كما كان الأمر مع ابن عربي وغيره، وأن المعرفة الصوفية كمنهج ورؤية للوجود ستجعلنا نساهم نوعا ما في أن نتصالح مع أنفسنا ومع العالم والإنسان.

ويورد الصحافي المغربي محمد بن أمحمد العلوي كلاما للباحث منتصر حمادة يؤكد فيه على أهمية تدعيم وتغذية التدين الصوفي والدفاع عنه وهو ما يتم بشكل نسبي في المغرب، لكنه لا يتم بالشكل المطلوب بسبب المقاومة التي تواجهه من طرف التدين الإسلامي الحركي، في تفرعاته الدعوية والسياسية، الإخوانية والسلفية، وليس

صدفة أن التدين الإخواني ينتقد التصوف، ولا يذكره إلا بما هو سلبي مع الجهل بحقيقته في الغالب[105].

يقول هشام الدباغ:

(التصوف الروحي هو الطاقة التي تتفرع في الإنسان وكيفية تنمية هذه الملكة من خلال القدرة على الاستلهام وتحويل الإشارات إلى عبارات دالة متقنة عن طريق امتلاك الجرأة في تطوير الفكر المتدين وعملية التجديد اللغوي والدعوة لقراءة الآيات القرآنية من خلال نظر متطور عصري).

أضاف (عندما تتقادم المحركات اللغوية الشعبوية نلجأ إلى استعمال الصفة اللفظية الأقرب إلى المثال الأصعب من باب تحويل الإشارات صعبة المنال إلى إشارات دالة وذلك باستعمال المثال الأقرب ألا وهو الكتاب المعجزة القرآن الكريم) قال هذه الكلام في ندوة بعنوان "مرتكزات الفكر الصوفي" ذ. هشام الدباغ اقتبست هذه الأقوال من وكالة إلكترونية سواليفswalieit . tube

اللقاء التكويني الخاص بطلبة الدكتوراه

يوصي هذا اللقاء بالاجتهاد في الأذكار وحسن الأدب فيها وتعظيمها و تخصيص مجالس لها حتى يظهر أثرها في السلوك والعبادة وحتى يتخلق بها المريد كما قال السادة الصوفية (التصوف أخلاق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف) فالمقصد الأسمى من الذكر هو الوصول إلى مكارم الأخلاق، وهذا هو مدلول حديث(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) كما حذر من المجالس غير المأذونة التي تعقد في المدن والقرى، يكون ظاهرها ذكرا، وباطنها شعوذة وخوض في المحظور من الأمور، وذكر كلاما لابن عون: (ذكر الله دواء وذكر الناس داء) ذكره الحافظ الذهبي و علق عليه.

كما أكد على دور المقدم وأنه يجب إخباره بكل اجتماع ينعقد حتى لا تختلط الأمور على المريد ويتشتت ذهنه ويتفرق أمره.

* ضرورة التوجه في التزكية القلبية.

---

[105]- موقع العرب، محمد بن أحمد العلوي، 30 نونبر 2017.

التوجه هو معلوم عند القوم ويعتبر شرطا لتزكية النفوس وتهذيبها وتحقيق الاستمداد والترقي الروحي بالتدرج في تحصيل سني المقامات والأحوال ولذلك أوصى أهل الله والأكابر من العارفين بالحرص عليه وعدم التفريط فيه، واجتناب الالتفات إلى غير الشيخ المربي ففي صدد الالتزام بصحبة العارف بالله يقول الله عز وجل {الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}.

ويقول صلى الله عليه وسلم (إن من الناس مفاتيح لذكر الله إذا رؤوا ذكر الله)[106]، فالشيخ قلبه موجه إلى الله فإذا علق المريد قلبه بشيخه فإنه يوجه قلبه إلى الله جل وعلا لأن الشيخ دال على الله بحاله و مقاله لذا على المريدين وجه الله إتباعه كما قال تعالى: (ياأيها الذين امنوا اتقوا الله و كونوا مع الصادقين)[107].

وأيضا يروي ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله (ألا أخبركم بخير جلسائكم؟ من ذكركم الله رؤيته، وزادكم في علمكم منطقه، وذكركم في الآخرة عمله)[108].

* إذن الشيخ في إنشاء مشيخة للطريقة تسهر على حسن سير أعمال الطريقة بالتنسيق والإشراف والتتبع والاتصال بشيخها والتواصل معه ونشر الطريقة في كافة أرجاء العالم.

* تحدث عن العلم والتكوين في الطريقة في كلمته التوجيهية للمريدين والمريدات في اجتماع مجلس الطريقة الذي انعقد بمقر الزاوية يوم 26 جمادى الأولى 24/1438 فبراير 2017.

كما أننا ندعو إلى النهوض بالعلم والتكوين، فالعلم نور يستضيء به السالك إلى الله ويحصنه من الزيغ عن منهج الله ويرفعه درجات ومقامات (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[109].

---

[106]- كتاب الأولياء لأبن أبي الدنيا (281هـ) ص 14-15، تحقيق محمد السعيد بن بسوني زغلول الطبعة الأولى 1413هـ/1993م، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

[107]- سورة التوبة الآية 120.

[108]- كتاب الأولياء لأبن أبي الدنيا ص 17.

[109]- سورة المجادلة الآية 11.

* من خلال اجتهاد أطر في الطريقة أساتذة وعلماء لإظهار كل ما يمكن أن يبرز قيمة التربية الصوفية وإسهاماتها في تربية الأفراد والمجتمع، وهذا ما ينبغي أن تسهر عليه الهيئة العلمية في الطريقة فالزوايا كانت مؤسسات علمية صانت العلوم الشرعية وكانت مدارس لتلقين وحفظ الكتاب والسنة، فانتم تعلمون ما نتوق إليه من تحقيق ما كان يصبو إليه والدنا قدس الله سره، من أن يضم هذا المسجد الذي مازال في طور البناء معلمة جامعية كبرى يساهم الكل فيها من أجل جلب اهتمام الطلبة والراغبين في تلقي وتعميق معرفتهم الشرعية وفق التعاليم السمحة لديننا الإسلامي الحنيف.

* أكد على زيارة مقر الزاوية وشيخها أينما حل وارتحل وأيضا أكد على الوحدة والتوحد منطلقا من الحديث النبوي (عليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)[110].

والآتي إلى الزاوية لا يأتي إلى الشيخ بقدر ما يأتي إلى السر المكنون فيه، وأمرهم أن يبحثوا فاذا وجدوا من عنده سر كهذا فليخبروني لآتي عنده.

* نبه على الإكثار من ذكر الله عملا بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا..}[111].

لأن ذكره يحي القلوب ويطهرها وينقيها من الكدور والشهوات ويخرجها من الغفلات مصداقا لقول رسول الله (مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكره مثل الحي والميت)[112].

---

[110]- الحديث في كتاب رياض الصالحين للإمام النوري (676هـ) الطبعة الأولى محرم 1421هـ، والحديث رواه أبو الدرداء رضى الله عنه.

[111]- سورة الأحزاب الآية 41.

[112]- كتاب رياض الصالحين، الإمام النوري (676هـ) ص 478 الطبعة الأولى محرم 1421هـ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع السعودية.

المبحث الثاني: أهم مجريات فعاليات المؤتمر العالمي للتصوف الذي انعقد بمصر 24/9/2011.

– ليس التصوف امتدادا للشيعة والتشيع –كما يدعي البعض– لأنه ظاهرة سنية منذ مطلع القرن الثاني الهجري تأصيلا، والعهد النبوي ممارسة.

– التصوف أقوى مؤسسات المجتمع المدني تأثيرا في العالم الإسلامي.

– لن يكون التصوف بابا لتسلل مبادئ تخالف أي معتقدات تتنافى مع عقيدة الأمة، ولن يكون وسيلة لضرب أي تيار ديني أو اجتماعي أو سياسي.

– التأكيد على ضرورة تجديد الخطاب الصوفي المعاصر، ومن أبرز المصطلحات التي يكون فيها التجديد المجاهدة: ينبغي أن تحول اتجاهه إلى منهج عملي ولا ينبغي أن تقتصر المجاهدة على النفس، بل ينبغي أن تتحول المجاهدة إلى إصلاح ما فسد من أخلاق وممارسات وأمراض اجتماعية.

– لا بد للتصوف أن يقوم بدور فعال في المجتمع الغربي لمواجهة المادية، وضرورة أن يبنى التصوف على أسس سليمة لأن غياب التصوف عن تقديم حلول للمشاكل التي يعاني منها المجتمع يغيب دوره الحقيقي.

* شارك في المؤتمر أكثر من 300 عالم من 30 دولة عربية وإسلامية وغربية.

* وجرى مناقشة أكثر من 150 بحثا من كبار علماء الدين والمفكرين من أتباع المنهج الصوفي من مصر والعالم على مدار ثلاثة أيام.

ومن المشاركين:

– د. يوسف جوفريا أستاذ الدراسات بفرسا.

– محمود الشريف نقيب الإشراف

– الشيخ عصام زكي إبراهيم الإمام الرائد

– محمد عبد الفضيل القوصي وزير الأوقاف

– الشيخ عبد الهادي القصبي شيخ مشايخ الطرق الصوفية بمصر.

– ذ. حسن الشافعي أمين عالم المؤتمر ومسشار شيخ الأزهر.

المبحث الثالث: حوارات ومقالات.

أولا- حوار مع الدكتور محمد مهنا: التصوف دعوة للبناء والمحبة 5 يونيو2018.

أكد الدكتور (عضو المكتب الفني لشيخ الأزهر والمشرف العام على رواق الجامع الأزهر) أن التصوف منهج رباني وروحي ودعوة للبناء والمحبة والسلام ولم شمل الأمة والاستفادة من الطاقات الإيمانية في البناء والإصلاح، وأن المنهج الصوفي يقف على النقيض من دعاة الفتنة والغلو والإرهاب والفكر المتطرف وقال: إن التصوف هو رأسمال المسلمين الأوائل من التجار في علاقتهم مع الشعوب الأخرى، ومفتاح النصر للقادة في ميادين المعارك، ووسيلة الإعلام الفعالة في الدعوة ونشر الخير والفضيلة.

واهتم الصوفيون برأي الدكتور محمد مهنا و قدوتهم هو النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان متصوفا وصحابته رضوان الله عليهم أيضا كذلك فقد كانوا إسوة في التقوى و صدق التوجه إلى الله تعالى، ولو نظرنا للقرآن الكريم فقد أتى بالزهد والعلم والتوبة والصدق والإخلاص والعبادة والمعرفة وكل هذا من التصوف ومعالمه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قرآنا يمشي على الأرض وكذلك كان الصحابة كل بدرجته فأبو بكر كان صديقا وعمر بن الخطاب كان فاروقا وعثمان كان حييا و علي كان محبا... أليس هذا دليلا على التصوف وعلم أصول الفقه والحديث... وكلها موجودة في القرآن وإن لم تذكر بأسمائها، وأن في نهاية القرن الثاني الهجري عرف هذا العصر بعصر تدوين العلوم وأخذت بعد ذلك في التطور، وهذا ما ينطبق على التصوف أيضا.

ثانيا- مقالات للفيلسوف (طه عبد الرحمان)

يقول في محاضرة ألقاها بالرباط بعنوان "العمل الصوفي وأخلاق الحرية" عن الشيخ حمزة رضي الله عنه: (لقد بصرني بالحق الذي يدمغ الباطل وما أقوله وأكتبه قطرة ارتشفتها من ماء حكمته)[113].

وختم محاضرته بالحديث عن علاقته بالشيخ وأنها ليست علاقة عبودية أو تبعية بل علاقة تربوية، وشبه شيخه بالطبيب والمعلم وقال إن ذلك ليس فيه أي منكر متمنيا ألا يقبض الله روحه وهو على قطيعة مع شيخه.

---

[113]- نشر مقالة في جديدة المساء بتاريخ 2009/06/09 بواسطة إدريس الكنبوري.

يشرح الدكتور الحرية ويضع لها تعريفا مستمدا من رؤيته الصوفية يقول "الحرية هي أن يستعبدك الحق باختيارك وألا يستعبدك الخلق في ظاهرك وباطنك".

وكداعية إلى التصوف يشرح: العمل الصوفي هدفه تحقيق التحرير الأكمل بأزكى الوسائل وهي الوسائل الإلهية (يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة)[114].

– ودافع الدكتور عن التصوف واعتبره جزءا مكملا للإسلام في رده على من يقوله البعض من أن الإسلام وحده كاف لتربية الفرد دون اللجوء إلى طريقة صوفية وإلى شيخ من الشيوخ؛ قال: أن الإسلام عقيدة وتربية وأحكام، العقيدة يختص بها المتكلمون، والتربية يختص بها الصوفية والأحكام يختص بها الفقهاء.

ثالثا: مقال لصاحبه: خالد ميار الإدريسي[115].

قال خالد ميار الإدريسي (رئيس المركز المغربي للدراسات الدولية والمستبقلية).

(إنه من المؤسف جدا أن يكون هناك لغط وخلط وتلفيق في الأمور وتهجم هستيري على مؤسسة لها جذور تاريخية وتدافع عن ثوابت البلاد الدينية مثل الطريقة القادرية البودشيشية بدعوى أنها غير مهمته بالأمور السياسية أو أنها لعبة في يد صناع السياسة وغير ذلك من الترهات)[116].

وأضاف (أقول باسمي الشخصي كمهتم بالشأن الديني وباحث في العلاقات الدولية، بأن الطريقة القادرية البودشيشية لا تزاحم أيا كان لا في المجال الدعوي والسياسي...) وأشار إلى أن صاحب الأخلاق العادية يتبرم من الإنخراط في مثل هذه الأمور، أما الذي ينشد الكمالات الأخلاقية فهو منشغل بمواجهة هواه وردع نفسه بذكر الله وقراءة القرآن وتعاطي العلوم سواء كانت شرعية أو عصرية ودعوة الناس كافة بأسلوب يراعي أصول الحوار وأخلاق الإختلاف.

---

[114]- سورة المائدة الآية 37.

[115]- بعنوان: الزاوية البودشيشية ليست لعبة في يد صناع السياسة ولا تزاحم أحدا في المجال الدعوي ولا السياسي بتاريخ 2015/12/29.

[116]- بعنوان: الزاوية البودشيشية ليست لعبة في يد صناع السياسة ولا تزاحم أحدا في المجال الدعوي ولا السياسي بتاريخ 2015/12/29.

ولذا فلمجرد التذكير فقط إن الطريقة البودشيشية مشتغلة بخلق جسور التعارف الإنساني بين الشعوب والتعريف بالإسلام كرحمة مهداه للخلق، ولذلك فهي تبذل الجهد في دعوة عدد من الأجانب من فرنسا وإسبانيا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ودول آسيا واستراليا واليابان والفيتنام وغير ذلك من البلدان.

ويكفي فخرا أن أبناء الديار الغربية –حيث التهجم على الإسلام والمصطفى عليه الصلاة والسلام– يتعلمون على يد الطريقة القادرية البودشيشية مبادئ الدين الحنيف ويتربون على ذكر لا لإله إلا الله والصلاة على رسول الله، فأصبحوا بذلك سفراء المحبة النبوية في بلدانهم وأغلب المريدين منهم علماء ومهندسون وأطباء ورجال أعمال وشخصيات لهم وضعهم الإعتباري في بلداهم، ولا يخفى على كل لبيب ما لذلك من إيجابيات لصالح الدعوة ولصالح القضية الوطنية وثوابت الأمة المغربية، حيث أصبحوا مدافعين عن قضايانا، فالتربية الروحية للطريقة القادرية البودشيشية وسيلة كذلك لممارسة نوع راقي من الدبلوماسية الموازية في زمن تفتقد فيه هذه الدبلوماسية للدعم اللازم.

المبحث الرابع: نماذج من ملتقيات الطريقة القادرية العالمية.

أولا- الملتقى العالمي التاسع للتصوف 2015.

تنظم على هامش الملتقى ندوات وملتقيات فكرية تناقش تحديات التصوف في السياق المعاصر وواجبات الطرق الصوفية للحفاظ على استمرارها وتنقية مدارسها الفكرية مما ينسب إليها.

– أهم محاور هذا الملتقى: * علاقة التصوف بتحديات العولمة.

* الربيع العربي والتطرف.

* الدبلوماسية الروحية والبناء النفسي والاجتماعي.

* قضايا التنمية والحكامة والرأسمال اللامادي.

وموازاة مع الملتقى نظمت أربع مسابقات:

1) الأولى: مسابقة في إعداد مقالة حول موضوع: "الإسلام وقيم التسامح والوسطية والاعتدال".

2) الثانية: مسابقة شعرية في المديح النبوي.

3) الثالثة: مسابقة بحثية لاختيار مجموعة من البحوث المنجزة في سلك الدكتوراه حول الفكر الاجتماعي والتراث الصوفي.

4) الرابعة: مسابقة خاصة بالناشئة في حفظ وتجويد القرآن.

تواريخ الملتقى 10-11-12 ربيع الأول 1437هـ/22-23-24 دجنبر 2015.

ثانيا: الملتقى العالمي العاشر للتصوف

في ظل تنامي ظاهرة الإسلاموفوبيا وتشويه صورة الإسلام وربطه بالتطرف والإرهاب نظمت الزاوية القادرية ملتقاها العالمي العاشر أيا 10-11-12 ربيع الأول 1438هـ/10-11-12 دجنبر 2016 موضوع الملتقى تمحور حول "السلام والذي أصبح أهم القضايا الكبرى والمؤرقة التي تقض مضجع المجتمعات الإنسانية المعاصرة وذلك بالنظر إلى ما آلت إليه الأوضاع في العالم برمته، وما أضحى يشهده من أحداث متسارعة تضرب وتعصف بكل معالم السلم والسلام والتعايش.

محاور الملتقى: * ثقافة السلم: المفهوم والدلالات.

* ثقافة السلام في الإسلام: المقومات والتجليات.
* ثقافة السلام وأبعادها النفسية والاجتماعية والحضارية.
* التصوف وثقافة السلام: نماذج تاريخية.
* ثقافة السلام وتفعيل الدبلوماسية الروحية.
* التصوف والسلام الأخضر.
* ثقافة السلام ودورها في ترسيخ قيم الجمال.
* ثقافة السلام ودرء العنف والتطرف عن الإسلام.
* ثقافة السلام وأبعادها الاقتصادية والتنموية في الإسلام.
* ثقافة السلام وترسيخ قيم التعايش والسلم الحضاري.
* ثقافة السلام وبناء المشترك القيمي والحضاري للشعوب.
* ثقافة السلام ودورها في حوار الأديان.

وقد بث تقرير الملتقى في كثير من وسائل الإعلام الوطنية و الدولية .

* في هذا الإطار يرجى الرجوع إلى مقال للدكتورة حورية الظل بعنوان "التصوف طريق لقبول الاختلاف"، حيث استدلت بالمغرب من الناحية الصوفية، وموضوعها مهم جدا موجود على المواقع الإلكترونية.

الباب الثاني:

معالم التجديد عند العلامة

الدكتور جمال الدين القادري

الفصل الأول: دراسة منهجية نقدية لمؤلف جمال الدين القادري.

المبحث الأول: دراسة المعارف وتحديد المفاهيم.

1- الاشتقاق اللغوي لكلمة المعالم.

المعلم: الأثر يستدل به على الطريق وجمعه المعالم.

ورجل معلم إذا علم مكانه في الحرب بعلامة أعلمها.

والمعلم، ما جعل علامة وعلما للطرق والحدود مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه.

وفي قوله تعالى {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} قالوا: الأعلام في الجبال ومعالم المكان: ما يستدل بها عليه من آثار ونحوها.

ومعالم المدينة: الأبنية ونحوها التي تشتهر بها وتميزها عن غيرها من المدن.

وقدح معلم: فيه علامة ومنه قول عنترة:

رَكَدَ الهواجرُ بالمشوفِ المُعْلِمِ

والعلامة: السمة والجمع علام قال عامر بن الطفيل:

عَرَفْتَ بِجَوّ عَارِمَةَ المُقَامَا *** لسَلْمَى أوْ عرَفتَ لهَا عَلامَا

والمعلم: مكانها وفي القرآن {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ}[117] وهي قراءة جمهور القراء وقرأ بعضهم: "وإنه لعلم للساعة" المعنى أن ظهور عيسى ونزوله إلى الأرض علامة تدل على اقتراب الساعة.

ويقال لما يبنى في جواد الطريق من المنازل يستدل بها على الطريق، أعلام مفردها علم، والمعلم، ما جعل علامة على الشيء وعلامة للطريق والحدود مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه، وفي الحديث (تكون الأرض يوم القيامة كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد) وقيل المعلم: الأثر.

وفي قوله تعالى {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأعْلامِ}[118] قالوا الأعلام، الجبال[119].

---

[117]- سورة الزخرف آية 61.

[118]- سورة الرحمن آية 22. =

وفي القاموس المحيط العلامة هي السمة كالأعلومة بالضم جمع أعلام، والفصل بين الأرضين، ومنضرب في الطريق يهتدي به، كالعلم فيهما...

ومعلم الشيء كمقعد: مظنته وما يستدل به كالعلامة[120].

و نقول معالم تاريخية أي أحداث تمثل نقطة تحول في التاريخ.

فكل المعاني لكلمة معالم، في المعاجم اللغوية تتقارب وتلتقي في حقيقة واحدة هي أن الكلمة رديفة للآثار والملامح والأدلة، وتأسيسا على هذا فسأقف على المعالم في رسالة شيخنا رضي الله عنه مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة، أي الملامح التي تجعله يجدد في علم التصوف وتكون خاصة به. والذي يدفعني إلى القول إن للدكتور جمال الدين القادري في مؤلفه معالم وملامح يحسن بكل دارس أن يقف عليها، ومنها:

أ- اعتبار الزاوية مؤسسة: وهذا الأمر ظاهر وجلي في كل الطرق الصوفية بالمغرب ومنها الطريقة القادرية البودشيشية فهي مؤسسة متكاملة الأركان إن على المستوى التنظيمي أو الوظيفي أو التعليمي، ومعالم التجديد عند شخينا جمال الدين أنه جعل للمشيخة بعدين اثنين:

1- مشيخة خاصة بالزوايا داخل المغرب.

2- مشيخة خاصة بالزوايا والمريدين خارج نطاق المغرب.

ب- يتناول علم التصوف بفكر منفتح وتحليل يحوي أخذ كل الجوانب التي تخدم الطريقة، وتعتبر قواسم مشتركة بينها وبين كل الطرق الصوفية بالمغرب.

2- تعريف التجديد:

التجديد لغة: تصيير الشيء جديدا، وجد الشيء، وجديد الشيء ما لا عهد لك به. والجديدان الليل والنهار وذلك لأنهما لا يبليان أبدا وأما قول الهذلي: وقالت لن ترى أبدا تليدا .... بعينك آخر الدهر الجديد.

= [119]- لسان العرب ابن منظور ص 3084.

[120]- القاموس المحيط الفيروزأبادي ص 1136-1137 دار الحديث القاهرة، طبعة 1429هـ/2008م.

قال ابن جني (383هـ): إذا كان الدهر أبدا جديدا فلا آخر له ولكنه جاء على أنه لو كان له آخر لما رأيته فيه[121].

وهو خلاف القديم، وجدد فلان الأمر وأجده واستجده إذا أحدثه متجدد هو[122].

فالتجديد يعني وجود شيء كان على حالة ما، ثم طرأ عليه ما غيره وأبلاه، فإذا أعيد إلى مثل حالته الأولى التي كان عليها قبل أن يصيبه البلى والتغيير كان ذلك تجديدا.

الجدة هي مصدر الجديد والجمع أجدة وجدد.

جاء في لسان العرب: الجدة هي نقيض البلى، ويقال شيء جديد، وتجدد الشيء صار جديدا وهو نقيض الخلق، وجد الثوب يجد بالكسر صار جديدا، والجديد ما لا عهد لك به[123].

أما التجديد شرعا فهو التجديد اللغوي عينه مضافا إليه ما تقتضيه طبيعة الإضافة إلى الشرع من مدلول خاص ومعنى جديد.

وقد تنوعت عبارات العلماء في تعريف التجديد وتعددت صيغهم لكنها لم تخرج عن محاور ثلاثة:

1- المحور الأول: إحياء ما انطمس، واندرس من معالم السنن ونشرها بين الناس وحمل الناس على العمل بها. ومعنى التجديد في نطاق الشرع إحياء ما اندرس من العمل في الكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما.

وأما دور المجدد فهو يجدد ما اندرس من أحكام الشريعة، وما ذهب من معالم السنن، وخفي من العلوم الظاهرة والباطنة .

ويقول المودودي: المجدد: كل من أحيا معالم الدين بعد طموسها، وجدد حبله بعد انتقاضه، أما وظيفة المجدد عنده فهي تنقية الإسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية ثم العمل على إحيائه خالصا محضا على قدر الإمكان[124].

---

[121]- لسان العرب، ابن منظور، ص 563 مطبعة دار المعارف، القاهرة.

[122]- المصباح المنير: الفيومي المقري (770هـ) ص 36 مكتبة لبنان.

[123]- ابن منظور لسان العرب طبعة دار المعرف مصر ج1، ص 562-563.

[124]- الودودي أبو الأعلى موجز تاريخ تجديد الدين، ص 13، الطبعة الثانية 1386هـ/1967م دار الفكر الحديث، لبنان.

2- المحور الثاني: قمع البدع والمحدثات وتعرية أهلها وإعلان الحرب عليهم، وتنقيه الإسلام مما علق عليه من أوضار الجاهلية والعودة به إلى ما كان عليه زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام. قال المناوي(1031 هـ)، يجدد لها دينها: أي يبين البدعة، ويكثر العلم وينصر أهله، يكسر أهل البدعة ويذلهم قالوا ولا يكون إلا عالما بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة[125]

ويقول العظيم آبادي في عون المعبود :التجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب و السنة و الأمر بمقتضاهما و إماتة ما ظهر من البدع و المحدثات، والمجدد حي عالم يشار إليه.

كما يسوق بيتين للسيوطي (911هـ) في المجددين:

والشرط في ذلك أن يمضي المائة وهو على حياته بين الفئة

يشار بالعلم إلى مقامه وينشر السنة في كلامه[126].

ويذكر السيوطي في جامعه الصغير أن المراد بتجديد الدين، تجديد هدايته، وبيان حقيقته وأحقيته ونفي ما يعرض لأهله من البدع والغلو فيه، أو الفتور في إقامته، ومراعاة مصالح الخلق، و الاجتماع والعمران في شريعته.

فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر، فهذا ليس من التجديد في شيء... بل يعنى التجديد العودة به إلى حيث كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ومن تبعهم ..

3- المحور الثالث: تنزيل الأحكام الشرعية على ما يجد من وقائع وأحداث ومعالجتهما معالجة نابعة من هدي الوحي.

يقول الكاتب عمر عبيد حسنة (ليس المراد بالاجتهاد والتجديد الإلغاء والتبديل وتجاوز النص وإنما المراد هو الفهم الجديد القديم للنص فيها يهدي المسلم لمعالجة مشكلاته وقضايا واقعة في كل عصر يعيشه، معالجة نابعة من هدي الوحي) في كتابه الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية ص 20.

---

[125]- فيض القدير شرح الجامع الصغير المناوي، الجزء الثاني، ص 281 الطبعة الثانية 1391هـ/1972م، دار المعرفة، بيروت لبنان.

[126]- عون المعبود على شرح نسن أبي داود شرف الحق العظيم آبادي، ص 1959، الطبعة الأولى 1426هـ/2005م، دار ابن حزم بيروت لبنان.

ويقول عبد الفتاح إبراهيم (التجديد يعني العودة إلى المتروك من الدين، وتذكير الناس ما نسوه وربط ما يجد في حياة الناس من أمور بمنظور الدين لها، لا بمنظارها للدين)[127].

ويقول الطيب برغوث عن التجديد هو تمكين الأمة من استعادة زمام المبادرة الحضارية في العالم كقوة توازن محورية، عبر إحكام صلتها من جديد سنن الآفاق والأنفس والهداية، التي تتيح لها المزيد من الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني[128].

خلص صاحب كتاب التجديد في الفكر الإسلامي إلى تعريف جامع من خلال ما سبق وهو: تجديد الدين يعني إحياء ما اندرس منه، وتخليصه من البدع والمحدثات، وتنزيل أحكامه الثلاثة (إسلام إيمان إحسان) على واقع الحياة ومستجداتها.

وخلص أيضا إلى إشارة تأملية في التعريفات مفادها أن الذي يقع عليه التجديد هو علاقة الأمة بالدين وفكرها المتفاعل مع نصوصه، وليس الدين نفسه، إذ هناك دين وتدين: أما الدين فهو المنهج الإلهي الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وأنزل به كتابه، من عقيدة وعبادة وأخلاق وشرائع لينظم علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الناس بعضهم ببعض.

والدين بهذا المعنى، ومن حيث أسسه وأصوله ثابت لا يتغير ولا يقبل التغيير ولا التجديد.

أما التدين فيعني الحالة التي يكون عليها الإنسان أو الناس في علاقتهم بالدين فكرا وشعورا عملا وأخلاقا، ظاهرا وباطنا، وفي هذا المعنى يقال، فلان ضعيف الدين أو قويه، حسن الإسلام أو رديئه، فهذه الحالة هي التي يقع عليها التجديد، وتقبل الإصلاح، وهذه الحقيقة ذكرها الدكتور سيف الدين عبد الفتاح بقوله: "تجديد الدين وهو في حقيقته تجديد وإصلاح لعلاقة المسلمين بالدين والتفاعل مع أصوله والاهتداء بهديه

---

[127]- إسلامية المعرفة، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر: الاجتهاد والتجديد في علوم السنة عبد الجبار سعيد ص 93 العدد 86، 1487هـ/2016م.

[128]- نفس المصدر ص 93.

لتحقيق العمارة الحضارية وتجديد حال المسلمين، ولا يعنى إطلاقا تبديلا في الدين أو الشرع ذاته...[129].

ولهذا فرسالتي تنصب حول التجديد في فكر الشيخ رضى الله عنه لا في أصول الدين وأحكامه والمجدد الصوفي هو الذي يزيل من التصوف ما ليس منه من الزيادات والإضافات والمفاهيم والانزلاقات والشطحات وهي كثيرة كما أشار فاروق النبهان محمد.

مما تقدم نجد أن التجديد يعني إعادة ترميم الشيء البالي (نقيض البالي) وليس خلق شيء لم يكن موجودا أصلا (نقيض الخلق)، وبهذا المعنى فإن التجديد في مجال الفكر أو في مجال الإنشاء على السواء هو أن تعيد الفكرة أو الشيء الذي بلي أو تقادم أو تراكمت عليه من السمات والمظاهر ما طمس جوهره، وأن تعيده إلى حالته الأولى يوم كان أول مرة، فتجدد الشيء أن يعيده جديدا وكذلك الفكر[130].

وعليه فإن اختيار كلمة التجديد لاستخدامها على ما نحن فيه في موضوع التجديد في الفكر الصوفي والأسلوب والقراءة للنص المقدس يأتي منصبا على المجال المسموح به كما سبق، حيث أن شيخ الطريقة لم يكن ليدعي أنه اختلق فكرا جديدا أو طرح إيديولوجية أو عقيدة جديدة، بل هو نفض الغبار عن شيء بال أو سدد الفهم لمعلوم من الدين بالضرورة.

ولأن من شروط البحث العلمي تحليل مفاهيم المصطلحات المحورية في البحث، يحسن بي أن أورد هنا بعضا مما توصلت إليه في استخدام هذا المصطلح ودلالاته، وأن ما يورده برهان غيلون مثلا حول مفهوم التجديد بأنه يجب أن يرتبط كما هو بالفعل بمفهوم الإبداع الفكري، أي مما يسمح لمنظومة فكرية أن تستعيد فاعليتها وقدرتها على الانتاج المبدع، للمعاني الجديدة أو المتجددة فهو يتفق مع ما يهدف إليه في تفسير حركة التجديد في فكر شيخ الطريقة جمال الدين القادري وآرائه وتوجيهاته، وليرتفع

---

[129]- نفس المصدر ص 93-94.

[130]- برهان غليون الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر ط.1 1991، ص 82.

اللبس الذي قد يقع في طرح موضوع التجديد للفكر الإسلامي (الصوفي السني) سيرا على هدي النص المقدس في القرآن والسنة[131].

فالشيخ جمال الدين حينما يجدد فهو يستخرج ما كان محجورا عليه من أحكام ونظريات وأفكار داخل الطريقة البودشيشة ليعيده إلى العقول وليصل فيه إلى التجسيد العملي والممارسة الروحية من جهة وإلى التفسير المتجدد والتحديث في الأسلوب والخطاب من جهة أخرى.

إنه تجديد في التفاعل بين عقل المسلم وأحكام دينه، تفاعل يعيد النظر في رؤيتنا وفهمنا الديني والعودة إلى الإسلام الحقيقي والوقوف على الروح الحقيقة للإسلام الأول.

كما يمكن اعتباره تجديدا واعيا لإحياء وإعمار الأرض بتجسيد تعاليم الدين، متمشيا مع قواعد وضوابط ومناهج واضحة ومقاصد ثابتة.

وتأسيسا على ما سبق فالتجديد في التصوف لا يعني التجديد في مبادئه وأصوله وتوابثه وإنما يعني تجديد فهم الناس للتصوف وتجديد المعنى القائم بالقلوب مما يتعلق بالعقيدة والعبادة وتصفيتها مما يتعلق بالنفوس وتزكيتها، لأن العقيدة لها موقع كبير في مجال التصوف وتجديد فهم الناس لها وتجديد تناول الناس لأحكامه، وتجديد علاقة الناس بهذا الجانب العظيم في حياة المسلم من حيث فهمه فهما صحيحا، ومن حيث علاقة الإنسان المهتم بقضاياه و بالآخرين.

لقد تناول مفهوم التجديد جمع من العلماء والمفكرين، وتباينوا أحيانا واتفقوا أحيانا أخرى تبعا للزاوية التي ينظرون منها للمفهوم، والإطار الذي يبحثون فيه، والسياق الذي يحكمهم، فتجديد الفكر غير تجديد الحضارة، وكلاهما غير تجديد الدين أو أجزاء منه، ونظرة المفكر والفيلسوف غير نظرة عالم الدين وهكذا...

وقد كتبت في التجديد والاجتهاد في علوم الشريعة وفي الفقه والتصوف والفكر والخطاب الديني عموما كتب وأبحاث كثيرة ومن أهمها:

1- مفهوم تجديد الدين لبسطامي محمد سعيد تعرض لمفهوم التجديد السني والمفاهيم الخاطئة للتجديد والمفاهيم المعاصرة.

[131]- برهان غليون الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر ط.1 1991، ص 82.

2- التجديد في الفكر الإسلامي د. عدنان محمد أمامة، تناول فيها دراسة المفهوم لغة واصطلاحا والتجديد في جميع العلوم الإسلامية بشكل مختصر، وركز على علوم السنة والتجديد فيها.

3- كتب محمد عابد الجابري.

كما كان التجديد دائما محور الكثير من المشاريع الإصلاحية الفكرية والعلمية والدعوية على صعيد الأمة وعبر التاريخ، فقد أسهم الإمام الغزالي تاريخيا في تجديد الدين وإصلاح الأمة في زمانه عبر مدارسه العلمية ومؤلفاته وأسهم ابن تيمية عبر إنجازه الثقافي والفكري في مواجهة الغزو والاحتلال.

وكذا كان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدة ومحمد رشد رضا وعلال الفاسي والطاهر ابن عاشور ومالك بن نبي... وما أحدثوه من تحولات وانعطافات مهمة في الفكر الإسلامي، وصولا إلى مدرسة إسلامية المعرفة.

فقد كان لكل ذلك آثار ملموسة في تجديد الفكر الإسلامي والخطاب الديني، وتطوير مناهج التعامل مع التراث وأصول الدين الإسلامي (القرآن والسنة). وقد كانت محاولات التجديد هذه تواجه في كثير من الأحيان بمحاولات القمع والتشويه والإنكار.

يضاف إلى ما سبق من الكتب، كتب عالجت موضوع التجديد في الفقه الإسلامي منها:

1. مفهوم التجديد محمود الطحان.
2. التجديد في أصول الفقه حسن الترابي.
3. تجديد الفقه الإسلامي جمال عطية ووهبة الزحيلي.
4. السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث محمد الغزالي.
5. الفقه الإسلامي في طريق التجديد محمد سليم العوا.
6. التشريع والفقه لمناع القطان.
7. الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد للقرضاوي
8. الفتوى بين الانضباط والتسيب للقرضاوي.
9. التجديد في الإسلام (المنتدى الإسلامي – لندن).

10. الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية عمر عبيد حسنة.
11. المجددون في الإسلام دامي الخولي.

وغير ذلك من الكتب والمشاريع الداعية إلى التجديد وهي كثيرة والملاحظ أنها وغيرها تتحدث عن التجديد إما في الدين عموما وإما في الفقه خصوصا، والذي يهمنا في هذا المقام ما يتعلق بالتجديد في علم التصوف ومن المهم التفريق بين التجديد في التصوف وبين تجديد التصوف.

والتجديد ثمرة من ثمرات الاجتهاد، إذ المعنى اللغوي يربط بينهما ربطا واحدا، ومن ثم فالتجديد فيما يذهب إليه المجدد شكل من أشكال الاجتهاد وبينهما عموم وخصوص.

ولا شك في أن التجديد والاجتهاد مفهومان على غاية من الأهمية، فمع مرور الزمن يألف الناس الأفكار حتى تكاد تفقد معناها، وتستجد ظروف ومسائل و تطرأ قضايا ونوازل تحتاج إلى بيان أحكامها، لذلك يلزم الاجتهاد في إثارة الفكر، وتحريك الهمم لتعميم النصوص وتنزيلها على الوقائع المتجددة، فبعض أشكال الفهم تحتاج إلى مراجعة، وبعض مسائل العلم تحتاج إلى إعادة تكييف وتقويم، من أجل ذلك جاءت الشريعة بتأكيد الحاجة إلى استمرار الاجتهاد، لاستنباط طرق جديدة في الفهم، وتجديد قدرة الدين على الاتصال بقضايا الحياة في الزمان والمكان، وبذلك تتحقق متطلبات التقدم في حياة الأمة وعمران المجتمع وتواصل نهوضها الحضاري. وهكذا يرى الناس جدة الدين وحيويته وصلته بالأحداث الواقعة والقضايا المتجددة، وبهذه الطريقة نفهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[132].

ويرى عمر عبيد حسنة أن هذا الحديث "لا يجوز أن يقتصر فيه– كما هو حال الذين يعيشون في غرفة الانتظار– على الإخبار بما سيكون فقط، وإنما له أبعاد أخرى متعددة يأتي في مقدمتها وعلى رأسها بعد تكليفي أيضا، يتضمن حمل الأمانة

[132]- الاجتهاد والتجديد، عبد الجبار سعيد، ص 94–95.

واستشعار المسؤولية عن هذا الدين وحراسة النصوص، والاجتهاد لاستمرار عطائها وتحقيق الانفعال بها في حياة الناس"[133].

والتجديد الذي هو إحياء القديم ونفض الغبار عنه، وتسهيل الوصول إليه، وتحبيب الناس فيه فهو من باب تجديد الدين بلا شك وهذا مرتبط بتأكيد النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك في حديث تجديد الدين السالف ذكره.

وإذا لم يطل التجديد العلوم المتعلقة بأصول الدين وثوابته وقطعياته فكيف سيكون التجديد إذن؟ خاصة إذا علمنا أن أصول الدين ثابتة لا تتغير، فما الذي يتجدد إن لم يكن تجددا لفهم المتشكل بناء على العلوم المرتبطة بالنص واللازمة له.

يقول عبد العظيم الديب (لا يعنى–التجديد– تبديل الدين أو تغييره، وإنما هو العودة إلى المنابع الأولى الصافية، وهي القرآن والسنة النبوية الصحيحة وفقه الصحابة والتابعين، دون أن يكون بذلك إنكار للحاضر وإهمال الواقع)[134].

ويشار في ختام هذا المبحث وبالتأمل في تعريفات التجديد إلى أن الذي يقع عليه التجديد هو علاقة الأمة بالدين وليس الدين كما سبقت الإشارة إليه.

ولست هنا في سياق أصولي حتى أسوق شروط المجدد، لكن تجدر الإشارة إلى أن المجدد لا يكون إلا عالما بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنية قال ابن كثير: قد ادعى قوم في إمامهم أنه المراد بهذا الحديث، والظاهر أنه يعم جملة من العلماء من كل طائفة وكل صنف من مفسر ومحدث وفقيه ونحوي ولغوي وغيرهم، وذكر صاحب فيض القدير قصيدة جمع فيها المجدد في كل قرن، وهي:

الحمد لله العظيم المنة	المانح الفضل لأهل السنة
ثم الصلاة والسلام نلتمس	على نبي دينه لا يندرس
لقد أتى في خبر مشتهر	رواه كل حافظ معتبر
بأنه في رأس كل مائة	يبعث ربنا لهذي الأمة
منا عليها عالما يجدد	دين الهدى لأنه مجتهد

[133]- نفس المصدر ص 95، الأعمال الكاملة الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية بيروت.

[134]- التجديد في الإ.سلام ص 20/ بكتب الإسلامي ط 1 2011م ص 17.

فكان عند المائة الأولى عمر خليفة العدل بإجماع وقر
والشافعي كان عند الثانية لما له من العلوم السامية
وابن سريج ثالث الأئمة والأشعري عده من أمه
والباقلاني رابع أو سهل أو الإسفراييني خلف قد حكوا

وأبقى باب الاجتهاد والتجديد مفتوحا بمن الله وكرمه إلى أن يختم بنزول عيسى عليه السلام كما قال في آخر قصيدته:

وآخر المئين فيما يأتي عيسى نبي الله ذو الآيات
يجدد الدين لهذي الأمة وفي الصلاة بعضنا قد أمه
مقررا لشرعنا ويحكم بحكمنا إذ في السماء يعلم
وبعده لم يبق من مجدد ويرفع القرآن مثل ما بدي[135].

تجديد علم التصوف (التزكية والسلوك) في وقتنا الحاضر

علم التصوف أو علم التزكية والسلوك يكتسي أهمية كبيرة ويتسنم مرتبة عالية في الدين الإسلامي، وحاجة الناس إليه ظاهرة في كل زمان ومكان، واهتمام العلماء به يتخذ بعدين أساسيين:

الأول: تنقية هذا العلم مما شابه من الانحرافات والضلالات، وإنقاذ العالم الإسلامي الذي زرح ردحا من الزمن ولازال يرزح تحت وطأة الضعف والهوان بسبب التشوهات الكبيرة التي أصابت عقائد الكثير من المسلين.

الثاني: بعث وإحياء السلوك الصافي المستمد من القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ونشره بين الناس عملا وسلوكا كما تمثله السلف الصالح رضوان الله عليهم.

وقد انبرى لهاتين المهمتين العديد من العلماء قديما وحديثا وما فتئوا منذ بداية ظهور الانحراف في علم السلوك يحذرون وينصحون قال أحمد بن حنبل وقد سئل عن الوساوس والخطرات فقال: "ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون"[136].

---

[135]- فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (1031هـ) الجزء الثاني ص 282 الطبعة الثانية 1301هـ/1972م دار المعرفة بيروت –لبنان. =

وعنه رحمه الله أنه سمع الحارث المحاسبي فقال لصاحب له: "لا أرى لك أن تجالسهم".

ركائز التجديد:

الركيزة الأولى: الجمع بين خاصتين الثبات والمرونة:

أ. **خاصية الثبات:** الثابت في الإسلام هو ما لا يتغير بتغير الزمان أو المكان، ولا يسوغ أن يكون محل اجتهاد، فأحكامه ثابتة باقية مهما تطورت الحياة لأن المصالح التي روعيت في تشريعها ثابتة وما يبنى على الثابت فهو ثابت[137].

ويمثل ذ عدنان أمامة لهذه الثوابت (بكليات الشريعة وأصولها العامة، فهذه لا تصطدم بواقع زمان أو مكان، بل تفي بمتطلبات كل زمان ومكان على أحسن الوجوه وأكملها، فإذا فرض أن تم متطلبات لم تتعرض لها، فذلك دليل على عدم شرعية تلك المتطلبات نفسها لا في الشريعة)

وعموما فخاصية الثبات تشمل المجالات الآتية:

1. في العقائد والحقائق الإيمانية والأخبار الغيبية.
2. في الأصول والكليات ومقاصد الشريعة العامة.
3. في الأخلاق والفضائل العامة.
4. في العبادات.
5. في أحكام الحدود والمقدرات والأنصبة.
6. لكل الأحكام القطعية التي دلت عيها نصوص الشريعة.

ب. أما خاصة المرونة فتعني أن الله أودع في هذه الشريعة الغراء من عوامل الثراء والخصوبة والحيوية ما يجعلها صالحة للنماء والتجدد الذاتي، وقادرة على مواجهة مختلف التقلبات الزمانية والمكانية والبيئية ويدخل في هذه الخاصية "تلك الأحكام التي ربطها الشارع بعللها وأسبابها، فحين تتغير العلة أو السبب، فيعني ذلك أن الواقعة قد

= [136]- التجديد في الفكر الإسلامي د.عدنان محمد أمامة ص 233، الطبعة الأولى رجب 1434هـ دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع.

[137]- معالم الهدى إلى فهم الإسلام، مروان إبراهيم القبين ص 117 الطبعة الأولى 1406هـ/1985م المكتبة الإسلامية، عمان الأردن.

تغيرت قيتغير حكمها تبعا لذلك ولا يعقل أبدا اختلاف الحكم الشرعي في واقعتين متماثلتين في الحقيقة مشتركتين في العلة والسبب[138].

يقول ابن قيم الجوزية(751 هـ) عن أنواع الأحكام الشرعية: (الأحكام نوعان:

النوع الأول: نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ولا اجتهاد الأئمة كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زمانا ومكانا وحالا، كمقادير التقديرات وأجناسها فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة)[139].

<u>الركيزة الثانية:</u> رعاية الضرورات والأعدار والظروف الاستثنائية.

وذلك أن الله ما شرع حكما من الأحكام ولا أوجب تكليفا من التكاليف إلا وشرع إلى جانبه سبل التيسير فيه، فقد شرع الصلاة بهيئة معينة وأوقات محددة وأماكن لإظهار شعائرها، لكنه راعى في الوقت نفسه الظروف الاستثنائية التي يتعرض لها بعض الناس، فخفف من أركانها عن المريض وشرع للمسافر الجمع والقصر، وجعل لعامل الخوف ظروفا استثنائية وخير مثال على هذا قرار إغلاق المساجد وبيوت العبادة لتفشي وباء كورونا كوفيد 19.

بل إن المسألة الواحدة لها عدة أحكام بحسب الظروف والأحوال، فأكل لحم الخنزير حرام لكنه ينقلب إلى واجب أكله في حالة الضرورة {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[140]. يقول الإمام الشاطبي (إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع).

---

[138]- التجديد في الفكر الإسلامي ص 29-30.

[139]- أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية الجزء الأول ص 50-51، الطبعة الأولى دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع جدة الرياض.

[140]- سورة البقرة آية 173.

ووضع العلماء لبيان خاصية اليسر ورفع الحرج العديد من القواعد على ذلك من أشهرها المشقة تجلب التسير[141] والضرورات تبيح المحظورات، ويتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام والضرر الأشد يزال بالضرر الأخف[142].

الركيزة الثالثة: من ركائز التجديد، تعليل الأحكام الشرعية.

تنقسم الأحكام الشرعية إلى قسمين:

أ- أحكام تعبدية غير معقولة المعنى: وهذه يجب على المسلم الخضوع لها وإظهار الطاعة والتسليم المطلق تجاهها وتنفيذها بحرفيتها.

ب- أحكام معقولة المعنى: تتيح للمجتهدين والمجددين توسيع صورها والقياس عليها وبناء الأحكام على عللها وأسبابها وهي الغالب على أحكام الشريعة.

يقول الخطيب البغدادي (463هـ): (التعبد من الله تعالى لعباده على معنيين:

أحدهما: التعبد في الشيء بعينه لا لعلة معقولة، فما كان في هذا النوع لم يجز أن يقاس عليه.

والمعنى الثاني: التعبد لعلل مقرونة به، وهي الأصول التي جعلها الله تعالى أعلاما للفقهاء، فردوا إليها ما حدث من أمر دينهم مما ليس فيه نص بالتشبيه والتمثيل عند تساوي العلل من الفروع بالأصول)[143].

وقد وفق الله المجددين بفضل خاصية تعليل الأحكام في الشريعة أن يستنبطوا مصادر تشريعية عديدة كالقياس والاستحسان والعرف والمصالح المرسلة وسد الذرائع والاستصحاب ونحوها، بل إن علم مقاصد الشريعة ما نشأ إلا بسبب تعليل الأحكام.

الركيزة الرابعة من ركائز التجديد: مراعاة الشريعة لمصالح العباد.

(وما أرسلناك إلا رحمةللعالمين) {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} النمل 89.

يقول ابن القيم: (إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة

---

[141]- الاشباه والنظائر للسيوطي ص 76 دار الكتب العلمية بيروت.

[142]- الاشباه والنظائر للسيوطي ص 77.

[143]- الفقيه والمتفقه الخطيب البغدادي ص 227 دار الوطن بالرياض الطبعة الأولى 1418هـ/1997.

خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة و إن أدخلت فيها بالتأويل فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسول الله صلة الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرة العيون وحياة القلوب ولذة الأرواح، فهي بها الحياة والغذاء والدواء، والنور والشفاء والعصمة، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها، وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها، ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوي العالم، وهي العصمة للناس وقوام العالم وبها يمسك الله المساوات والأرض أن نزولا)[144].

ويقول العز بن عبد السلام (660هـ): (والشريعة كلها مصالح، إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح فإذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا.. فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيرا يحثك عليه أو شرا يزجرك عنه أو جمعا بين الحث والزجر)[145].

ويقول ابن تميية: (فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتعليلها)[146].

وقد استقرأ العلماء مصالح العباد التي جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيقها والحفاظ عليها فوجدوها لا تخرج عن ثلاثة أنوع:

1. مصالح ضرورة: لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد[147].
2. مصالح حاجية.
3. مصالح تحسينية.

---

[144]- أعلام الموقعين الجزء 1 ص 41.

[145]- قواعد الأحكام في مصالح الإمام عز الدين بن ع السلام، الجزء الأول، ص 19، طبعة 1411هـ/1981م، مكتبة الكليات الأزهرية مصر القاهرة.

[146]- التجديد في الفكر الإسلامي ص 34، أخذه من منهاج السنة النبوية 131/2.

[147]- الموافقات، الشاطبي (790هـ) المجلد الثاني ص 18/17 دار ابن عفان الطبعة الأولى 1417هـ/1997م.

وقد حصر العلماء الأصول الكلية التي جاءت الشريعة بحفظها في خمسة هي: الدين والنفس والعقل والنسل والمال وقالوا إنها مراعاة في كل ملة[148].

الركيزة الخامسة من ركائز التجديد: مراعاة الشريعة لأعراف الناس وعاداتهم:

فهناك جانب غير قليل من الأحكام الشرعية له صلة وثيقة بالعرف والعادة، وفي ذلك دليل على مرونة الشريعة الإسلامية لاسيما في باب المعاملات، والعرف المعتمد هو الذي لا يخالف دليلا أو أصلا من أصول الشريعة.

يقول ابن عابدين "فكثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله أو لحدوث ضرورة أو لفساد أهل الزمان، بحيث لو يبقى الحكم على ما كان عليه أولا للزم منه المشقة والضرر بالناس، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير ودفع الضرر والفساد لبقاء العالم على أتم نظام وأحسن إحكام)[149].

ولأهمية العرف ودوره، نرى أن العلماء عدوا قاعدة "العادة محكمة" إحدى القواعد الخمسة التي يدور عليها الشرع الإسلامي جملة.

ولأجل ذلك وضع ابن القيم للمجدد والمجتهد شرطين لابد له منهما وهما:

الأول: فهم الواقع والفقه فيه باعتماد القرائن والإمارات والعلامات حتى يحيط به علما.

والثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع.

ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بدل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجرا[150].

المجالات الإجمالية لتجديد الدين.

المجال الأول: الحفاظ على نصوص الدين الأصلية صحيحة نقية :

إذا كان المراد من حديث التجديد: إحياء وإعادة ما اندرس من الدين، فإن الدين إنما يقوم على النصوص الأصلية التي أنزلها الله في كتابه أو بينها رسول الله صلى

---

[148]- الموافقات، الشاطبي (790هـ) المجلد الثاني ص 20 دار ابن عفان الطبعة الأولى 1417هـ/1997م.

[149]- مجموعة رسائل بن عابدين المجلد الثاني، ص 125 (النسخة التي أخذت منها هذا القول لا تتضمن أي إشارة عن الطبعة).

[150]- إعلام الموقعين المجلد الأول ص 165.

الله عليه وسلم، إذ لا بقاء لدين دون حفظ نصوصه، وما حرفت الأديان السابقة على الإسلام وانحرفت عن الصراط المستقيم إلا بسبب ضياع أصولها وتقصير أتباع تلك الديانات في حفظها والتوثق من نقلها والقرآن قد تكفل الله بحفظه حيث قال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[151].

وحفظ القرآن يستلزم حفظ السنة لأنها بيان للقرآن كما قال تبارك وتعالى {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}[152].

إذن فكل الجهود التي بذلت وتبذل لحفظ نصوص الدين الأصلية من الضياع ومن الاختلاط بغيرها تعد من التجديد.

<u>المجال الثاني:</u> نقل المعاني الصحيحة للنصوص وإحياء الفهم السليم لها:

مما لا شك فيه أن الصحابة رضوان الله عليهم تلقوا معاني القرآن الكريم من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تلقوا ألفاظه، وكذلك أقواله وأفعاله وتقريراته، وبالتالي لم تترك هذه المعاني لغيرهم، إذ لو تركت لا يبعد أن تتعدد أشكال الدين نظرا لاختلاف العقول والأفهام وتأثرها بعوامل الزمان والمكان والبيئة والثقافة والأهواء والنزعات، لذلك نلاحظ أن الجهود التي بذلت لتحريف نصوص القرآن والسنة قد باءت كلها بالفشل لأنهما محفوظان بحفظ الله.

فعمل المجدد متعلق بإحياء منهج الصحابة ومن تبعهم بإحسان في تلقي الإسلام فهما وتطبيقا، والعناية بتوثيق المنقول عنهم في هذا الباب.

<u>المجال الثالث:</u> الاجتهاد في الأمور المستجدة وإيجاد الحلول لها:

نصوص الشريعة محدودة وقضايا الناس ونوازلهم غير محدودة مما يحتم فتح باب الاجتهاد لإنزال النصوص المحدودة على الحوادث الممدودة.

<u>المجال الرابع:</u> تصحيح الانحرافات.

والانحراف يتخذ بعدين اثنين :

---

[151]- سورة الحجر آية 9.

[152]- سورة النحل آية 44.

أحدهما: انحراف المفاهيم والقيم: بظهور اعتقادات وتصورات عن الدين بخلاف الحق الذي أنزله و أراده الله .

والثاني: انحراف في السلوك والعمل: ببقاء الاعتقاد صحيحا، لكن السلوك والعمل باختلاف الاعتقاد والتصور.

وقد أرجع ابن القيم الانحراف الأول إلى مرض الشبهة بينما أرجع الثاني إلى مرض الشهوة يقول رحمه الله (إن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان موته وهلاكه وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات، هذان اصل داء الخلق إلا من عافاه الله)[153].

لأجل ذلك كانت عناية المجددين بتصحيح الانحراف الناشئ عن الشبهات أعظم وأشد، وإن شمل تجديدهم وإصلاحهم الإنحراف في السلوك والأعمال أيضا.

المجال الخامس: حماية الدين والدفاع عنه والجهاد في سبيله.

قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ}[154].

فكل من يبذل جهده ويستفرغ وسعه في مجال من هذه المجالات الخمسة المتقدمة فله من التجديد نصيب، وبقدر ما تتعدد المجالات والميادين التي يخوض المجدد غمارها بقدر ما تعظم رتبته في التجديد، وأكمل المجددين من شمل تجديده الميادين كلها.

3- فكر جمال الدين القادري بودشيش ونظرته للطرق الصوفية وشيوخها

لقد عاش شيخ الطريقة البودشيشية منذ صغره في أحضان مؤسسة الزاوية، فنهل من أورادها وإشراقاتها وتنقل بين زواياها الفرعية وأحيى لياليها العرفانية مما جعله يجمع بين النظرية والممارسة فأصبح مهتما بقضايا التصوف الإسلامي فكرا وتطبيقا، وهذا ما

[153]- مفتاح دار السعادة ابن القيم المجلد الأول ص 367 دار ابن عفان العربي الطبعة الأولى 1416هـ/1996م.

[154]- سورة الحديد آية 25.

جعله يكاد يتفرد برؤية تجديدية قادرا على إقناع كل من يعادي التصوف ويعتبره سببا في تفرق وحدة الأمة.

فحينما تعرض بالبحث في الطرق الصوفية اعتبر أن تعددها لا يعني تفرق الأمة أو تشتتها لأن كل طريقة تنتمي إلى التصوف حقيقة، فهي مطابقة لغيرها من الطرق في جوهر المنهج الصوفي وغاياته وأهدافه وإن كانت تختلف عنها في بعض الأساليب التربوية التي يراها شيخ الطريقة أنسب لعصره وبيئة المريد مع انسجامها مع روح الشرع الإسلامي ومقاصده ويأتي توحدها أيضا من صحة سندها و تقاطعه فيما بينها.

فالاختلاف والتعدد في الطرق الصوفية هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد يقول العلامة جمال الدين: فالتعدد في الطرق هو فقط تجسيد لمبادئ التصوف في الواقع التاريخي.

فكما أن الله حذر عباده من اتباع طرق الشيطان من قوله عز وجل: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}[155]، فقد أرشدهم إلى طرق الخير بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}[156] وقوله جل وعلا {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ}[157].

فيتبين من هذه الآيات أن هناك سبل الخير وهناك سبل الشر.

فنخلص إلى أن الطرق وإن تعددت، إذا كانت صحيحة في وسائلها وغاياتها المتمثلة في الوصول إلى رضوان الله تعالى والعمل بالشريعة على وجه الاخلاص، منزهة عن البدع والضلالات فهي سبيل من سبل الهداية المقصودة في الآيتين السالفتين.

والتعدد والاختلاف في الطرق الصوفية إنما هو في الفروع والآداب وأساليب التربية وشأن الطرق بهذا كشأن المذاهب الفقهية واختلاف الأئمة والمحدثين فقد اتفقوا في الأصول واختلفوا في الفروع، وهذا الاختلاف ليس فيه ضرر شرعي بل هو رحمة

---

[155]- سورة الأنعام آية 153.

[156]- سورة العنكبوت آية 69.

[157]- سورة المائدة آية 18.

بالناس وتيسير على المسلم في أمور دينه، وهذه المقارنة أشار إليها شيخنا الأرضى رضي الله عنه معتبرا أن الفقه الإسلامي جسد تعددا في الطرق والمذاهب يقول، لو نسبت المذاهب إلى أسماء المجتهدين الذين احتفظ التاريخ بأسمائهم لوجدنا بالإضافة إلى المذاهب المعروفة من شافعية ومالكية وحنبلية وحنفية وظاهرية، أسماء كالليثية (نسبة لليث بن سعد) والعينية (نسبة إلى سفيان بن عينية) والبصرية أو الحسنية (نسبة إلى الحسن البصري) والأوزاعية (نسبة إلى الأوزاعي) والثورية (نسبة إلى أبي ثور) والجريرية (نسبة لأبي جرير)، فكل هؤلاء مجتهدون لا يقلون شأنا عن الأئمة الأربعة، ولكن كما بين علماء تاريخ التشريع الإسلامي: كل مذهب وفق له مدونون موثوق بهم نجح وأخذ الجمهور به، ألا ترى قول الشافعي رحمه الله: كان الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به، ومعنى عدم قيامهم به أنهم لم يعنوا بتدوين آرائه الفقهية وبثها في الناس، فانطفأ اسمه بصفته مفتيا مجتهدا، وإن بقيت جلالته على ألسنة المحدثين بصفته راويا موثوقا به وبأمانته[158].

فتعدد المذاهب الفقهية برؤية شيخ الطريقة رضي الله عنه لا يعنى تعددا في التشريع الإسلامي، وإنما يعني تعددا في الاجتهادات في إطار مبادئ التشريع ومقاصده الكلية، ويترتب على هذه الرؤية أن اندثار بعض المذهب وعدم شهرتها لا يرتبط من قريب ولا من بعيد بمشروعيتها، بل إن أمر المشروعية يرجع إلى مدى التقيد بأحكام التشريع الإسلامي وقواعده، فإذا ما وجدنا في بطون الكتب الفقهية رأيا مما ينسب إلى هاته المذاهب المندثرة، كان محك صحته هو الرجوع به إلى هاته الأحكام، فالأمر كذلك بالنسبة للطرق الصوفية التي أسدت لهذه الشريعة فضلا عظيما في زمانها والتزمت بمبادئ التصوف الإسلامي الأصلية وقامت بدورها في زمنها وبقي الاعتراف بها دينا في عنق الأمة العربية عرفه من عرفه وأنكره من أنكره.

فالتعدد والاختلاف لا يمس الهدف وإنما يقتصر على اختلاف الأساليب والمناهج التي يتم بها الوصول إلى تحقيق الهدف، ويرجع ذلك الاختلاف إلى تعدد الوسائل في عبادة الله عز وجل.

---

[158]- تاريخ التشريع الإسلامي، محمد الخضري بك، ص 283 الطبعة الثانية 1387هـ/1967م دار الفكر.

لقد اعتمد شيوخ الزوايا في تربية المريدين طرقا ومناهج باختلاف مشاربهم واختلاف البيئة الاجتماعية التي يظهرون فيها، وكل هذه الطرق لا تخرج عن كتاب الله وسنة رسوله، بل هي من باب الاجتهاد المفتوح للأمة ولذلك قيل: لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق.

فقد يسلك بعض المشايخ طرق الشدة في تربية المريدين فيأخذونهم بالرياضيات العنيفة ومنها كثرة الصيام والسهر وكثرة الخلوة والاعتزال عن الناس وكثرة الذكر والفكر كما ذكر ابن قدامة و لاحظناه في تراجم شيوخ الطريقة البودشيشية كما سبق.

وقد يسلك بعض المشايخ طريقة اللين في التربية فيأمر مريديه بشيء في الصيام وقيام مقدار من الليل وكثرة الذكر ولكن لا يلزمهم بالخلوة والابتعاد عن الناس إلا قليلا.

*ومن المشايخ من يتخذ طريقة وسطى بين الشدة واللين في تربية المريدين.

وترجع كل هذه الطرائق في أصلها إلى المنهج النبوي الشريف حيث كان رسول الله يخص كل واحد من الصحابة بورد يتفق مع درجته وأحواله كعلي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق مثلا، وقد صح عن شيخ الإسلام بن تيمية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخص كل قوم بما يصلح لهم، ومعنى هذا أن الأعمال المشروعة يختلف الناس فيها بحسب اختلاف أحوالهم مادام يشتركون في أصل الايمان بالله وتوحيده والتصديق بكتبه ورسله.

ويعتبر العلامة جمال الدين أن عامل اختلاف الطبائع البشرية مما يجعل شيخ التربية يوجه كل مريد فيعطيه من الأذكار ما يلائم حاجاته وطاقته ويناسب وقته ومزاجه ويتفق وبيئته كما أن في تعدد الطرق وتنوعها واختلافها فائدة للمريد حيث يختار الطريقة التي تناسبه وتوائم طبعه، وبعد الاختيار يكون الالتزام بمنهج الطريقة التي اختارها، وهنا يستشهد بعلمين من أعلام الإسلام:

أ- أما الأول فهو من علماء القرن العاشر الهجري وهو أحمد زروق (899هـ) يقول رحمه الله في هذا الشأن في اختلاف المسالك راحة للسالك قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}[159].

ب- أما الثاني فهو سعد الدين التفتازاني (792هـ) الفقيه الحنفي، فقد شبه الطرق الروحية بالمدارس التي تتحد في غايتها من حيث التعليم الروحي وتختلف في وسائلها العلمية باختلاف المعلم والمربي الذي يجتهد في وضع أساليب وسبل خاصة بما يتناسب وخبرته العلمية ونظرته الشخصية بما هو أنفع وأجدى لتلاميذه. ومن هذا التشبيه يتضح أن الأسس والقواعد الرئيسية واحدة لدى مختلف المعلمين في العام الدراسي الواحد، كذلك لدى مختلف المشايخ والمريدين في المرحلة الواحدة.

فالاختلاف لا يكون إلا في المجال المصرح أو المسموح فيه بالاجتهاد، وهو مجال الوسائل والأساليب المستخدمة لتحقيق الهدف المرجو كأحزاب القرآن وأجزائه، والأوراد والأذكار المأثورة.

وإلى هذا المعنى أشار ابن قيم الجوزية بقوله: (إن الأحكام الشرعية التي تتبدل بتبدل الزمان مهما تغيرت باختلاف الزمن، فإن المبدأ الشرعي فيها واحد، وهو إحقاق الحق وجلب المصالح ودرء المفاسد، وليس تبدل الأحكام إلا بتبدل الوسائل والأساليب الموصلة إلى غاية الشرع، فإن تلك الوسائل والأساليب في الغالب لم تحددها الشريعة الإسلامية، بل تركتها مطلقة، لكي يختار منها في كل زمان ما هو أصلح في التنظيم نتاجا وأقوم في التقويم علاجا)[160].

إن نظرة سيدي جمال الدين إلى شيوخ التربية داخل مؤسسة الزاوية نظرة موضوعية تأصيلية حيث يبرز أنهم وهبوا أنفسهم هادين إلى الله، مرشدين الناس إلى أقوم السبل وأيسرها في التقريب إليه كل لما يناسبه ويصلح له، وذلك تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان يكلم الناس ويخاطبهم على قدر عقولهم ويأمر كل شخص بما يصلح له، فمنهم من أمره بالإنفاق ومن منهم من أمره بطاعة الوالدين ومنهم من

---

[159]- سورة العنكبوت آية 69.

[160]- أعلام الموقعين ابن قيم الجوزية الجزء الأول ص 49.

أمره بالكسب ومنهم من أمره بترك الكسب كأهل الصفة ومنهم من أمره بالحج....، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل منهم، أما في مرتبة الدعوة فكان يعمم ولا يخصص. وكان يقدم الأولى والأرجح على غيره كما في حديث الأعرابي الذي سأله: متى الساعة؟ فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم وماذا أعددت لها؟؟[161]

وخلاصة القول إن كل طريقة تتشكل من أفراد يتبعون شيخا مربيا، عارفا بمداخل النفس وعيوبها وأكدارها، ويخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي، ويحيون حياة جماعية تتخللها اجتماعات يومية ودورية وسنوية في مناسبات معينة ويعقدون مجالس الذكر ومدارسة العلم بصورة منتظمة في الزوايا والبيوت أحيانا.

فالطرق مدارس أخلاقية ومؤسسات تربوية لتهذيب النفوس وترويضها عمليا على المجاهدة ولطاعة الله فرضا ونفلا للبلوغ بها إلى أقصى درجات المعرفة بغية الوصول إلى الله سبحانه وتعالى[162].

والطريقة في النظم الاجتماعية هي تجسد المنهج في المجال الديني على شكل تنظيم هرمي لأتباع ذلك المنهج تحت توجيه وإشراف شيخ عارف يدين له مريدون وأتباعه بالتعظيم والامتثال الروحي و المحبة الصافية الصادقة.

وعموما فالطرق الصوفية بمثابة مدارس فكرية تطرح بين أتباعها أورادا ومناهج وأساليب تعبدية يصعد عن طريقها المريد على سلم المقامات والأحوال.

4- معالم التجديد في فكر الدكتور جمال الدين.

أهم معالم التجديد عند الدكتور جمال الدين القادري:

1- بيان المفهوم الوسطي المعتدل للممارسة الصوفية: لقد دافع شيخ الطريقة العلامة جمال الدين على هذا المفهوم الذي يتوسط ما ذهب إليه مؤيدوا التصوف الذين يرون أنه هو الوسيلة الفعالة لمواجهة مادية العصر الحاضر وما ذهب إليه

---

[161]- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والأدب باب المرء مع من أحب، ص 2032.

وأخرجه البخاري في الجامع الصحيح كتاب الأدب ص 1541.

[162]- التصوف في مصر والمغرب، ذ. منال عبد المنعم جاد الله، ص 124 بتصرف قليل.

خصومه الذين يرون أن الإنسان لا يستطيع الاستغناء عن الجانب المادي لأنه هام في تكوين الإنسان ولا ينفك عنه.

ولا شك أن هذا المفهوم الذي تبناه الدكتور هو ما قرره الإسلام حيث نادى بمنهج التوسط بين إشباع الجسد وإشباع الروح يقول الله تعالى {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}[163].

وفي الوقت ذاته رفض الرهبانية ونهى عن اتخاذها سبيلا في الحياة {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ}[164].

إن الموقف الإسلامي الصحيح يشجع الإنسان على الاستجابة لما ركب فيه من تطلع إلى الانطلاق من قيد الغرائز والترفع على الضرورة، ولكن بشرط ألا ينزع نفسه من الأرض، وإلا انتفى الغرض من وجوده عنها (هوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[165].

والدكتور جمال الدين بهذا المفهوم الوسطي للتصوف، تصدى لمحاولات المستشرقين التي لم تسلم من الأخطاء, ويرجع الخطأ في تفسيراتهم وتحليلاتهم إلى قصور في إدراك طبيعة الممارسة الصوفية، لافتقادهم للعنصر الروحي لسيطرة الفلسفات الغربية عليهم، والنزعات المادية التي تستحكم عقولهم كما تدور أفكارهم مع التقسيمات التقليدية للأفكار الدينية تبعا لعقائدهم. ولا يخفى على دارس أن ما بين هذه الأفكار والإسلام بونا شاسعا واختلافا كبيرا.

إنهم في نظرتهم إلى التصوف صبغوه بعقائدهم الأصلية، وأضفوا عليه انطباعاتهم الغربية ونظروا إليه بمنظار الحضارة الغربية.

لهذا كله لم تخل كتاباتهم من أخطاء منهجية جوهرية يدركها المسلم بفطرته، لأنه يستدل بفهمه لمقام الإحسان في الإسلام على تعسفهم في التفسير والتعليل، فالتصوف كنظام عقدي وسلوكي يصعب على الباحث ذو العقلية الغربية في تركيبته الارتفاع إلى مستواه.

---

[163]- سورة القصص آية 77.

[164]- سورة الحديد آية 27.

[165]- سورة هود الآية 61.

إن شيخ الطريقة رضي الله عنه لا يعارض الفكر الغربي الذي طور الإنسان في مجالات العلوم والعمران وأهله بالعلم الذي مكنه من الوصول إلى القمر، وإنما يتصدى للفكر الذي يبحث في ميدان الأخلاق والسلوك لأن هدفه القضاء على المثل العليا ومغزاه الحقيقي محاربة الفضائل التي نص عليها الدين كالصدق والمحبة والوفاء والعدل، وهي التي ستظل ثابتة مهما تقدم الزمن، يقول محمد أسد وهو العالم بمواطن الحضارة الغربية وأسرارها (ولكي نصل إلى إحياء إسلامي فإننا لا نحتاج إلى أن نبحث عن مبادئ جديدة في السلوك نأتي بها من الخارج، إننا نحتاج فقط إلى أن نرجع إلى تلك المبادئ القديمة المهجورة فنطبقها من جديد)[166].

2- يؤصل للصحبة ودورها عند الصوفية:

يعتبر الشيخ الطريقة الدكتور جمال الدين أن للصحبة أثرا عميقا في شخصية المسلم وأخلاقه وسلوكه والمريد يكتسب بالصحبة صفات شيخه بالتأثر الروحي والاقتداء العملي، ويؤكد أن الصحابة رضوان الله عليهم ما نالوا هذا المقام السامي والدرجة الرفيعة والذكر الخالد في التاريخ بعد أن كانوا في ظلمات الجاهلية إلا بمصاحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومجالستهم له، وما أحرز التابعون هذا الشرف العظيم إلا باجتماعهم بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويخلص الدكتور أن لرسول الله وراثا من العلماء العارفين بالله تعالى، ورثوا عن نبيهم العلم والخلق والإيمان والتقوى، فكانوا خلفاء عنه في الهداية والإرشاد والدعوة إلى الله، يقتبسون من نوره ليضيئوا للإنسانية طريق الحق والرشاد، فمن جالسهم سرى إليه من حالهم الذي اقتبسوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن نصرهم فقد نصر الدين، ومن ربط حبله بحبالهم فقد اتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن استقى من هدايتهم وإرشادهم فقد استقى من نبع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهؤلاء الوراث المرشدون، مرافقتهم ومجالستهم هي العلاج العملي الفعال لإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق وغرس العقيدة ورسوخ الإيمان، لأن هذه الأمور –

---

[166]- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ص 115 ترجمة د. عمر فروخ دار العلم للملايين منتدى سور الأوربية www.book4all.net.

على حد قوله– لا تنال بمطالعة الكتب، وقراءة المؤلفات والكراريس، إنما هي خصال عملية وجدانية وعرفانية تقتبس بالاقتداء وتنال بالاستقاء القلبي والتأثر الروحي.

وفي المقابل كل إنسان لا يخلو من عيوب سلوكية وأمراض قلبية، وعلل خفية لا يدركها بنفسه كالرياء والنفاق والغرور والحسد، والأنانية وحب الشهرة والظهور، والعجب والكبر والبخل والحرص، فكما أن المرء لا يرى عيوب وجهه إلا بمرآة صافية مستوية، تكشف له عن حقيقة حاله، فكذلك لابد للمؤمن في سيره إلى الله من قدوة صالحة وشيخ مرب ناصح صادق، يصاحبه ويلازمه، فيريه عيوبه النفسية ويكشف له عن خفايا أمراضه القلبية إما بحاله أو مقاله ولهذا جاء في الحديث الذي رواه البخاري في الأدب المفرد (المؤمن مرآة المؤمن)[167].

وتأسيسا عليه يسوق الدكتور مجموعة من الأدلة الشرعية القطعية على أهمية الصحبة:

أ– من القرآن الكريم:

– قول الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[168].

– قوله تعالى {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}[169].

– قال الدكتور جمال الدين: الصادقون هم الصفوة من المؤمنين.

والآية من سورة الكهف يعتبرها المفسرون أقوى دليل يستدل به على مصاحبة أهل الله العارفين به، وأن هذه المصاحبة مبنية على الهدي النبوي وكل ما عداها يعتبر ابتداعا وحيادا عن مقصود الشرع قال الشعراني (إن طريق القوم –الصوفية– مشيدة

---

[167]- الحديث وارد أبو داود أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه البخاري بلفظ (المؤمن مرآة أخيه إذا رأى فيه عيبا أصلحه) صحيح الأدب والمفرد، ناصر الدين الألباني ص 106، الطبعة الرابعة 1418ه/1997م مكتبة الدليل البغدادية.
وأورده البغوي (516ه) في مصابيح السنة المجلد الثاني ص 148 دار المعرفة بيروت لبنان الطبعة الأولى 1407ه/1987م.

[168]- سورة التوبة آية 119.

[169]- سورة الكهف آية 28.

بالكتاب والسنة، وأنها مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء، ولا تكون مذمومة إلا إذا خالفت صريح القرآن أو السنة أو الإجماع لا غير).

– قوله تعالى {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}[170].

– قوله تعالى حاكيا على لسان سيدنا موسى عليه السلام حين التقى بالخضر عليه السلام بعد عزم صادق وسفر شاق مع شوق كبير {هل أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}[171].

ب– أما السنة النبوية المطهرة فقد اختار منها دليلا على مشروعية الصحبة:

– قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّما مثَلُ الجلِيس الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ: كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ ريحًا طيِّبةً، ونَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَن يَحْرِقَ ثِيابَكَ، وإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنْتِنَةً)[172].

أورد الغزالي في سياق هذا الحديث وصية علقمة العطاردي لأبنه عند وفاته حيث قال له: (يا بني إذا أردت صحبة إنسان فاصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنةً عدها، وإن رأى منك سيئةً سدها، ومن إذا قلت صدق قولك، وإن حاولت أمرا أمرك، وإن تنازعتما في شيء آثرك)[173].

وقال بعض العارفين(من جالس جانس) لأن النفس تقتبس الخير أو الشر من الجلساء، ولهذا أمر الله سبحانه بصحبه الصالحين فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}. وصحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر كالريح إذا مرت على الطيب حملت طيبا والعكس صحيح.

وإذا كانت صحبة الأخيار مطلوبة ومنافعها عظيمة، فكيف بمصاحبة الشيخ العارف بالله.

---

[170]- سورة لقمان آية 15.

[171]- سورة الكهف آية 66.

[172]- رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

[173]- إحياء علوم الدين للغزالي ج157/2.

كما يستدل الدكتور جمال الدين على أهمية الصحبة بحديث حنظلة الأسيدي رضي الله عنه الذي سبق ذكره و حنطلة هذا كان من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أن يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قالت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي العين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرا قال أبو بكر: فو الله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات[174].

فحديث حنظلة يبرز بوضوح كيف كانت مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشيع في القلوب أنوار اليقين وتذكي في النفوس جذوة الإيمان وترتفع بالأرواح إلى مستوى ملائكي أقدس، وتطهر الأفئدة من أدران المادة وتسمو بالإيمان إلى مقامات المراقبة والشهود.

وهكذا مجالس وراث رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبتهم وملازمتهم تزكي النفوس وتزيد الإيمان وتوقظ القلوب وتذكر بالله تعالى، والبعد عنهم يورث العفلة وانشغال القلب بالدنيا وميله إلى متع الحياة الزائلة.

3- إنشاء مشيخة للطريقة القادرية البودشيشية تعنى بتدبير وتسيير الزوايا التابعة لها في كل أقطار المغرب وخارجه وهي آخر ما استحدثه شيخ الطريقة جمال الدين بتنسيق مع القائمين على الزاوية الأم مداغ.

4- إحداث أكاديمية سيدي حمزة لفن المديح والسماع وفرقة وطنية لهذا الغرض جمعت خيرة الشباب الذين يمتلكون أصواتا شجية.

---

[174]- أخرجه الترمدي (279هـ) في جامعه ص 566 مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الأولى (بدون تاريخ).

المبحث الثاني: مؤلف جمال الدين الديني موضوع البحث والدراسة

أ- خطوات عريضة لدراسة كتاب شيخ الطريقة

يدرس الدكتور جمال الدين القاردي في كتابه مؤسسة الزاوية بالمغرب، بين الأصالة والمعاصرة موضوع التصوف، وهو في حقيقته جزء جوهري من الرسالة المحمدية، ونهج أصيل في الإسلام الذي ارتضاه الله دينا للبشرية عامة. ذلك لأنه يستمد أصوله وقواعده مباشرة من منابع الإسلام الصافية ومصادره الأصلية: كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والسنة النبوية الطاهرة وما كان صاحبها صلى الله عليه وسلم ينطق عن الهوى.

فالتصوف الإسلامي هو الكمال في الدين: إسلاما وإيمانا وإحسانا، فهو لب الدين وحقيقة الإيمان وثمرة اليقين وإلى هذه المعاني الرفيعة دعا سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وورثها أصحابه رضوان الله عليهم فاقتفوا أثره ولزموا نهجه، وتابعوه في أقواله وأفعاله وأحواله، وفي التخلق بأخلاقه الربانية والتكمل بكمالاته الإيمانية، وتبعهم في هذا السلوك التابعون وتبعهم أجيال متلاحقة، وهؤلاء جميعا هم أعلام التصوف الإسلامي وأقطابه قبل أن يطلق اسم الصوفية عليهم، وإن كان قد أطلق على المتأخرين منهم اسم العباد أو الزهاد، كما سبق ذكره.

ومن هنا كان وجود التصوف سابقا لهذه التسمية بقرن على الأقل، ولاحقا من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، فشيخ الطريقة البودشيشية بهذا الكتاب، ألمح إلى أشهر المدارس الصوفية التي قامت على طريق الحق وهدفت إلى تزكية النفوس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن، بالآداب الإسلامية الرفيعة والمحبة الصادقة والإشتغال به عمن سواه، واستقرت هذه المدارس في عواصم الدولة الإسلامية، وإن كان يركز على المدارس المنتشرة بالمغرب، فقامت مدرسة البصرة بريادة الإمام الصوفي الجليل الحسن البصري (110هـ) رضي الله عنه الذي أخذ عن الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان والصحابي الأكرم علي ابن طالب رضي الله عنه وتخرج على يديه من أعلام التصوف: مالك بن دينار (127هـ) وأيوب السختياني (131هـ) ومحمد بن واسع (123هـ) وقامت في بغداد مدرسة أخرى بريادة التابعي الجليل سعيد بن

المسيب (94هـ) رضى الله عنه، كما قامت مدرسة خراسان على مشيخة إبراهيم بن أدهم (162هـ) رضي الله عنه.

لقد كان كل هؤلاء وغيرهم كما قال عنه ابن خلدون يدركون أن (هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد في الخلوة والعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة[175].

لقد أكد الدكتور جمال الدين القادري على بعض الصعوبات التي اعترضته وأحس بها عند تأليفه لكتابه وأشار إلى أهمها، خاصة وأن التصوف موضوع يتأسس على الذوق ومن ذاق عرف، ومن لم يذق لم يعرف، لكن ما يعطى لهذا الكتاب أهمية أن الدكتور جمال الدين سلك طريق التصوف وأخلص في سلوكه فهو يدرس الموضوع دراسة الذائق، السالك لا دراسة الدارس لمجرد الدراسة.

ولهذا نجد من لم يتذوقوا علم التصوف، ولم تتهيأ استعداداتهم له حقيقة يرمون المتصوفين بإدعاءات باطلة في أذواقهم ومشاربهم، وفي علومهم ومعارفهم، وفي مواجدهم وأحوالهم، فيما بينهم وبين ربهم وفي نظراتهم السامية العميقة في هذا الوجود، وفي أسرار الملكوت، وكذا في عباراتهم التي يرمزون بها إلى معاني كريمة لا تخرج عن دائرة التوحيد الصافي والتنزيه المطلق.

ولو أن هؤلاء المنكرين قد سلكوا مسلك أهل التصوف من تربية وسلوك، واتقوا الله حق تقاته، وعبدوا الله كعبادة من يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، لو أنهم فعلوا ذلك ما أنكروا على القوم شيئا وما رموهم بما يرمونهم به.

---

[175]- روضة التعريف بالحب الشريف، لسان الدين بن الخطيب بحقيق عبد القادر أحمد عطا عبد الستار قدم له عن الكتابي، دار الفكر العربي، ص 8.

لقد جمع الشيخ زروق (899هـ) أسباب الإنكار على الصوفية في قواعد، فقال في القاعدة 208: دواعي الإنكار على القوم خمسة:

أولها: النظر لكمال طريقهم، فإذا تعلقوا برخصة أو أتوا بإساءة أدب أو تساهلوا في أمر، أو بدر منهم نقص أسرع للإنكار عليهم، لأن النظيف يظهر فيه أقل عيب، ولا يخلو الإنسان من نقص ما لم تكن له من الله عصمة أو حفظ.

الثاني: دقة المدرك، ومنه وقع الطعن على علومهم في أحوالهم، إذا النفس مسرعة لإنكار ما لم يتقدم لها علمه.

الثالث: كثرة المبطلين في الدعاوى، والطالبين للأغراض بالديانة، وذلك سبب إنكار حال من ظهر منهم بدعوى، وإن قام عليها الدليل لاشتباهها به.

الرابع: خوف الضلال على العامة بإتباع الباطن دون اعتناء بظواهر الشريعة كما اتفق لكثير من الجاهلين.

الخامس: شحة النفوس بمراتبها، إذ ظهور الحقيقة مبطل لكل حقيقة، ومن تم أولع الناس بالصوفية أكثر من غيرهم وتسلط عليهم أصحاب المآرب أكثر من سواهم.

وكل الوجوه المذكورة صاحبها مأجور أو معذور إلا الأخير والله أعلم[176].

ويعتبر الدكتور جمال الدين كل التبريرات التي اعتمدها التيار المعادي للتصوف، تبريرات واهية لأنها تحمل مغالطات قولا وكتابة، وفسادا في البيئة والعقل، فأشار إلى أن الفكرة الفاسدة كاللقمة الفاسدة لأن الأولى لا يستغيها العقل والثانية تتقزز منها النفس وترفضها المعدة في عنف وقوة على حد قوله.

ومن الإنصاف أن نعترف بأن التصوف الإسلامي قد دخل عليه – في عصوره الأخيرة– ما ليس منه، وانتسب إلى المتصوفة كثير من الأدعياء، وطاف حول مناهجه الأصيلة وقواعده الرصينة ضباب وغبار، وأصابه ما أصاب مناحي الحياة الإسلامية من جمود وضعف، وعادات وتقاليد لا تتفق مع جلاله وكمال رسالته، وعليه نشأ لدى البعض جهل بالتصوف وبمكانته في المجتمع الإسلامي.

---

[176]- قواعد التصوف وشواهد التعرف، أحمد زروق الفاسي (899هـ) جمع نزار حمادي، المركز العربي للكتاب، الشارقة.

ونظرا لأهمية التصوف فقد أكد الدكتور أبو منير أن الأمة في بعثها الجديد في أشد الحاجة إلى أن تتسلح بزاد الإيمان وقوة اليقين ولباس التقوى وروح الإسلام وعزيمة الجهاد، وجماع كل ذلك كله التصوف، فهو الإيمان في أسمى إشراقاته، والخلق في أرفع مثله، والعلم في أصفى موارده، والجهاد في أعلى ذراه.

وهذه الأسس التي نبة عليها الدكتور هي التي ارتكزت عليها دولة الإسلام في نهضتها واستندت إليها شعوبه في ثباتها، وهي الملامح الأصيلة لأعظم قوة روحية عرفها العالم، وأسمى دعوة إنسانية وعاها التاريخ.

ومن جانب آخر رأى هذا الهجوم الذي يتعرض له علم التصوف والممارسة الصوفية أمرا طبيعيا إذا أخذنا بعين الاعتبار الطعن الذي تعرضت له سائر العلوم الإسلامية، ولم يسلم الحديث النبوي هو كذلك من موجة التشكيك التي تولى كبرها أنصاف العلماء وأشباه المثقفين، بل الأمر امتد إلى النيل من شخصية الرسول الله الشريفة، والتطاول على أصحابه رضوان الله عليهم ناهيك عن أقطاب العلم وأعلام المسلمين، فكل من يعاتب وينكر على الممارسة الصوفية سواء كان شخصيا ذاتيا أو مؤسسة أو تنظيما لا يخلو هو الآخر من المؤاخذات والنقائص يقول الدكتور طه عبد الرحمان: ما من عقيدة أو مذهب إلا وهو معرض مع عامل التطور الزماني وعامل الإختلاف البيئي وعامل التكوين الشخصي لأن تحدث فيه التغيرات وتطرأ عليه تلونات تبتعد به قليلا أو كثيرا عن أصوله و منابعه[177].

إن كتاب "مؤسسة الزاوية بالمغرب" يعد بحق خطوة في سبيل التجديد الصوفي لم يسبق إليها، فالدكتور جمال الدين يرى في البيئة الصوفية التي تربى فيها شجرة تمتد جذورها إلى القرون الأولى في الإسلام يقول في المقدمة: (فلم يكن التصوف يحتاج إلى شيء كي يتسرب إلى قرارة قلبي، بل إنني وجدت فيه من أول يوم استنشقت فيه نسيم الدنيا، وإن للقرون التي قضاها أسلافنا رضي الله عنهم في ميدان التصوف

[177]- العمل الديني وتجديد العقل، الدكتور طه عبد الرحمان، ص 93.

والدعوة إلى الله هنا بالمملكة المغربية، بعد نزوحهم من بغداد لكفاية للناشئ في هذه العائلة القادرية أن يكون صوفيا بإرادة الله تعالى)[178].

والحق أنه مؤلف متكامل في المنهجية المتبعة إذ نقل فيه الدكتور شواهد من القرآن الحكيم ومن الحديث النبوي الشريف والخبر الصحيح يجري صحائحها مجرى الزكاة من الأموال ويجري ما سواها من غير الصحيح مجرى الأمثال، وتوسل بكثير من الحكايات لأنها وسائد مجلس الرقائق ومراوح النفوس من كدر الأفكار، دون إغفال شواهد من الشعر العربي الذي يطرق موضوع التصوف و يزيده فاعلية و جمالا.

ويمكن اعتبار مادة الكتاب العلمية دلالة واضحة على سعة أفق المؤلف العلمي، وإلمامه بالمذاهب الفلسفية والكلامية المختلفة، وقضايا التصوف والإعتقاد، ولا نستطيع أن نقول إنه ثمرة درس خال من السلوك، لأن التصوف العلمي يمكن تمييزه عن التصوف العملي من اللهجة العامة، والذوق الرقيق والإشراقات التي تغمر القلب من قول السالك الحق، وهو ما نجده في كل سطر من سطور الكتاب حيث أخذ أصول التصوف عن أجداده وأسلافه، وتعمق في فهم قواعده وأعلامه.

وكتاب الدكتور جمال الدين له مزايا ينفرد بها وأهمها:

1) يشكل دراسة تصحيحية تجديدية تقوم التصور الذي ساد بين كثير من القراء والباحثين فأصبحوا في حيرة فكرية وبلبلة علمية بين إيمانهم وبين ما ينافيه ويتناقض معه فيما يجدونه من كتابات ويسمعونه من أقوال عن التصوف، فهو إذن إطار مرجعي ينشل القارئ المسلم من المتاهات التي ضل فيها مشتتا بين عقله ووجدانه باحثا عن الحقيقة التي حجبها عنه ضلال الهوى وتزييف الغرض.

2) جاء يحمل نظرية واضحة عن التصوف وعن السير الروحي في آن واحد، تنفع الحركة الإسلامية اليوم وتكون في حاجة إليها لئلا تنحرف مع التيار المغالي أو مع التيار المعادي على غير بصيرة، فالسير الروحي لأبناء الحركة الإسلامية شيء لابد منه حتى تستقيم مسيرتهم فلا يرى فيها عوجا ولا أمتا، ولا تطرفا ولا زمتا، يقول الدكتور عبد الرحمان طه: "فلا سبيل إلى حصول التكامل في اليقظة الإسلامية إلا

[178]- مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والعاصرة، د. جمال الدين القادري، المجلد الأول ص 1.

بطريق ينفذ إلى أعماق التجربة الايمانية ويبلغ الغاية في التغلغل فيها، حتى إذا أدرك الداخل فيها نصيبا من هذا التغلغل كان حاملا له على الإنطلاق بمكارم الأخلاق أو قل على التخلق أو التخلق ابتغاء فضل الله"[179]، وقال في موطن آخر –إن العقل المؤيد لا تظهر كمالاته في الممارسة العقلانية الإسلامية بقدر ما تظهر في الممارسة الصوفية)[180].

لأن الصوفي الصادق يتأسى بسيدنا رسول الله في أقواله وأفعاله وأحواله.

فالتصوف حسب رأي شيخ الطريقة القادرية حركة دعوية هادئة بديلة عن عنف الإسلام السياسي، يؤكد هذا الكلام أن ثلثي مناطق العالم وصلها الإسلام عن طريق المتصوفة قالت الباحثة الأمريكية جيزيلا ويب: (الصوفية هم الناقلون للإسلام إلى مناطق أبعد من الشرق الأوسط، وفي سياق التقليد نفسه مازال المتصوفة يواصلون هذا الدور في أمريكا حتى أصبح التصوف متجدرا بطريقة منفتحة وقوية جدا)[181].

كما أكدت الباحثة نفسها على أن الطرق الصوفية بالمغرب حية ويتزعمها شيوخ لهم جاذبيتهم الخاصة وقدرة هائلة على امتصاص الانتقادات وتحويلها إلى تأثير في الآخر، وأيضا على الإصلاح والتجديد ما جعل هذه الطرق تستقطب العديد من المفكرين والعلماء الذين كان لهم دور كبير في قلب كفة المواجهة لصالح التصوف[182].

كما يسجل التاريخ دور حركات التجديد الروحي في غرب أفريقيا، حيث كان يختلف كثيرا عن الطرق الصوفية في المشرق، فقد اتسمت بالإيجابية والقدرة على التغلغل والسعي الدائب لتولي أمر المسلمين وإصلاحهم.

3) يمثل الكتاب إطارا مرجعيا جامعا لكل ما يحتاج إليه الإنسان لتقويم وعيه الديني، من العقيدة والسلوك وترقية الذوق وتطهير النفس وتصفية الروح.

---

[179]- العمل الديني وتجديد العقل، ص 177 (بتصرف) المركز الثقافي العربي الطبعة الثانية 1997.

[180]- نفس المصدر ص 146.

[181]- التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية مظاهر صور التصوف المغربي وتأثيراته من خلال مقال بعنوان الفرار من الإسلام السياسي إلى التصوف.

د. عزيز الكيطي إدريسي، ج 1، ص 84 بتصرف قليل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

[182]- نفس المرجع ص 89–90 بتصرف.

4) كتاب يعرض قضايا التصوف السني في صورة أدبية محبوبة للنفس بحيث لا يمل قارئه، بل ينساق في أجزائه حتى نهايته، دون ملل ولا توقف، ولكل نوع من العلماء فيه مجال كما يرفع التهيب من هذا الموضوع الكبير في أهميته.

5) الكتاب عبارة عن عرض شامل لمذهب التصوف وطرقه ومدارسه، وتحديد دقيق لاتجاهاته وأحواله ومقاماته وثمراته وحقائقه، وقلما نجد كتابا جامعا لذلك كله.

6) كتاب شامل يغني بشموليته الباحث عن كتب كثيرة، فهو يضع أمام القارئ مذاهب شتى في موضوع واحد مما يسهل عملية المقارنة بينها.

ب- التصوف السني بالمغرب من التجربة الفردية إلى المؤسسة والتنظيم.

مخطئ من يعتبر أن التجربة الصوفية تجربة هشة لا تقوى على التفاعل مع صيرورة المجتمع، أو من يدعي أن ظهور هذه التجربة كان تبعا لأحداث معينة أو متغيرات دولية أوسياقات إقليمية، إن نظرة أولية لكتاب مؤسسة الزاوية بالمغرب لصاحبة العلامة الدكتور جمال الدين القادري، يظهر البعد الكرونولوجي الذي اعتمده المؤلف مما يعكس أن التصوف متجذر في كيان الأمة الإسلامية وله بصمات في كل قرن من القرون سواء كان غالبا على المجتمع الديني قمة وقاعدة كما في القرون الهجرية المفضلة أو ظهر في شكل نزعات وتجارب شخصية عن طريق أعلام يشهد العلماء بفضلهم وقدرهم كالجيلاني و الجنيد والمحاسبي والغزالي وغيرهم...

أو تبلور في شكل مدارس وزوايا ومؤسسات يقوم عليها شيوخ ومقدمون وأطر فكرية وعلمية يستقطبون المريدين في سيرهم إلى الله عز وجل، لتظهر معه الحاجة التي استعادت الشخصية المسلمة في بعدها التكاملي والكمالي لا كما جرى تكريسها تاريخيا.

وليتأكد للدارس أن التصوف بما يحويه من غنى روحي جدير بأن يعيد إلى الإنسان المعاصر توازنه بعد أن علت أصوات وعنت كتابات تدعو إلى الصراع وأخرى إلى التغير والتبديع وثالثة إلى القتل والتدمير.

فضلا عن أن التصوف الذي يعني رسالة إسلام المحبة العالمية قادر على إرساء أفق جديد من العلاقات بين الأمم والشعوب أساسه الإخاء والتسامح.

وبرجوعنا إلى كتاب شيخنا جمال الدين نفعنا الله بعلمه، ندرك بعض الأسباب التي دفعته إلى تتبع التجربة الصوفية قديما وحديثا وهي كما يلي:

1- أسباب ذاتية: ذلك أن شيخ الطريقة تمثل التجربة الصوفية منذ أن فتح عينه على الدنيا وتقلب في مقامات التصوف وأحواله في كل مراحل حياته مستلهما إشراقاته ومداركه من والده وجده قدس الله روحهما.

2- أسباب فكرية: فانطلاقا من بحث الشيخ سواء في رسالته الجامعية في الدراسات المعمقة التي خصصها لعلم من أعلام التصوف "وهو أبو سالم العياشي (1415هـ) إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب وبغية التاجر المحتسب".

3- أسباب منهجية: دفعت الدكتور بمؤلفه إلى استعادة التراث العربي الإسلامي بكليته في ضوء ما انتهت إليه المناهج الحديثة التي أصبحت لا تسمح بالبحث الأحادي الذي يغيب جانبا هاما من جوانب تاريخ الإسلام.

لقد أراد العلامة الدكتور برسالته التي نقلت لنا التجربة الصوفية من معينها الأول حتى تشكلت في مؤسسات وزوايا ومدارس تربوية، أن يلفت نظر المسلمين إلى أن التراث الصوفي وطاقاته الإبداعية تفعل فعلها وما تزال عبر التاريخ الإسلامي الطويل في شتى الميادين إن على المستوى الأخلاقي تهذيبا وتنقية وتطهيرا، أو الاجتماعي تكافلا وتراحما وتحابا في الله، أو الفني الأدبي تخصيبا للخيال وإثراء للتجارب وارتقاء بالأذواق...

وقبل أن يتطرق العلامة جمال الدين إلى المدارس الصوفية التي عرفها تاريخ الإسلام في المشرق والمغرب أشار إلى أن تعدد أسماء هذه المدارس لا يعكس تفرق الأمة أو تشتتها وإنما تنتمي هذه المدارس التي شهد لها العلماء بمكانتها العلمية والتربوية إلى حقيقة التصوف وبالتالي فهي تتوحد في الهدف والغاية وإن كانت تختلف فيما بينها في الأساليب التربوية التي يراها شيخ الطريقة أنسب لعصره وبيئة المريد مع انسجامها مع روح الشرع الإسلامي، فالتعدد في الطرق الإسلامية هو فقط تجسيد لمبادئ التصوف في الواقع التاريخي حسب رأي الدكتور، فهو يقارن هذا التنوع بما عرفه تاريخ الإسلام من اختلاف الفقهاء في أحكام الفقه الإسلامي وقواعده كما لفتت

النظر إليه، إذ لو نسبت المذاهب إلى أسماء المجتهدين الذين احتفظ التاريخ بأسمائهم لوجدنا بالإضافة إلى المذاهب المعروفة من شافعية ومالكية وحنبلية وأحناف وظاهرية، أسماء كالليثية نسبة لليث بن سعد والعينية نسبة إلى سفيان بن عينية والبصرية نسبة للحسن البصري والأوزاعية نسبة إلى الأوزاعي والثورية نسبة لأبي ثور فكل هؤلاء وغيرهم مجتهدون لا يقلون شأنا عن الأئمة الأربعة، ولكن كما بين بعض الأئمة أنفسهم أن كل مذهب قيد له مدونون موثوق بهم وبثوه في الجمهور دون الآخرين ويورد الشيخ محمد الخضري قول الشافعي رحمه الله: كان الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به، ومعنى عدم قيامهم به أنهم لم يعنوا بتدوين آرائه الفقهية وبثها في الجمهور، كما قاموا هم أنفسهم بتدوين آرائه فانطفأ اسمه بصفته مفتيا مجتهدا، وإن بقيت جلالته على ألسنة المحدثين بصفته راويا موثوقا به وبأمانته[183].

فكما أن تعدد المذاهب الفقهية لا يعني تعدد الشريعة وهذا محال في الواقع والمنطق، فكذلك تعدد المدارس الصوفية، رغم تعدد أسمائها واختلاف أساليبها إلا أنها تنهل من مورد واحد ويوحدها هدف واحد يقول أبو منير: (فالتعدد والاختلاف لا يمس الهدف، وإنما يقتصر على اختلاف الأساليب والمناهج والوسائل التي تم بها الوصول إلى تحقيق الهدف.

ففي تعدد الطرق وتنوعها واختلافها فائدة للمريد حيث يختار الطريقة التي تناسبه وتوائم طبعه، وبعد الاختيار يكون الالتزام بمنهج الطريقة التي اختارها)[184].

وذكر زروق قاعدة في اختلاف المسالك راحة السالك وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}[185] فيسر الوصول إليه سبحانه بسبل شتى.

فلا اختلاف في الثوابت والأصول أو النصوص القطعية، ولكن يكون التنوع والاجتهاد في المجال المسموح به وهو مجال الوسائل والأساليب المستخدمة لتحقيق الهدف المرجو كما يفعل المعلم والمربي الذي يجتهد في وضع أساليب وسبل خاصة

---

[183]- محمد الخضري علي: تاريخ التشريع الإسلامي، ص 283، الطبعة الثامنة 1387هـ/1967 دار الفكر.

[184]- مؤسسة الزاوية بالمغرب، المجلد الثاني، ص 399.

[185]- سورة العنكبوت آية 69.

بما يتناسب وخبرته العلمية ونظرته الشخصية لما هو أنفع وأجدى لتلاميذه كما يرى التفتازاني (1390هـ)[186].

ويؤصل الدكتور لهذا الاختلاف بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان يخاطب الناس على قدر عقولهم ويأمر كل شخص بما يصلح له، فمنهم من أمره ببر الوالدين ومنهم من أمره بالإنفاق في سبيل الله ومنهم من أمره بالجهاد... فكان صلى الله عليه وسلم يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد منهم أما في الدعوة إلى الله فكان يأمر الجميع بها.

واللافت للنظر أن كتاب شيخ الطريقة القادرية يتكون من أربع مجلدات، كل مجلد مقسم إلى أبواب وفصول ومباحث ومطالب شكلت ألفا و مائتين و اثنتي صفحة تفند كل المزاعم والدراسات التي تحاملت على التصوف ورجاله واعتبرته أداة لمواجهة التيارات المغالية في الدين ومن تداعيات أحداث دولية وإقليمية.

فالمتتبع لهذا الكتاب يدرك أن التصوف فوق ما يتصوره هؤلاء الدارسون، فظهوره كان مرتبطا في جوهره بالدين الإسلامي ولم يتم استقاؤه من الديانات الأخرى أو الفلسفات القديمة. فالتصوف الإسلامي كما يعتبره الدكتور وغيره هو ظاهرة إنسانية وتجربة فردية روحانية بالغة العمق يخوضها الإنسان بنفسه متجردا من أمور الدنيا ومطالب الجسد التي تجدب جميع الناس، ويتدرج بعدها من مقام إلى مقام حتى تغمره السعادة في إطار جماعي وبرعاية شيخ له سند صوفي صحيح ويملك من الخبرة تمامها ومن العلم بأحوال النفس وأكدارها.

يقول شيخنا رضى الله عنه: فالصوفية وهبوا أنفسهم هادين إلى الله مرشدين الناس إلى أقوم السبل وأيسرها في التقريب إليه كل بما يناسبه ويصلح له وذلك تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم)[187].

وحينما يستعرض علينا الدكتور جمال الدين أهم الطرق والزوايا المشتركة يرسل إلى القارئ إشارات هامة ومعالم نافعة منها أن أعلام هذه الطرق وشيوخها كانوا

---

[186]- مدخل إلى التصوف الإسلامي لمؤلفه أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، الطبعة الثالثة، دار الثقافة والنشر مصر القاهرة 1399هـ/1979م.

[187]- مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة و المعاصرة ص 401، المجلد الثاني.

يجمعون بين العلم الشرعي والعمل الصوفي كما هو الشأن بالنسبة لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (243هـ) فقد شهد له علماء عصره ومن بعدهم بقدره الكبير في علوم الفقه وأصوله وعلم الكلام...

ذكر الشعراني في طبقاته: قيل لأحمد ابن حنبل رحمه الله إن الحارث المحاسبي يتكلم في علوم الصوفية ويحتج بالآية والحديث، فهل لك أن تسمع كلامه من حيث لا يشعر، فقال: نعم، فحضر معه ليلة إلى الصباح ولم ينكر من أحواله ولا من أحوال أصحابه شيئا.

وتوضح لنا هذه الحادثة التي حضرها الإمام أحمد بن حنبل بعض الممارسات للطريقة المحاسبية في عهد مؤسسها، فقد قال الإمام أحمد عندما سئل عن عدم إنكاره عليه: (لأني رأيتهم لما أذن بالمغرب تقدم فصلى ثم حضر الطعام، فجعل يحدث أصحابه ويأكل وهذا من السنة فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس وجلس أصحابه بين يديه، وقال من أراد منكم أن يسأل عن شيء فليسأل، فسألوه عن الرياء والإخلاص وعن مسائل كثيرة، فأجاب عنها واستشهد عليها بالآية والحديث، فلما مر جانب من الليل أمر الحارث قارئا يقرأ، فبكوا وصاحوا وانتحبوا، ثم سكت القارئ، فدعا الحارث بدعوات خفاف ثم قام إلى الصلاة فلما أصبحوا أعترف أحمد رضى الله بفضله وقال: كنت أسمع من الصوفية خلاف هذا استغفر الله العظيم رضي الله عنه)[188].

هذه الحادثة تؤكد وجود تيار يسعى إلى خلق بلبلة داخل المجتمع الإسلامي، الهدف منها إنشاء عداوة بين الصوفية والفقهاء وذلك يتجلى في الأشخاص الذين حاولوا أن يوقعوا عداوة بين الإمام أحمد والحارث المحاسبي، لكن الإمام أحمد رضي الله عنه تنبه لذلك وكان أعقل من ذلك كثيرا مقرا بمشروعة الممارسة الصوفية في عصره سواء في شخص المحاسبي أو بشر بن الحارث (227هـ) حيث يذكر ابن حجر في التهذيب عن أبي عبد الله أحمد بن حنبل، قيل لأبي عبد الله: مات بشر بن الحارث

---

[188]- الطبقات الكبرى للشعراني 73 9هـ) ص 110-111، والإسلاميات عبر النت .www.al_mastafer.compdf .وأيضا مقال الحارث بن أسد المحاسبي وخصائص مدرسته في التصوف من موقع طواسين للتصوف والإسلاميات موقع إلكتروني .

قال: مات رحمه الله وماله نظير في هذه الأمة إلا عامر بن عبد قيس[189]، الذي وصفه الذهبي بالقدوة الولي الزاهد وتوفي في زمن معاوية.

لقد نبه الدكتور على أمر بالغ الأهمية وهو أن التيار السلفي بكامل أطيافه يعتبر الإمام أحمد بن حنبل ناصر السنة ورائد أهل السنة والجماعة وبالتالي يتمسك هذا التيار بموقف هذا الإمام الرافض للتصوف دون تدقيق ولا تمحيص، لكن حينما جمع الشيخ جمال الدين في كتابه كل مواقف الإمام أحمد من التصوف تبين له أنه –التيار السلفي– تمسك بالموقف الأول للإمام أحمد والذي انتقد فيه التصوف من خلال ما سمعه من الدساس في عصره، فلما وقف على الأمر بنفسه تراجع عن ذلك وشهد لرموز التصوف في عصره بالعلم والعمل.

وحينما تتبعت المدارس الصوفية التي ذكرها الدكتور جمال الدين بعد المدرسة المحاسبية وجدت أنه يربط كل هذه المدارس بعلم كبير من أعلام التصوف ألا وهو الجنيد (297هـ) فهو بغدادي الأصل والمنشأ من أهل السنة والجماعة وعلم في التصوف السني صحب جماعة من المشايخ كسري السقطي (251هـ) والحارث المحاسبي (243هـ) ودرس الفقه على أبي ثور (246هـ) وكان يفتي في حلقته وهو ابن عشرين سنة له مؤلفات عدة أغلبها في العقيدة والتصوف ككتاب القصد إلى الله وكتاب في الألوهية ورسائله المشهورة التي حققها كثير من العلماء، وكتاب دواء الأرواح وكتاب الفرق بين الإخلاص والصدق وكتاب الميثاق...

وسيرا على نهج هذا الإمام فقد اختار المغاربة في ممارستهم للتصوف المنحى السني الأخلاقي، ورمزوا له بالإمام الجنيد الذي عرفت مدرسته بمدرسة السلوك والأخلاق في مقابل النزعة الفلسفية في التصوف والمرتكزة على الإغراق والبوح بالمواجد.

ومدرسة الجنيد تعتبر الكشف والكرامة هي بداية السائر إلى الله وليس غايته ونهايته بدليل ما حدث لرسولنا الكريم في غار حراء وملامسته نورانية كلام الله العلوي لجسده وكيانه البشري وهذه غاية كل مسلم، لكنها بداية إثبات الذات بعد نفيها على حد

[189]- مؤسسة الزاوية، ص 404 المجلد الثاني.

تعبير الفيلسوف الهندي محمد إقبال، نعم إثبات الذات بالقيام العمل الدعوي {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ...}[190] فقام صلى الله عليه و سلم ثلاثا وعشرين سنة يدعو إلى الله بحاله ومقاله متمثلا قوله تعالى{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}[191] وقوله جل وعلا {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}[192]

أي تصوف مرتبط بالأخلاق المحمدية حرصا على التسنن الأكمل قولا وفعلا وحالا بسيرة خير المرسلين عليه السلام حتى قيل: التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء[193].

وليس معنى هذا أن تلك المعاني المصطلح عليها بالحقائق يمكن فصلها عن التجربة الصوفية أو أن الصوفية المغاربة لم يكونوا في الذروة من المعرفة، بل على العكس من ذلك، إذ من لطائف إدراكهم ورسوخهم المعرفي الكبير أن غلب صحوهم على سكرهم... والنطق بالكشف والحقائق يدل على عكس ذلك، وصوفية الأخلاق هي الطائفة المرموقة إذ شرفها يستند إلى وراثة من وصفه الله بقوله {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[194].

إذن ففلسفة التصوف السني الجنيدي ينبني على محورين:

أ- نفي الذات من جهة التعبد والاسغراق في مدارج الاقتداء والتأسي.

ب- إثبات الذات من جهة التخليق والتجلي.

دون إطلاق القول في الحقائق والخوض في الكشف والرؤى إلا إذا كانت فيه منفعة عملية للسالك في سيره وتقربه إلى الله عز وجل، وإلى هذا المنهج ذهب معظم صوفية المغرب في تعاملهم مع الأذواق وعدم إطلاق الحقائق.

فكان من نتائج ذلك أن تميز الخطاب الصوفي بالمغرب بالبساطة والوضوح والبعد عن التعقيد وغلب عليه جانب المدارسة والممارسة أكثر من جانب التحرير

---

[190]- سورة المدثر آية 1-2.

[191]- سورة الشعراء الآية 213.

[192] - سورة الحجر الآية 94.

[193]- الرسالة، القشيرية، ص 240 العشيرية، طبعة دار جوامع الكلمة، القاهرة. وأيضا كتاب حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى ص 21، نسب القشيري القول فيه للكناني (465هـ)

[194]- سورة القلم، آية 4.

والتنظير العلمي؛ فمقتضى الحقيقة الصوفية أن التقرب إلى الله مراتب وأن أفضلها وأقدرها على تحقيق التسلف (التصوف) ما كان مستوفيا لشرط الرسوخ، ولا يتحقق الرسوخ إلا لمن تلازم عنده العلم بالشيء والعمل به، حتى صار له هذا التلازم وصفا سلوكيا ثابتا لا انسلاخ له عنه[195].

تأسيسا عليه يمكن القول إن مدار التصوف السني على القيم والأخلاق المستمدة من النصوص المقدسة لا من التاريخ (غير المقدس) ومن كمالية النموذج الواجب يقول الدكتور طه عبد الرحمن إذا كان هدف التخليف هو التسليف العملي، وكان التسلف العلمي هو تحصيل طريقة عملية في الرجوع إلى النصوص الإسلامية الأصيلة بقصد الظفر بمضامينها، والامتداد من معانيها، حتى يقع الانتفاع بها في تلبية متطلبات الحياة وفي مواجهة مشاكل الواقع، فلا يمكن لهذا التخليق أن يبلغ هدفه إلا إذا عمل على الوفاء بمضمونين من الشروط:

* أحدهما علمي يقضي بالتزام الحقائق العلمية التي تثبت بصدد الاستفادة من النصوص.

* والآخر عملي يقضي بالأخذ عن النماذج في العمل بمضامين النصوص.

فننظر في مدى وفاء التخليق بهذين الصنفين من الشروط.

لا شك أن الدكتور جمال الدين حينما يعرض للمؤسسات والطرق الصوفية سواء كانت مشرقية أو مغربية بشقيها الأندلسي والمغربي، فهو يؤكد على أن هذه المؤسسات تحمل رسالة دينية وتتبنى مشروعا إصلاحيا كبيرا لن تظهر أثاره في المجتمع إلا في ظل معايير وضوابط الاستفادة من النصوص الإسلامية الأصيلة، لأن كل تجاهل أو تنصل من هذه الحقائق العلمية لا يمكن إلا أن يضر بهذه الرسالة العظيمة، وقد حدد الدكتور طه عبد الرحمان هذه الحقائق في ثلاث لابد من التسليم بها وهي: الحقيقة التاريخية والحقيقة اللغوية والحقيقة الدينية.

[195]- العمل الديني وتجديد العقل، د. طه عبد الرحمان، ص 188 ط المركز الثقافي العربي.

أما الحقيقة التاريخية: فمقتضاها أن الفارق الزماني بيننا وبين النصوص الإسلامية الأولى هو واقع لا يرتفع، وأن الأسباب الخارجية والمقتضيات الظرفية لها هي أحداث اختفت عن مشاهدتنا المباشرة وامتنعت عن تجربتنا الفعلية.

أما الحقيقة اللغوية فلها وجوه ثلاثة:

أولها: أن الفعل أبلغ في البيان من القول.

ثانيها: أن القول حمال لوجوه كثيرة.

ثالثها: أن الذي ينظر في النص لا انفاك له عن مكونات ذاته الوجدانية والعقلية وعن مقومات مجاله التداولي.

وأما الحقيقة الدينية: فمقتضاها أن التقرب إلى الله مراتب وأن أحسنها ما تلازم فيه العلم بالشيء والعمل به[196].

الفصل الثاني: المقاصد والدلالات.

المبحث الأول: مقاصد ودلالات كتاب الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة د. جمال الدين القادري.

المطلب الأول: الطريقة القادرية البودشيشية والسياق السياسي في مؤلف الشيخ:

يأتي كتاب العلامة الدكتور جمال الدين القادري بودشيش ليطرح كثيرا من الأمور ويؤصل للتصوف السني الذي يحتاج إليه كل مسلم للسير الروحي إلى الله علما أن النظرة الواضحة عن التصوف تعصم الباحث كما المسلم عامة من الانجراف في تيار المغالاة والاتجاه العدائي للممارسة الصوفية على غير بصيرة، وهو كتاب يعكس دراسة علمية تأصيلية في سياق ندرة الكتاب الصوفي المحرر على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة ومذاهبهم الفقهية، وذلك لأن الكثير من المسلمين يتهيب من كتب التصوف بداعي أن الكثير منها في طياتها ما لا يرتاح له المسلم الباحث فتجد عبارات غير منضبطة أو شطحات غير متزنة أو تصحيحا لأمر على حساب أمر.

---

[196]- العمل الديني وتجديد العقل، د. طه عبد الرحمان، ص 187-188.

يأتي كتاب شيخ الطريقة القادرية ليضع الأمور في مواضعها ليكون بمثابة إطار مرجعي، وميزان يستطيع المسلم المطلع عليه أن ينطلق في كتب التصوف على بصيرة فيما ينبغي أن يأخذ أو يدع على ضوء ضوابط سليمة ترتاح لها قلوب المنصفين.

وإذا كان كثير ممن كتبوا في التصوف وفي علومه ومقاماته اعتبروه علم الخاصة، فإن كتاب العلامة جمال الدين يعتبر هذا العلم يطالب به كل مسلم يتعين معرفته لارتباطه بقضايا الإحسان –الأصل الثالث لدين الإسلام– حيث يطالب بها كل إنسان لطهارة القلب وزكاة النفس وغير ذلك من أمور الأحكام التكليفية في حق عامة الخلق، وهي في نظر الأصوليين من قبيل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

إن السياق التاريخي لهذا العلم أفرز لنا أمورا اختلطت فيه أكثر من أي علم آخر، جعلته أحيانا كالألغاز أو أنه شيء آخر غير العلم وغير النصوص، وجعلته أحيانا مستقلا عن علوم العقيدة والفقه وأصوله بل جعلته أحيانا إلهاميا له قوة الوحي في التشريع أو في التقرير وكل ذلك عجيب غريب في علم يجب أن يكون كبقية العلوم الإسلامية محررا منقحا، بدلا من أن يكون هذا العلم طريقا للتحقق بالنصوص الشرعية –كما سنرى في هذه الأطروحة– جعلوا التصوف شيئا وراء النصوص.

لقد سعى الدكتور في كتابه جاهدا أن يبرز معاني علم التصوف بشكل مبسط وواضح، ويأتي بالنصوص الشرعية محاولا فهمها وتفهيمها تلقائيا والسير للتحقق بها.

ألف الدكتور كتابه حول علم التصوف وهو يعيش الممارسة الروحية رأي عين، تشربها فكرا وممارسة، وكان –ولا يزال– على علم أن المشتغلين بهذا الفن تصوراتهم قاصرة عنه ومفاهيمهم ضيقة ويعيشون بعيدين عن هذه التجربة الذوقية، وبالتالي كان من أهداف تأليفه أن يضع مريدي السير إلى الله على أسس صحيحة من شأنها أن تقوم بعض المفاهيم المغلوطة عن التصوف والتي يتبناها قطاع الطريق إلى الله، المتحاملون على هذا العلم من خلال نظرتهم إلى الزاوية فعادة ما يربطونها بالانزواء والعزلة والزهد والعطالة.

لقد وضع العلامة جمال الدين في كتابه كثيرا من الأمور وصحح كثيرا من الأفهام، مبرزا الدور الجهادي الذي اضطلعت به الزاوية بصفة عامة، والطريقة القادرية على وجه الخصوص من خلال شيوخها حيث يأتي بنصوص موثقة وشهادات حية.

وفي هذا السياق يفرد بابا بأكمله في المجلد الثاني سماه "الجهاد" حيث اعتبر الزوايا إلى جانب كونها مدارس تربوية وأخلاقية وتثقيفية فقد كانت بمثابة تكنات عسكرية جهادية تسلح المريدين بروح الجهاد في سبيل الله ونصرة الوطن أي تكونه جسميا وروحيا ووطنيا من خلال تطوير النفس وتصحيح حقيقة الإيمان في القلب وتقوية اليقين في الله تعالى وفيما يدخره الله للمجاهد في سبيل الله تعالى من نعيم مقيم في الدار الباقية الدائمة.

لقد أراد الدكتور جمال الدين في معرض حديثه عن الجهاد أن يبعد عن هذا الأصل في الدين كثيرا من المغالطات في كتابات البعض، إذ ألصقوا بالجهاد كل مظاهر الانتقام والهمجية والتطرف والعصبية والغضب وأحيانا إكراه الناس على الدخول في الدين، هذا ما جعل الدكتور جمال الدين يجلي المقاصد الكبرى للجهاد بالرجوع إلى الحقائق التاريخية التي تؤكد أن الجهاد في العهد النبوي لم يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد الإذن الإلهي {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ}[197].

واستنبط باستقراء النصوص الشرعية التي تشرع الجهاد كثيرا من هذه المقاصد: كالدفاع عن الدين ونصرة الفقراء والمستضعفين، وحماية الأنفس والأموال والأعراض.

وعليه فالفكر التجديدي لدى شيخ الطريقة يتضح في هذا العمل التأصيلي لمفهوم الجهاد، وأن هذا المصطلح تستر وراءه كثير من المسلمين –الذين يحملون الشكل دون الجوهر– فأزهقوا الأرواح وأرعبوا الآمنين وأرهبوا المعاهدين.

لقد ركز الدكتور جمال الدين على كثير من المعاني السامية للجهاد في راهنية التدافع والاستقطاب والتربص بكل أشكاله، وأبرز قدسية هذا العمل الذي يكون بأمر من ولي أمر المسلمين وليس بدافع شخصي أو طائفي.

---

[197]- سورة الحج آية 39–40.

توسع الدكتور جمال الدين في مفهوم الجهاد بذكر مراتبه ومقاماته متوسلا بكتاب الفواكه الدواني على رسالة أبي زيد القيروان المالكي حيث يقول صاحبه: (واعلم أن الجهاد من حيث هو على أربعة أقسام: جهاد بالقلب: وهو مجاهدة الشيطان والنفس عن الشهوات المحرمة، وجهاد باللسان وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد باليد وهو زجر الأمراء أهل المناكير بالأدب، والضرب باجتهادهم، ومنه إقامة الحدود، وجهاد بالسيف، ولا ينصرف حيث أطلق إلا إليه)[198].

ورجح الدكتور جمال الدين جهاد النفس فاعتبره أشد الأنواع وأعظمها مستدلا بقوله تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}[199] وأورد قول حسن أيوب في كتابه "الجهاد والفدائية في الإسلام": (إن جهاد النفس أشد جهاد وأصعبه وأدومه، وهو جهاد بالليل والنهار، وفي العسر واليسر، وفي الضيق والسعة، وفي العقيدة والعبادة والمعاملة، وفي العزلة عن الناس والاجتماع بهم، وهو جهاد بالفكر والذكر والصوم والصبر، وكل أسباب التقوية الروحية، وهو جهاد يستدعي أن يكون الإنسان يقظا واعيا، عالما بمواطن الضعف وأساليب الشيطان، وتيارات الباطل، ومداخل الشبه والشكوك وعلوم الحرام والحلال وأوامر الله ونواهيه)[200].

ويعتبر المسلم الكامل هو من يجاهد النفس الأمارة والهوى الغلاب والغريزة الطاغية والشهوة المنحرفة والمواريث الساقطة والتقاليد المخزية والعادات السيئة[201].

والجهاد النفسي يحدث في الإنسان تفاعلا داخليا وخارجيا يتولد عنه إنسان متميز كل التميز عن العالم الإنسي كله يستحق الانطواء تحت قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}[202]–[203].

---

[198]- الأمام النفراوي: الفواكه الدواني ج 1، ص 608 باب في الجهاد دار الكتب العلمية، بيروت لبنان الطبعة الأولى 1428هـ/1997.

[199]- سورة العنكبوت آية 69.

[200]- الجهاد والفدائية في الإسلام حسن أيوب (2008م) ص 32 دار الندوة الجديدة بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1403هـ/1983م.

[201]- نفس المصدر ص 30.

[202]- سورة آل عمران آية 110.

[203]- فقه الجهاد في الإسلام، حسن أيوب، ص 15، دار السلام للطباعة والنشر–القاهرة الطبعة الأولى 1422هـ/2002م.

ويعتبر الدكتور هذا النوع من الجهاد الذي ذكره حسن أيوب، أهم الأنواع لأنه هو منطلق الأنواع الأخرى، وبدونه تزول مناعة الفرد ومقاومته لكل عدوان عسكري، فالهزيمة النفسية أساس الهزيمة، والانتصار في ساح الوغى لا يتم إلا لأصحاب الروح المعنوية العالية وذوي النفوس الطاهرة، والصوفية –في رأي الشيخ– هم فرسان هذا الميدان وأبطاله بلا منازع لأن الصوفي الحقيقي هو الذي يهتم بتصفية نفسه وتزكيتها ومجاهدتها للانتقال من النفس الأمارة إلى اللوامة فالمطمئنة فالراضية المرضية، وهو الذي يحارب هواه، ويلجم شهوته المنحرفة ويتخلى عن عاداته السيئة، وهو الذي يتبرأ من حوله وقوته، ويفوض أموره لخالقه متشوقا إلى محبته سبحانه ومحبة حبيبه صلى الله عليه وسلم ومحبة الصالحين من عباد الله، وهمه الفوز برضى الله تعالى وذلك مقصود ومطلوب، ورد في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[204].

لقد خصص الدكتور جمال الدين صفحات عديدة من كتابه في المجلد الثاني قسم فيها الجهاد إلى مظاهر أساسية يندرج تحت كل مظهر أمثلة عملية تتجدد بتجدد المفاهيم والتغيرات الإنسانية وهي:

1- الجهاد التربوي: واعتبره الباحث أهم أنواع الجهاد لأنه يهتم بالنفس الإنسانية ليرتفع بها من حضيض الشهوات والغرائز إلى مراتب السمو الإنساني والإنسانية الكاملة فكل ما حققه المسلمون من النجاحات الباهرة علميا وتنظيميا وعسكريا وسياسيا كان سببه الأكبر الجهاد التربوي، هذا الجهاد الذي استطاعت به مدرسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن تخرج للعالم ذلك الجيل الفريد القوي في إيمانه، والذي حقق أرقاما قياسية في مجال التضحية والعطاء، فقد استطاع عليه السلام أن يقدم ذلك الإنجاز الفريد من خلال ربط الإنسان بربه ليتكون من ذلك عقد راسخ

---

[204]- رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير ص 696/695 الطبعة الأولى 1423هـ/2003. دار ابن كثير للطباعة والنشر.
– ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة ص 1512–1513 دار الكتب العلمية الطبعة الأولى 1412هـ/1991م.

يتعزز بواسطة التدريب والممارسة في ميادين الحياة ومعاملاتها المتنوعة والمتشابكة، تلك الممارسة التي تستضئ بقدوته الحسنة عليه السلام.

ولأهمية الجهاد التربوي فإن الرسول صلى الله عليه وسلم رفعه إلى منزلة الجهاد في ميدان القتال، فاعتبر طالب العلم الذي يقضي نحبه في طلبه شهيدا.

ورفعا لتوهم الواهم الذي يربط بين الجهاد النفسي والعزلة والانقطاع عن الدنيا وملذاتها أكد الباحث أن هذا النوع يعني المشاركة التربوية والعلمية العامة بما يفيد الأمة والمجتمع الإسلامي والإنساني قاطبة.

2- الجهاد التنظيمي: واعتبره الدكتور مجالا فعالا لتنظيم قدرات الأمة وطاقاتها المادية واللامادية، والبشرية والمعنوية، والتنسيق بينها بما يكفل تكاملها وتوحدها لتحقيق مقاصد الشريعة وأسرارها.

واعتبر الدكتور مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة جميع أنواع الفساد عن طريق المؤسسات المختصة بذلك أهم مكونات هذا الجهاد، دون أن يغفل الإشارة إلى دور المؤسسات المدنية والهيئات الحقوقية والمجتمع المدني ومكوناته وأن الكل مطالب للإسهام فيه كل حسب موقعه وإمكاناته وقدراته عملا بالحديث الصحيح (الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله، قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[205].

3- الجهاد العسكري: ركز الدكتور في سياق حديثه عن هذا النوع من الجهاد، على تحبيب الإسلام للسلم وتغليبه طرق وآليات الحوار السلمي المبني على الحكمة والمجادلة الحسنة ويسوق نصوصا شرعية داعمة مثل قوله عز وجل {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[206].

---

[205]- الحديث رواه مسلم في صحيحه عن تميم الداري رضي الله عنه، أخذته من كتاب الأربعين النووية لحيي بن شرف الدين النووي (676هـ) الحديث السابع، نشر مكتبة دار الفتح دمشق توزيع المكتب الإسلامي بيروت.

وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة ص 74.

وأخرجه النسائي في سننه كتاب البيعة باب النصيحة للإمام ص 968 الطبعة الأولى 1435هـ/2014م مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان الطبعة الأولى 1416هـ/1996م.

وأخرجه أبو داوود في سننه كتاب الأدب باب في النصيحة ج3 ص 291 تحقيق عبد العزيز الخالدي دار الكتب العلنية بيروت.

[206]- سورة النحل: أية 125.

لكن في الوقت ذاته يؤكد على الاستعداد وإعداد العدة والقوة اللازمة، وان ذلك مطلوب ومرغوب فيه شرعا للحيلولة دون استعباد الأمة المغربية، ونهب مقدراتها وثرواتها، وضرب وتهديد وحدتها الترابية يؤكد هذا قوله تعالى {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}[207].

وهذه الآية تحتاج إلى فهم متجدد، لأن القوة في وقت نزولها كانت متجسدة في الخيل والسيف والرمح... لكنها اليوم تغيرت تبعا للتطور العلمي والتقدم التكنولوجي يبقى الهدف ثابتا و تتعدد الوسائل والأساليب.

فتضافر الجهود في رأي شيخ الطريقة أمر ضروري لصيانة عقيدة التوحيد ونشرها بكل أنواع الجهاد، فالجهاد التربوي يهيئ النفوس لممارسة الإصلاح والبناء،وجهاد اللسان والقلم جدير بأن يحمي المجتمع من رياح الفتن والأهواء، فعن طريقهما ينجلي الحق ويندحر الباطل ويزول كل لبس عن الأذهان بالحجة والبرهان والموعظة الحسنة قال تعالى {فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا}[208] أي جاهدهم بالقرآن لما له من قوة فائقة على التأثير العميق في النفوس، وإقناع العقول التي تصغي إلى صوت الحقيقة.

وإذا كان الجهاد التنظيمي يحصن الجبهة الداخلية للأمة ويؤمن دولها من التآكل والانهيار والضعف، فإن الجهاد العسكري يوفر الحماية من كيد الكائدين واختراق المناوئين ويعطي لدولة الإسلام هيبتها ومكانها الذي ضاع منها، ويعود بنا الشيخ الدكتور إلى العهد النبوي والرعيل الأول من الصحابة لاتخاذ الأسوة الحسنة والتأويل الحي للمفهوم العام للجهاد، لقد جاهدوا بنفوسهم للابتعاد عن أعراف الجاهلية وتقاليدها الفاسدة، والأخذ بتعاليم الإسلام وقيمه الجديدة، وجاهدوا أنفسهم لتصبر على أذى المشركين، وفراق الأهل والوطن والمال في سبيل بناء دولة الإسلام.

كما كابدوا مشقة التبليغ والدعوة إلى تعاليم الإسلام السمحة بالتيسير والتبشير ثم حملوا السلاح دفاعا عن عقيدتهم ونفوسهم عندما أكرهوا على ذلك.

---

[207]- سورة الأنفال: أية 60.

[208]- سورة الفرقان: أية 52.

وإذا كان جهاد الفتنة يكون بالصبر والثبات، والجهاد بالقرآن يكون بما فيه من القوة والحجة والسلطان والتأثير، فإن جهاد الكفار ومقاتلتهم –على حد قول الدكتور– يكون ببذل النفس واسترخاصها في سبيل الله، ويورد في هذا المنحى قوله تعالى {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}[209].

وفي تعليقه على هذه الآية الكريمة، اعتبر الدكتور أن الذي يجود بنفسه ويضحي بها بتعريضها للقتل يسمى مجاهدا حقا يقول في كتابه: (والواقع أن المرء إذ سلم نفسه لله تعالى سمي مسلما، وإن صدق بالوحي سمي مؤمنا، فإن وقف بالمرصاد أمام الخواطر الشيطانية ومنع تأثيرها على النفس سمي صابرا ومصابرا، وإن وقف عند حدود الله تعالى، وإذا غفل وتعداها ثم تاب وأناب سمي مرابطا، فإن ضحى بنفسه وماله وأهله ووطنه في سبيل دينه وإعلاء لكلمة لا إله إلا الله سمي مجاهدا)[210] لقد استدل شيخ الطريقة بالإمام السيوطي ليؤكد على خطورة هذا النوع من الجهاد وأن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم حضا وحثا عليه لأنه اجتمع فيه كل مظاهر المعاناة والتضحية، ولعظم ما فيه من المجاهدة والبذل، ولأن مجموع ما يبدل من الطاقات والقوى هو النفس، فإن قدمت في سبيل الله، فقد قدم صاحبها جميع ما أوتي من قوة، فيكون هذا النوع من البذل متضمنا لجميع أنواع التضحية، وإن أكثر ما أطلق عليه الجهاد في القرآن هو هذا النوع.

ويزكي كلامه هذا بنصوص قرآنية من سورة التوبة والصف ويبرز أن الكتب السماوية كلها أمرت بالجهاد عند الضرورة والاقتضاء.

كما يلفت النظر إلى ارتباط كلمة الجهاد بالسبيل إليه ليخلص إلى قيمة الاخلاص في هذا العمل المبرور مستدلا بمجموعة من الأحاديث النبوية الصحيحة أهمها ما أورد مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد عن أنس رضي الله عن أن رسول

---

[209]- سورة البقرة: أية 216.

[210]- مؤسسة الزاوية بالمغرب، د.جمال الدين القادري، ج 2، ص 361.

الله صلى الله عليه وسلم قال (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها)[211] وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (قيل يا رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال: مؤمن مجاهد في سبيل الله بنفسه وماله)[212]، وبحديث ذكره السيوطي في "أربعون حديثا" وأخرجه البيهقي عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة: الجهاد في سبيل الله)[213].

وحديث الطبراني في الكبير "عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله"[214].

إذن نستشف من هذا الكلام العلمي المؤصل بالدليل أن المجاهدين الحقيقيين هم الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا ولرفع راية الإسلام، وعليه يأتي بالآية الحصرية التي تحسم في بيان حقيقة الجهاد {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[215].

وأيضا يحسم في غايات الجهاد ومقاصده، حتى لا تنتهك أعراض وتزهق أرواح باسم الجهاد يقول الدكتور جمال الدين (والجهاد في الإسلام إنما شرع للدفاع عن العقيدة وحمايتها من الفتنة وحماية منهجها وشريعتها في الحياة وإقرار رايتها في الأرض بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها)[216].

ويذكر الدكتور هنا إجماعا للمفسرين على مقاصد الجهاد الثلاثة:

أ- حماية المسلمين من العدوان.

ب- حماية الدعوة الإسلامية حتى تصل إلى الناس بدون إكراه.

---

[211]- رواه البخاري في الجامع الصحيح في كتاب الجهاد والسير ص 691، ومسلم في صحيحه باب فضل العدوة والروحة في سبيل الله، ص 1499.

[212]- رواه البخاري في الجامع الصحيح في كتاب الجهاد والسير ص 690 ومسلم في صحيحه في كتاب الإمارة ص 1503 باب فضل الجهاد والرباط.

[213]- الحديث رواه أبو أمامه الباهلي وأورده الألباني في ضعيف الجامع وتراجع ليحكم بصحته في كتابه جلباب المرأة المسلمة، وذكره أيضا في مشكاة المصابيح ص 181.

[214]- وأخرجه أبو يعلى في مسنده عن أنس بن مالك بلفظ: عين بانت تكلا المسلمين في سبيل الله، المجلد الرابع، ص 236 تحقيق إرشاد الحق الأثري الطبعة الأولى 1408هـ/1988م دار القبلة للثقافة جدة ومؤسسة القرآن بيروت ورقم الحديث في المعجم الكبير الطبراني 5779.

[215]- سورة الحجرات الآية 15.

[216]- مؤسسة الزاوية بالقرب ج2، ص 364.

ج- حماية العقيدة والنفس والعرض والأرض.

ولكي يؤكد على أن الجهاد العسكري استثناء في الدين وليس قاعدة يأتي بنص بالغ الأهمية للعالم حسن أيوب يقول في كتابه" الجهاد والفدائية في الإسلام": (فالجهاد في سبيل الله عن طريق استعمال القوة المسلحة ليس مبدأ من المبادئ التي أسس عليها الإسلام، وليس أصلا من الأصول التي لابد منها للعقيدة أو العبادة أو المعاملة، وإنما هو مبدأ الضرورة من أجل حماية الدعوة الإسلامية، والكلمة الإسلامية والجماعة الإسلامية، مثله مثل القصاص والحدود... إن وجدت أسبابها وجدت وإلا فلا، فهو بذلك واجب لغيره لا لذاته)[217].

ولا نفهم من كلام شيخ الطريقة حول الجهاد بأنواعه الثلاثة، وخاصة الجهاد العسكري، ميله إلى الخيارات العسكرية حتى ولو كانت للضرورة، بل يشير في كتابه إلى فضيلة السلم والحوار بالتي هي أحسن ويورد هنا دعاء نبويا يقول فيه صلى الله عليه وسلم (اللهم كفَّ عنا بأس الذين كفروا إنك أشدُّ بأساً وأشدَّ تنكيلا)[218]، وفي عيون الأخبار يورد ابن قتيبة (276هـ) عن ابن اسحاق عن هشام والأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تتمنوا لقاء العدو فعسى أن تبتلوا بهم، ولكن قولوا، اللهم اكفنا وكف عنا بأسهم)[219] وحديثا أخرجه الإمام البخاري في كتاب الجهاد والسير يقول فيه سيد الخلق صلى الله عليه وسلم: (لا تتمنوا لقاء العدو فعسى أن تبتلوا بهم، ولكن قولوا: اللهم اكفنا وكف عنا بأسهم)[220].

ولا غرابة فيما ذهب إليه شيخ الطريقة العلامة الدكتور جمال الدين، فالإسلام يمد يده لمصافحة أتباع الشرائع الأخرى لتحقيق التعاون على إقامة العدل وتفعيل كل القيم الكونية المشتركة، من نشر الأمن وصيانة الدماء أن تسفك، وحماية الحرمات أن تنتهك، ويسجل التاريخ حتى من غير المسلمين أن الإسلام لم يقم على اضطهاد

---

[217]- حسن أيوب: الجهاد، ص 45.

[218]- مؤسسة الزاوية بالمغرب، المجلد الثاني ص 364. وكذا في الجامع الصحيح للبخاري كتاب الجهاد والسير ص 745 بروايات مختلفة.

[219]-عيون الأخبار ابن قتيبة ج1 ص 167، تحقيق منذر محمد سعيد أبو شعر الطبعة الأولى 1429هـ/2008م، المكتب الإسلامي بيروت لبنان.

[220]- و الحديث أيضا في مصنف عبد الرزاق.

مخالفيه، ومصادرة حقوقهم أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم، وشتان بين التسامح والضعف والعجز، فكثيرون لا يقدرون هذا النبل، وربما استغلوا هذه السماحة في الإساءة إلى الإسلام الذي وسعتهم دائرته المرنة على حد قول أبي خليل في كتابه "التسامح في الإسلام" يقول الله تعالى {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم و تقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين}[221]، قال أبو خليل: (فالإسلام يمد يده لمصافحة الأديان الأخرى لتحقيق التعاون على إقامة العدل ونشر الأمن وصيانة الدماء أن تسفك وحماية الحرمات أن تنتهك والإسلام لم يقم على اضطهاد مخالفيه، أو مصادرة حقوقهم أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم –لأن حرية الاعتقاد مصانة– أو المساس الجائر بأموالهم وأعراضهم ودمائهم)[222].

وحتى وإن شرع الإسلام الجهاد فإنه قيده بقيود وضوابط عقدية وأخلاقية يرجع إليها في مضانها، لكن في المقابل لابد أن نؤكد على المنهج الوقائي الذي يشير إليه الإسلام تحسبا لعدوان محتمل أو مناورة متوقعة، فالأمة الإسلامية أمة مجاهدة، مأمورة من الله بإعداد القوة لمواجهة الأعداء، لذلك يجب على المسلم أن يكون دائما متيقظا مستعدا للجهاد الذي يأمر به ولي الأمر، وتقديم المهجة رخيصة في سبيل الذوذ عن بيضة الإسلام، وحماية الدعوة والدعاة[223].

ومنافحة الأعداء ومجاهدتهم يجب أن تكون بكل الوسائل المتاحة: بالقلب، واللسان، وبإنفاق المال وبذل الأرواح وإزهاق النفوس في سبيل الله، كما بين الإسلام أن الثبات في المعركة يكون بذكر الله سبحانه وطاعته وعدم الاختلاف {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[224].

لماذا هذا التأصيل المستفيض لأمر الجهاد من الشيخ الدكتور جمال الدين؟؟

هل وقع ذلك عفويا أم يؤسس لأمور مستقبلية؟

---

[221]- سورة الممتحنة آية 8.

[222]- التسامح في الإسلام: المبدأ والتطبيق، شوقي أبو خليل ص 50، دار الفكر المعاصر لبنان الطبعة الأولى 1414هـ/1993م.

[223]- الجهاد والتغيير، عبدالله حلاق ص 14 وص 25 بتصرف قليل.

[224]- سورة الأنفال، الآية 45.

أليس موضوع الجهاد مبثوث في كتب الفقه والتفسير والحديث وكتب المغازي والسير ويكفي هذا للقارئ والدارس؟؟

بعد قراءتي المتكررة للجزء الثاني من كتابه مؤسسة الزاوية بالمغرب، لاحظت مجموعة من الإشارات العلمية يريد الدكتور أن يضعها بين يدي القارئ والباحث، ومن أوضح هذه الإشارات التأكيد على التاريخ الذي شهد للمتصوفة بجهادهم في الحدود والثغور، وقدموا في سبيل إعلاء كلمة الله أرواحهم وأموالهم فتمثلوا معاني الجهاد في كل عصر من العصور.

ومن المؤسف أن الذين أرخوا للتصوف الإسلامي مروا على جهاد الصوفية العسكري مرور الكرام إلا القلة منهم، لكن الكثرة أغفلت هذا المجال حتى يظهر الصوفية بمظهر المنعزلين، المتقوقعين على أنفسهم، المتهالكين على طلب الصحاري والمغارات والكهوف والقفار، اللاهثين وراء البدع والضلالات والشطحات والانحرافات، والموغلين في الأباطيل والترهات، وسخروا لذلك خيلهم ورجلهم ومؤسساتهم وأقلامهم... وقريبا من هؤلاء من يقصر بحثه على جهادهم للنفس وتزكيتها وتربيتها أي مجال الجهاد الروحي أو التربوي.

والملاحظ أن الاهتمام بجهاد الصوفية يكاد يكون منعدما، لأن أعداء التصوف حاولوا طمس معالم جهادهم وبطولاتهم والتي لم يهتم بها السادة الصوفية –وهم الذين نذروا أنفسهم لملاقاة ربهم– لهروبهم من الصيت والشهرة والرياء الذي ينافي الإخلاص الصادق. لكن في المقابل يفرد ابن الجوزي (597هـ) فصلا في كتابه "صفوة الصفوة" للزهاد والصوفية الأوائل الذين جاهدوا ورابطوا في العواصم والثغور في القرن الثاني للهجرة منهم: أحمد بن عاصم الأنطاكي وكان يقال له "جاسوس القلوب" لحدة فراسته ويصفه بأنه من متقدمي مشايخ الثغور، ومنهم أبو يوسف الغسولي الذي كان يغزو مع الناس بلاد الروم، وهناك كثيرون أمثال أبي إسحاق الفزاري وعيسى بن إسحاق السبيعي ويوسف بن أسباط وأبي معاوية الأسود[225].

[225]-صفوة الصفوة لابن الجوزي ص 846 تحقيق خالد مصطفى طرطوس، دار الكتاب العربي لبنان طبعة 1433هـ/2012م.

والخطيب البغدادي يذكر عبد الله بن المبارك (181هـ) ويقول عنه: وكان من الربانيين في العلم ومن المذكورين بالزهد.. خرج من بغداد يريد المصيصة–ثغر من ثغور الروم فصحبه الصوفية)[226]، وقال عنه: (وكان لا يخرج إلا إلى لحج أو جهاد وقيل له: ألا تستوحش فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه)[227].

ويذكر ابن عساكر إبراهيم بن أدهم إمام المتصوفين الروحانيين ويقول: كان فارسا شجاعا ومقاتلا باسلا رابط في الثغور وخاض المعارك على البيزنطيين العدو الرئيسي للدولة الإسلامية الناشئة، وقد ذكر زهده وجهاده الإمام أحمد بن حنبل والأوزاعي وسفيان الثوري أيضا.

أما في القرن الثالث للهجرة فيذكر ابن العديم تجمع الصوفية من كل صوب في ثغور الشام إذ وفدوا إلى هذه الثغور جهادا في سبيل الله للوقوف في وجه البيزنطيين وأشهرهم أبو القاسم القحطبي الصوفي وأبو القاسم الأبار وأبو القاسم الملطي الذي صحب الجنيد البغدادي)[228].

ألم يظهر للمفكرين جهاد هؤلاء الصوفين وغيرهم أمثال السقطي والداراني وأبي حمزة الصوفي والجنيد الذي قال عنه ابن تيمية (728هـ): (الجنيد سيد الطائفة إمام هدى)[229] وحكى المورخون جهاده وأبي الحسن الشادلي (656هـ) وأبي العباس المرسي.

ومن المتأخرين الذين شهد لهم بالجهاد الإمام على بن ميمون (917هـ) والأمير عبد القادر الجزائري والشيخ المجاهد الصوفي محمد أحمد المهدي والبطل عمر المختار الصوفي الزاهد، والعالم الصوفي ماء العينين في موريتانيا وغيرهم كثير يضيق المقام بذكرهم.

---

[226]- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي دمشق دار الفكر ج10، ص 157.

[227]- نفس المرجع.

[228]- بغية الطلب في تاريخ حلب كمال الدين ابن العديم دمشق الجزء الأول، ص 4591، حققه وقدم له د. سهيل زكار، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان.

[229]- مجموع الفتاوى لابن تيمية الجزء العاشر كتاب علم السلوك ص 212 تحقيق عامر الجزار وأبو الباز.

فالشواهد كثيرة على اشتراك الصوفية في حركات الجهاد في أطراف البلاد الإسلامية، لفت شيخ الطريقة القادرية الأنظار إلى بعضها كمؤلف دوحة الناشر لابن عساكر حيث ذكر هذا الأخير مواقف وبطولات الذين جاهدوا الأعداء لإيقاف المد الصليبي والغزو الاستعماري وصمدوا وناضلوا لإعلاء كلمة الله وكانوا رجالا صوفية يجتمعون في الزوايا لذكر الله وإذكاء روح الجهاد دفاعا عن عقيدة التوحيد وعن دار الإسلام.

أما المؤلف الثاني الذي استقى منه الدكتور الشهادة على جهاد الصوفية فهو "التصوف والمجتمع" للدكتور عبد اللطيف الشادلي حيث يقول فيه: (إن تركز الأولياء والصالحين في جهات معينة مرتبط أيضا بعوامل تاريخية، فحركة الجهاد التي ازدهرت كثيرا في بداية القرن العاشر الهجري كنتيجة للغزو البرتغالي، عرفت استقرار عدد من الصلحاء قرب المناطق المستعمرة أو المهددة... بل إن خريطة الصلاح في المناطق الساحلية تكاد تنطبق على جدار أمني قوامه زوايا المرابطين يمتد من شمال المغرب إلى جنوبه دليلا على الدور الذي قام به الصالحون في ميدان الجهاد)[230].

كما أحال الدكتور جمال الدين إلى مؤلف ثالث استقى منه شهادات على جهاد الصوفية كل واحد باسمه والقرن الذي جاهد فيه، هذا الكتاب هو "صفحات من جهاد الصوفية والزهاد" للدكتور محمد أحمد درنيقة، حيث أورد سيرة ستة وسبعين رجلا من الصوفية المجاهدين ذكر جهادهم وزمانا ومكانا، بل الغريب في هذا السياق أن الباحث وهو من المعاصرين، عثر على مذكرات وتقارير ضباط المخابرات العسكرية الاستعمارية اعترافاتهم بما يعانونه من رجال الزوايا والطرق الصوفية في جهادهم ومقاومتهم للمستعمر، وثباتهم أمام إغراءاته وتهديداته على حد سواء وعدم الرضى عنه وعدم الخضوع له.

وفي دولة المغرب شكل التصوف حركة وطنية ذات آفاق واسعة وقوة فاعلة ومؤثرة في النسق الاجتماعي لرد خطر الغزو الاستعماري المسيحي يقول أحمد

---

[230]- مؤسسة الزاوية بالمغرب، المجلد الثاني ص 380 وكتاب التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر لعبد اللطيف الشادلي، دار النشر سلا طبعة 1989، ص 67.

بوكاري: (إن مؤسسة الزاوية لم تكن فقط مركزا دينيا وعلميا بل كانت إضافة إلى ذلك معسكرا لإعداد المجاهدين وتعبئتهم لصد المحتل الأجنبي ومما يؤكد ذلك ويفيد المشاركة الفعلية والفعالة لمؤسسة الزاوية ومريديها ما تزخر به كتب التاريخ والتراجم من شهادات وما تحتفظ به الذاكرة عبر امتداد بناء البلاد مشرقا وغربا، شمالا وجنوبا على امتداد السواحل والسهول والجبال من أحداث)[231].

لما أفرد الدكتور جمال الدين مبحثا خاصا بالجهاد في الجزء الثاني من كتابه وذكر فيه أنواع الجهاد ومشاركة أعلام التصوف لإعلاء كلمة الله ودفع الأعداء والمناوئين، وحماية المستضعفين والأطفال والنساء، لم يذكر مع هؤلاء الأعلام شيوخ الزاوية القادرية البودشيشية، فهل معنى هذا أن شيوخ الزاوية اقتصروا على الجهاد التربوي الذي يروم ترويض النفس ومجاهدتها؟ هل كانت الزاوية خارج السياق السياسي في الأمة؟

لقد أرجأ الدكتور الحديث عن جهاد الشيوخ الطريقة القادرية إلى الجزء الرابع من كتابه، بادئا من الصفحة الستين بعد الثمان مائة فما بعدها بأهم أعلام الطريقة وبخاصة الشيخ المختار بودشيش الذي كان موضع هيبة واحترام من طرف سلاطين الدولة العلوية يقول الدكتور جمال (أسس جدنا سيدي المختار زاويته الجديدة على تقوى من الله ورضوان بمنطقة مداغ، واستمر كفاحه ونضاله وجهاده ضد العدو والمحتل مستنفرا القبائل محمسا رجالها)[232].

وشهد بجهاده ضباط وقواد من العدو والمستعمر يقول الضابط يولي L.oullet (ومنذ احتلال أحفير بقيادة الكولونيل برانلييز Colonel Branlière، شن بنو يزناسن هجومات كثيرة، وقد قرر الكولونيل أن يوجه إنذارا إلى قائدهم سيدي المختار بودشيش، ومع ذلك استمرت طلقات البنادق صوب معسكرنا، ولم نكن نرد عليهم لنوهمهم أن

---

[231]- الزاوية الشرقاوية، زاوية أبي الجعد دورها الاجتماعي والسياسي، أحمد بوكاري ج2، الطبعة الولى 1409هـ/1989م، جمعت المقال من صفحات متفرقة من ص 81 وص 131، والباحث وإن كان يركز على الدور الجهادي للزاوية الشرقاوية فهو يدخل زوايا أخرى كانت تضطلع بالدور نفسه في حقب زمنية متفاوتة.

[232]- مؤسسة الزاوية، الجزء الثالث، ص 864.

ليس باستطاعتنا ذلك... ولكي نعطيهم دليلا على قوتنا غادر الكولونيل برانلبير أحفير ومعه ثلاثة أرباع جنودنا بالمنطقة)[233].

كما يذكر شيخ الطريقة مواقف جهادية لأحد أعلام الطريقة وهو سيدي بومدين ويسوق له قولا يقول فيه: "لن تدخل روسيا إلى بلادنا إشارة إلى أن زحف الإيديولوجية الشيوعية لن يصل إلى المغرب وفي وقت كان فيه المد الشيوعي قد اكتسح كثيرا من البلدان ويقلب العدد من الأنظمة الحاكمة في البلاد الإسلامية وغيرها".

ويورد قوله أيضا (إن ألمانيا لن تحتل المغرب ولا الشمال الإفريقي) في الوقت الذي كانت جيوش هتلر تكتسح كثيرا من البلدان الأوروبية، وكانت وسائل الإعلام آنذاك تتحدث عن مشروع الاكتساح النازي لبلاد حوض البحر الأبيض المتوسط شماله وجنوبه[234].

إن أهم ما ألمح إليه العلامة جمال الدين أن التصوف أنفع وسيلة للسير إلى الله تتم عبر شيخ مرب دون أن يحصر السير إلى الله في طريقة معينة طالما أن القصد واحد والهدف بين وهو القرب من الله والأنس بذكره، لكنه يشير إلى المعيار أو المرجع الذي يكون نموذجا للإقتداء واقتفاء الأثر، هذا المعيار هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم إلى أن تقعدت قواعد التصوف، إذ كان همهم دراسة الكتاب والسنة وتطبيق ذلك، فإن لم يكن هذا سيرا إلى الله فما هو السير؟

يأتي كتاب شيخ الطريقة القادرية ليحمل إشارات عرفانية، وإشراقات روحية راقية في عالم يعج بالماديات، وليجلي الحقيقة الصوفية في أوضح صورها ويؤصل لها بإرجاعها إلى أصولها الصحيحة ومنابعها الصافية ويبعد عنها ما علق بها من دخن كثير وتحامل مقيت، ويجدد في طرق الممارسة الروحية بما يناسب العصر وتغيراته.

وإذا كانت هناك حساسيات عند أتباع هذا العلم –أي التصوف– فلا يقبلون مناقشة في عبارة من عبارات أهله أو في سلوك من سلوكياتهم، وإذا كانت هناك تحفظات عند المفكرين عليه فلا يقبلون اسمه ولا أهله ولا مباحثه ولا الكلام فيه، فإن

---

[233]- أخذ الدكتور هذه الشهادة وغيرها من كتاب فرنسا وبنو يزناس ص 44/45، مؤسسة الزاوية بالمغرب الجزء الثالث ص 864–865.

[234]- نفس المصدر ص 878/877.

المجدد جمال الدين –وأمثاله– لا يسعهم أن يقابلوا أمثال هؤلاء إلا بكلمة الحق الصادقة التي تضع الأمور في مواضعها، ليكونوا بذلك قد أدوا الأمانة، أمانة العلم في أجيالهم.

إن الجمع الغفير من الأمة الإسلامية خلال قرون متعددة إلى الآن لهم صلة بالتصوف وأهله بشكل من الأشكال إما بالاشتغال فيه أو بالتلمذة على أهله أو بالصلة بهم أو بالثقة فيهم، أو بالانتساب الفعلي لهم... فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا وحده كاف لأن يعطي المبرر الكبير للكتابة في هذا الموضوع لتحريره وتنقيحه ووضع الأمور في مواضعها فيه.

لقد استطاع شيخ الطريقة عن علم وذوق أن يقدم لنا نوعا من التصوف المحرر على أصول الكتاب والسنة ومذاهب أهل الحق، لإيمانه أن هذا وحده الذي يجب أن يكون وأن يصير إليه الناس جميعا، فالطريق إلى الله لا يمكن أن يلغى بل يجب أن يكون ولكن ينبغي أن يحرر ويدقق، وتنقح مسائله تنقيحا دقيقا، فليس الصوفية ولا غيرهم معصومين، والمعصوم هو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقديما قال أكبر أعلام الصوفية في عصره أبو سليمان الداراني رضي الله عنه(215هـ): (ربما وقعت النكتة من كلام القوم في قلبي فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة ولم يضمنها لي فيما سوى ذلك)[235].

قال سعيد حوى: (ومن هنا ندرك خطأ الصوفي الذي يريد أن يجعل كل حرف قاله صوفي معصوما والذي يريد أن يجعل لكتب الصوفية من العصمة ما للكتاب والسنة، إن أمثال هؤلاء لا فرق بينهم وبين الروافض و غلاة اليهود والنصارى الذين قال الله عز وجل فيه: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ})[236].

لكن الدكتور جمال الدين يبرز من خلال رسالته أن السير إلى الله ضروري، والكتابة فيه ضرورية، ودفع الأوهام فيه ضروري وإنهاء الغلو في شأنها ضروري،

---

[235]- طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمان السهي، ص 27 تحقيق د.أحمد الشرباصي الطبعة الثانية 1419هـ/1998م.

[236]- تربيتنا الروحية، سعيد حوى، ص 9. الطبعة السادسة 1419هـ/1999م دار السلام للطباعة والنشر القاهرة.

وهكذا يؤكد شيخ الطريقة أن كل مسلم سائر إلى الله مادام يمتثل أوامر الله ويتجنب نواهيه، ولكن البحث عن الكمال والوصول إليه، ومعرفة المصادر والموارد والبدايات والنهايات والحدود والقيود للمقامات والأحوال دنياها وأعلاها هذا الذي يطلق عليه اسم السير إلى الله، وهو المقام الإحساني (أن تعبد الله كأنك تراه).

هو سير مقرون بالتنفيذ الواعي الحكيم لأوامر الله عز وجل فالذي لا يعرف أصول السير إلى الله والغاية منها يفوته الكثير من تنفيذ الأوامر الإلهية كما يقول الشيخ قدس الله سره.

كما يعتبر الشيخ أن من مقاصد السير إلى الله معرفة الإنسان بالنفس وما يسمو بالعقل والقلب وما يرتقي بالروح وكل هذه المقاصد ترتبط بها عوالم عجيبة وغريبة لا تتكشف للإنسان إلا من خلال السير إلى الله تعالى وبالتالي يعرف المسلم ذاته وما انطوى عليه ونفسه ومداخلها، وبمفهوم المخالفة الإنسان الذي لا يسير إلى الله لا يعلم كثيرا عن آفاق النفس وآفاق الذات ومكامن الطاقة الروحية التي تحرك الإنسان وتدفعه إلى العمل الصالح.

فعلم التصوف علم كسائر العلوم الأخرى يعلق به الكثير من الشوائب والمغربات كغيره من العلوم، فكان من الدوافع التي دفعتني إلى دراسة مؤلف مؤسسة الزاوية بالمغرب :بين الأصالة و المعاصرة، أن أثبت ما أثبته الدكتور جمال الدين أن علم التصوف ليس علما مستقلا عن العلوم الإسلامية كما يدعي البعض فهو علم مرتبط بعلم التوحيد والفقه وأصوله، كما أنه ينبغي للدارسين أن يجتهدوا في تنقيحه وتحريره من الدخيل حتى يكون طريقا للتحقق بالنصوص الشرعية القطعية، وأن يكون في متناول الكل لحاجتهم الملحة إليه في طريقهم إلى الله عز وجل.

ولا أدعي السبق في هذه الدراسة طالما أن الكثير من الباحثين سبروا أغوار هذا الفن كالإمام الجنيد في رسائله وزروق في قواعده وأبي حامد الغزالي في كتبه وابن القيم في مدارج السالكين وابن تيمية في فتاويه وسعيد حوى في كتبه والإمام الرائد وسعيد رمضان البوطي وعبد القادر عيسى وغيرهم وكثير من الدارسين المحدثين.....

المبحث الثاني: الطريقة القادرية وإشعاعها الديني والعلمي

الزاوية القادرية البودشيشية أحد الطرق السنية والتي تنتسب إلى الشيخ العارف بالله عبد القادر الجيلاني (471هـ 561هـ)، وينتشر أتباعها ومريدوها في بلاد الشام والعراق ومصر وشرق افريقيا، وقد كان لرجالها الأثر الكبير في نشر الإسلام في قارة افريقيا وآسيا، وفي الوقوف سدا منيعا في وجه المد الاستعماري الزاحف إلى المغرب العربي.

1- مؤسس الطريقة:

هو عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجيلاني الحسني ولد بجيلان بالعراق سنة 471هـ وقدم بغداد شابا سنة 488هـ، وبها تفقه على عدد كبير من مشايخها، جلس للوعظ سنة 520 هـ وكتب له القبول عند الناس واعتقدوا ديانته وصلاحه، وانتفعوا بكلامه ووعظه.

اشتهر عن الشيخ عبد القادر ما يدل على فقهه وعلمه، وظهرت على يديه الكثير من الكرامات الربانية والمنح الإلهية، وتاب وأسلم على يديه العديد من الناس توفي وعمره تسعون عاما ودفن في رواق مدرسته سنة 561هـ.

2- قواعد الطريقة القادرية:

يذكر الشيخ مخلف العلي القادري الحسيني أهم قواعد الطريقة القادرية[237]:

أ- **الالتزام بالكتاب والسنة:** يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: "طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة فمن خالفها فليس منا". ويقول: "إجعل الكتاب والسنة جناحيك طر بهما إلى الله" عن موقع نفحات الطريق nafahar-tarik .com.

ب- الجد والكد ولزوم الحد حتى تنقد: ومعنى الجد الجدية في سلوك الطريق إلى الله ومعنى الكد بذل النفس والروح والجهد بالجوارح في السير إلى الله بدون هوادة ولا تراخي ومعنى لزوم الحد الالتزام بالشريعة وتحليل الحلال وتحريم الحرام والوقوف عند حدود الله وعدم تجاوزها، ومعنى حتى تنقد: حتى تكف النفس عن المعاصي والذنوب والشهوات والملذات والأخلاق السيئة ولا يبقى فيها إلا الله جل في علاه.

[237]- أخذت هذه القواعد من الموقع الرسمي لمشيخة الطريقة القادرية بإدارة وإشراف مخلف العلي القادري الحسيني.

ج- الاجتماع والاستماع والإتباع حتى يحصل الانتفاع: ومعنى هذا الاجتماع بالصالحين والعلماء والمرشدين والإخوة في الله والاستماع لهم بأدب وإتباع ما يقولون وما يأمرون من الهدي النبوي وبذلك يحصل لدينا الانتفاع والوصول لما وصلوا إليه.

د- الاعتقاد بشيخ الطريقة العقيدة الصحيحة: ومعنى هذا أن يحبه المريدون ويحترمونه ويقدروه ولا يهملونه ولا يعظمونه فوق الحد المطلوب ولا يغالوا في حبه ولا يعتقدوا فيه العصمة فإنه بشر يخطئ ويصيب لكنه محفوظ بعناية الله، إن أخطأ سرعان ما يرجع إلى الله ويتوب إليه. يقول العارف بالله عبد القادر الجيلاني في الغنية: (يا بني إياك أن تنظر إلى شيخك أنه معصوم، إنما هو بشر يخطئ ويصيب، فإن رأيت منه مخالفة فابحث له عن عذر شرعي فإن لم تجد فاستغفر له الله فإنه بشر يخطئ ويصيب فصاحب العميان بظاهره، تارك لأدبه، وصاحب الاعتراض بسره متعرض لعطبه)[238].

هـ- حب الشيخ: لكن حب الله ورسوله مقدم عليه وهو المراد الحقيقي والقصد الجلي من السير والسلوك على يد الشيخ المربي المرشد فهو دليلنا إلى حب الله ورسوله.

وراقب الشيخ في أحواله فعسى ** ترى عليك من استحسانه أثرا[239].

و- كثرة الذكر لله تعالى: فالذكر هو المعراج في السير إلى الله في الطريقة القادرية، فمن أهم أعمال المريد كثرة الأذكار والمداومة عليها وعلى الاستغفار والصلاة على الرسول بالليل والنهار وبذلك يرتقي المريد في مقامات المحبة لله ورسوله، والذكر هو الوسيلة العظمى لتزكية النفس وتربيتها وتحليتها بالأخلاق المحمدية.

ر- حب آل البيت: وحبهم مقدم على من سواهم من الناس لأنهم بضعة النبي وعترته ووصيته لأمته مع الحب والتقدير والإكبار والإجلال للصحابة وعلى رأسهم: أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

---

[238]- الغنية لطالبي طريق الحق، للشيخ عبد القادر الجيلاني، الجزء الثاني، ص 279، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.

[239]- البيت مأخوذ من ديوان أبي مدين التلمساني (594هـ) إعداد وجمع سليمان القرني وعبد القادر سعود، ص 16.

ز- **حب كل الأولياء والصالحين:** وحب مشايخ ومرشدي الطرق الأخرى، بلا تفريق ولا تمييز ولا تعصب للطريقة والطعن في الطرق الأخرى التي تنهج منهج الكتاب والسنة، وذلك كله مع المحبة والتعظيم والتقدير لطريقتهم ولمشايخهم كما ينبغي أن يكون.

3- شروط الشيخ المرشد عند مؤسس الطريقة:

قال الشيخ عبد القادر (561هـ) في القصيدة العينية:

وإن ساعد المقدور أو ساقك القضا ** إلى شيخ في الحقيقة بارعُ
فقم في رضاه واتَّبع مراده ** ودع كل ما من قبل كنت تسارع
ولا تعترض فيما جهلت من أمره ** عليه فإن الإعتراض تنازع
ففي قصة الخضر الكريم كفاية ** بقتل غلام والكليمُ يدافع
فلما أضاء الصبح عن ليل سره ** وسلَّ حساماً للغياهب قاطع
أقام له العذرَ الكليمُ وإنه ** كذلك علم القومِ فيه بدائع[240].

لقد أسس الإمام الجيلاني طريقته وفق الكتاب والسنة ووضع لها ضوابط شرعية حتى لا يكثر الشطط والنقصان والتغيير والابتداع ويدعي المشيخة من يقدر ومن لا يقدر، ومن يعلم ومن لا يعلم فوضع الشيخ رحمه الله ضوابط وشروط ينبغي أن تتوفر في الشيخ المربي المرشد الذي يتصدر للإرشاد وهذه الشروط نظمها في خمسة أبيات هي:

إذا لم يكن للشيخ خمس فوائد وإلا فدجالٌ يقود إلى جهل
عليم بأحكام الشريعة ظاهراً ويبحث عن علم الحقيقة عن أصل
ويظهر للورَّادِ بالبشر والقرى و يخضع للمسكين بالقول والفعل
فهذا هو الشيخ المعظم قدره عليم بأحكام الحرام من الحل
يهذب طلاب الطريق ونفسه مهذبة من قبل ذو كرم كلي[241].

---

[240]- منتدى الطريقة القادرية البودشيشية 14Fev2013.
وكتاب الشيخ عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة، د. جمال الدين فالح الكيلاني ص 23.

[241]- من كتاب الغنية لطالبي طريق الحق للشيخ عبد القادر الجيلاني تحقيق فرج توفيق الوليد ج3 ص 4، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

لقد بين الشيخ رحمه الله وقدس سره في هذه الأبيات أهم شروط الشيخ المربي ويحسن بي في البدء أن أوضحها بالبيان وهي:

1- أن يكون عالما بأحكام الشريعة والدين عالم بالحلال والحرام، عالم بحدود الشريعة وعالم بالسنة النبوية وعالم بما علم من الدين بالضرورة.

2- أن يكون عالما بعلم الحقيقة والطريقة وعالم بأحوال القلوب والنفوس وطرق تزكيتها وخبير بأحوال السالكين وتدرجهم في الطريق إلى الله ويكون قد أخذ هذا العلم من شيخ مرشد كامل عبر سند متصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالله عز وجل قال: {الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}[242].

3- أن يكون كريما سخيا مع مريديه وضيوفه والسخاء من صفات رب العالمين ومن خلق الرسول الكريم والصالحين قال الإمام الذهبي (748هـ) : (ثلاث من كن فيه أصاب الخير السخاء والصبر على الأذى وطيب الكلام)[243]. فلا يليق بالمرشد أن يكون بخيلا كما جاء في الحديث: (ما جبل ولي الله تعالى إلا على السخاء وحسن الخلق)[244] فيكرم ضيوفه ورواد زاويته دون التقصير بحق ضيافتهم، وأن تدوم البسمة على وجهه وأن يكون رحب الصدر طيب السريرة.

4- أن يكون متواضعا للمؤمنين يخضع لهم بالقول والفعل وهذه الخصلة هي من خصال النبي صلى الله عليه وسلم حيث أمره الله تعالى فقال: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُومِنِينَ}[245].

---

[242]- سورة الفرقان الآية 59.

[243]- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي الجزء الرابع الصفحة 550. تحقيق مأمون الصاغرجي وشعيب الأرنؤوط، طبعة 1 1401هـ/1981م.

القولة نسبها لوهب بن منيه (13هـ)، نشر مؤسسة الرسالة بيروت طبعة 1402هـ/1982م.

[244]- ورد الحديث عن عائشة مرفوعا ورواد الدراقطني (385هـ) والحديثان السلسلة الصحيحة بيروت 2540.

قال المنذري: رواه الدارقطني عن عروة عن عائشة، الترغيب والترهيب، المجلد الثاني، ص 262، دار الحديث القاهرة الطبعة الأولى 1414هـ/1993م.

وأورده الديلمي في مسنده المجلد 4 ص 69 دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1406هـ/1986م.

واهتمامي كثيرا بصحة هذا الحديث لأنني رأيت خلقي السخاء وحسن الخلق من أظهر صفات شيخنا رضي الله عنه.

[245]- سورة الشعراء الآية 215.

5- أن يكون ناجحا في تربية المريدين وتزكية نفوسهم ولن يكون له هذا إلا إذا كان قد زكى نفسه قبل ذلك على يد شيخ خبير بارع وأن يكون قد إذن له بالإرشاد والمشيخة من قبل شيخه وفق سند متصل.

المبحث الثالث: الوظيفة الاجتماعية للطريقة القادرية

تعتبر الطريقة القادرية البودشيشية أهم مؤسسة تقوم بوظائف اجتماعية سامية يمكن تتبعها في رسالة شيخها الدكتور العلامة جمال الدين القادري حيث أفرد مباحث تؤكد أن الزاوية المغربية أضحت مؤسسة دينية وعلمية واجتماعية، تبلورت أنشطتها وخصوصياتها منذ القرن الثامن الهجري، ثم توسع نشاطها وتجدر داخل المجتمع المغربي مما جعلها تساهم في مختلف اهتماماته المادية والمعنوية، بل والتعبير عنها بكل صدق وموضوعية، ولا شك أن من أهم تلك المهام وأنسبها ما قامت به الطريقة القادرية البودشيشية على المستوى الاجتماعي ولازالت.

ويمكن تفصيل هذا الدور إلى مطالب:

أولا: التنشئة الاجتماعية.

التنشئة الاجتماعية عند علماء الاجتماع هي عملية تطبيع اجتماعي من خلالها يتم إكساب الفرد مفاهيم جديدة من خلال تواجده في بيئة يؤثر ويتأثر بها.

ويعرفها العلامة جمال الدين القادري بأنها العملية التربوية التي يتم بواسطتها تلقين الإنسان –خلال مراحل نموه– مجموع الأنماط المختلفة للسلوك والتفكير والشعور والممارسة التي ترتضيها البيئة والحضارة التي يعيش فيها، إذ المجتمعات مرتبطة أشد الارتباط بتوظيف التنشئة الاجتماعية النابعة من هويتها وخصوصيتها لخدمة المشروع الاجتماعي الذي يشكل الهدف الغائي بالنسبة لها[246].

فهي عملية يتم من خلالها دمج الفرد في المجتمع ودمج ثقافة المجتمع في الفرد.

لكن يطرح العلامة جمال الدين إشكالية كيف تتم هذه العملية في إطار مؤسسة الزاوية، التي تلقن قيما ومعاني إلهية أزلية للإنسان، المخلوق الطيني... لاشك أن ذلك

[246]- مؤسسة الزاوية بالمغرب، المجلد الثاني، ص 301.

يتم في شكل بوثقة منهاج وظيفي إيجابي وفعال، ينطلق من مجموع الآيات والأحاديث التي بينت وسائل التربية الواجب توظيفها في تنشئة الإنسان المسلم وذلك انطلاقا من تعديل سلوكه حتى يكون موافقا للخلق النبوي الكريم الذي أثنى الخطاب الرباني عليه بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}[247].

إنها عملية مؤصلة ومشفوعة بالنصوص الدينية والتربوية في مظانها الأصلية القرآن والسنة تمكن من استكناه حقيقتها كما يرى شيخ الطريقة، وذلك لصيغتها المباشرة والهادفة من جهة، ولممارستها وتطبيقها في الواقع كما تجلى ذلك من خلال السيرة النبوية العطرة من جهة أخرى.

وذلك في ربطها الموضوعي والعقلاني بين الواقع المعيش كإطار مادي يزخر بالتناقضات وبالمتغيرات وبين المقاصد التربوية للآيات والأحاديث، لأن اهتمام الإسلام بالمشكلة الإنسانية يتبلور على جميع الأصعدة مما مهد للتربية الروحية إمكانية تنميط تنشئة اجتماعية ترقى بالمريد إلى مستوى الطموح المقاصدي للشريعة الإسلامية ألا وهو إنتاج وتحقيق مجتمع الفضائل والمكارم التي بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل إتمامها "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[248].

على اعتبار أن شيوخ الزوايا هم الذين أفنوا طاقاتهم في ممارسة وترسيخ الخطاب الديني على المستوى النظري كمعرفة وعلى المستوى العلمي كتخلق وتحقق بهاته المعرفة الشرعية الدينية[249].

وفي هذا الإطار تستلهم الزاوية القادرية قواعد التنشئة الاجتماعية وتستمد وسائلها وطرائقها من هدي القرآن والسنة النبوية حتى تتم تربية المريدين رجالا ونساء، وإن كانت تركز على تربية الشباب حتى يكونوا من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا

---

[247]- سورة القلم الآية 4.

[248]- الإمام مالك، المؤطأ باب حسن الخلق، ص 904 ولفظة أيضا، إنما يعثت لا تتم حسن الأخلاق، الجزء الأول ص 259.

[249]- د. جمال الدين القادري، مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة، الجزء الثاني ص 302.

ظل إلا ظله: شاب نشأ في عبادة الله[250] وبخاصة في سياق راهنية التدافع و الإستقطاب.

فهذه هي جوهر النشئة الاجتماعية الإسلامية أن يتربى المسلم ويشب في عبادة الله منذ بلوغه سن التكليف ويعطى الدكتور جمال الدين المفهوم الصحيح للعبادة فيقول، والعبادة هنا لا نفهمها بالمعنى الضيق الذي تقصره عليه كثير من الفهوم أي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكفى، بل إن جميع العبادات قدر الاستطاعة والطاقة وبالتدريج فرضا ونفلا والإخلاص لله فيها وكذا التوجه إلى الله فهي سائر الأعمال التي يمارسها المسلم سائر أطوار حياته منذ بلوغه سن التكليف[251].

وقد أعطى شيخ الطريقة أمثلة لأنماط العبادة والإخلاص فيها، كالإخلاص في طلب العلم والإخلاص في الرعي والتجارة والإدارة والفلاحة والصناعة وفي كل المهن والوظائف والحرف وكل الأنشطة التي يمارسها المسلمون كل بحسب اختصاصه والوسط الذي يحيا فيه.

إن هذا المفهوم الذي يعطيه شيخ الطريقة رضى الله عنه هو ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية؛ بقوله: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[252]، ويمثل للعبادة الظاهرة بالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين.

وللعبادة الباطنة بحب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه والإخلاص له والصبر لحكمه والشكر لنعمه.

ويشير ابن القيم (751هـ) إلى نفس المعنى في نونيته:

وعبادةُ الرحمن غَايَةُ حُبِّهِ مع ذُلِّ عابده هما قُطْبَانِ

وعليهما فلك العبادة دائرٌ ما دار حتى قامت القطبانِ[253]

---

[250]- أخرجه البخاري في الجامع الصحيح في كتاب الآذان باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ص 165، أورده طرفا منه في كتاب الزكاة، ص 345.

[251]- مؤسسة الزاوية المجلد الثاني، ص 303.

[252]- الفوائد بن قيم الجوزية ص 183 دار علم القواعد للنشر والتوزيع تحقيق محمد عزيز شمس.

[253]- الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ابن القيم الجوزية (751هـ) دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع الطبعة الأولى (1428هـ).

كما نلاحظ أن شيخ الطريقة ربط العبادة بوصفين عظيمين وهما الإخلاص والمحبة سيرا على علم السلف في ذلك يقول ابن القيم (أصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب انبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته)[254]، يقول الصوفية: (لا يعرفه إلا من تعرف عليه ولا يوحده إلا من توحد له أي أن معرفته تعالى وتوحيده لا يكونان إلا بعطائه لعبده)[255].

لا يخفى على المتتبع للشأن الصوفي دور مؤسسة الطريقة القادرية في ترسيخ معاني الإيمان وقيم الإسلام في عقول ونفوس وقلوب مريدها وذلك لأن ما يمارسونه من ذكر الله تعالى يرقيهم إلى إشراقات الإحسان الذي حدده الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[256].

فالمريد في نظر شيخ الطريقة هو ذلك الذاكر الذي يراقب الله تعالى في كل أعماله فتجده مخلصا صالحا لنفسه ولأسرته ولوالديه ولأمته ولوطنه، ويورد كلاما عن الحسن كامل الملطاوي[257].

"فأهل الحقيقة هم أصفى المجتمع لأنهم يطلبون ربا لا يفنى، ويتلهى غيرهم بغمرات الدنيا التي تزول ولا تبقى، ولا أود أن يفهم إخواني القراء الأعزاء أني أرمي أهل الحقيقة بالسلبية في الحياة وترك السعي فيها، لا، إنما أقول إنهم يسعون في الدنيا كما يسعى الناس، ولكنهم مع سعيهم في دنياهم، يجعلون سعيهم هذا في خدمة أخراهم إيثارا للآخرة على الدنيا لأنهم خلقوا للآخرة وهي مقرهم وهم يمرون بالدنيا في طريقهم إليها فلا يشغلهم ممرهم عن مقرهم.. وقد قال سيدي أبو سعيد الخراز رضى الله عنه: ليس الكامل من صدرت منه أنواع الكرامات، وإنما الكامل الذي يقعد بين الخلق يبيع

---

[254]- مدارج السالكين 1/91، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، مراجعة لجنة من العلماء بإشراف الناشر.

[255]- سبق تخريجه.

[256]- سبق تخريجه.

[257]- الصوفية في الهامهم حسن كامل الملطاوي، الجزء الأول، طبعة القاهرة 1419هـ/1999م، ص 25/24.

ويشتري معهم ويختلط بالناس ولا يغفل عن الله لحظة واحدة ويؤيده في كلامه هذا قول الله تعالى {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ}[258].

كما يورد شيخنا رضى الله عنه بيتين لعبد الرحمان بن ناصر السعدي:

نصحوا الخليقة في رضى محبوبهم ... بالعلم والإرشاد والإحسان

صحبوا الخلائق بالجسوم وإنما ... أرواحهم في منزل فوقاني.

وكلام هذا العالم يوافقه كلام رابعة العدوية المرأة الصوفية رحمها الله:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي ** وأبحت جسمي لمن أراد جلوسي

وينجلي لنا من خلال ما سبق ويبرز أن المتصوف الحقيقي هو الذي يكون حاله مع الخلق أكمل حال وأجلها، يبدي لهم غاية النصح، ويحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من الشر، ويسعى في إزالة الشر عنهم بكل ممكن، ويجتهد في إيصال النفع إليهم بكل مقدور، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويطعم جائعهم ويكسوا عاريهم، ويغيث ملهوفهم ويعلم جاهلهم ويردع ظالمهم وينصر مظلومهم، ويتحمل أذاهم ويكف أذى نفسه عنهم، فصحبته لهم بالظاهر والجسم، وأما قلبه وروحه فإنهما يجولان حول الحبيب القريب، السمع المجيب.

وهكذا يتتبع شيخ الطريقة رضى الله عنه أعلام التصوف وأقطابه فيجد أغلبهم يمتهن مهنة أو يتخذ له حرفة أو وسيلة لكسب معاشه كالإمام الغزالي إذ اسمه ينتسب إلى غزل الصوف على قول وإبراهيم الخواص (295هـ) وأبو سعيد الخراز (277هـ) وأبي اسحاق السقاء، وأبي بكر الوراق (240هـ) وأبي حمزة البغدادي البزار (269هـ)، وعبد العزيز التباع حيث كان حرارا[259]، وغيرهم كثير في كتب تراجم أهل الله، ينسبون إلى عمل أو مهنة أو حرفة.

وهذا التنوع في حرفهم وأعمالهم يعكس أن التصوف كممارسة ليس حكرا على فئة دون أخرى لأن طريق الله مفتوح في وجه كل مسلم بصرف النظر عن قدره الاجتماعي ومكانته بين الناس.

---

[258]- سورة النور آية 37.

[259]- دورحة الناشر لمماس من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، ابن عسكر الشفشاوني تحقيق محمد حجي طبعة 1397هـ/1977م.

ولكي لا يفهم أحد أن التصوف ارتبط بذوي الحرف والمهن المعاشية البسيطة، يشير شيخ الطريقة قدس الله سره إلى وجود أعلام للتصوف ذكرهم التاريخ وبرعوا في تخصصات علمية كالطب مثلا، ومنهم أمراء ووزراء وملوك يقول محمد مفتاح (والمهم هنا أن وزراء كثيرين كانوا تابعين لطرق صوفية مختلفة مثل أبي الحسن الحباب الذي كان من أتباع الساحلي وابن زمرك الذي كان متشوفا إلى السلوك ومصاحبا للصوفية وآخذا نفسه بارتياض ومجاهدة إلى غير ذلك من أطباء القصر وجلة من الفقهاء)[260].

ويقول د. إبراهيم حركات: "وحظيت الزاوية الريسونية بمزيد من العطف في عهد السلطان محمد الثالث ونجله مولاي سليمان الذي كان الشريف محمد بن عبد الصادق الريسوني من شيوخه"[261].

وذكر في موضع آخر من كتابه أن مولاي سليمان كان معتقدا في تعاليم أحمد التيجاني وكانت له اتصالات مع الزاوية الفاسية ومع مولاي العربي الدرقاوي.

وغير خاف على كل من تتبع مريدي الطريقة القادرية البودشيشية يجد تنوعا في المريدين، إذ يجد بينهم الطبيب والأستاذ والمحامي والتاجر والموظف في أسلاك الدولة والفلاح والصانع والطالب والفقيه والعالم...

ثانيا: التكافل الاجتماعي داخل زاوية الطريقة القادرية البودشيشية.

يسجل التاريخ الإسلامي أدوار مؤسسة الزاوية الصوفية وإسهاماتها الكبيرة في تحقيق التكافل الاجتماعي بكل أشكاله وتمظهراته، وفي هذا الإطار يتعرض شيخ الطريقة القادرية رضى الله عنه العلامة جمال الدين القادري لبعض هذه التمظهرات مثل:

---

[260]- ذ. محمد مفتاح: الخطاب الصوفي في الغرب الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع طبعة 2014م، ص 291/290.

[261]- المغرب عبر التاريخ، د.إبراهيم حركات الجزء الثالث، ص 130، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الطبعة 1415هـ/1994م.

أ- إطعام الطعام.

يجمع أعلام الصوفية أرباب الزوايا على سنة إطعام الطعام، حيث يؤكد المؤرخون والباحثون في المجال ويعترفون لهم بذلك يقول الدكتور عبد اللطيف الشادلي: "والزاوية مؤسسة اجتماعية التصقت في الكثير الغالب من الأحيان بالإطعام حتى غدت مطابقة له وملازمة، إن قيام الزاوية كمقر لإطعام الطعام قديم ملازم لأولى المؤسسات الصوفية في المغرب"[262].

أما الباحث أحمد بوكاري فيقول: "اشتهرت الزوايا في المغرب بصفة عامة بإطعام الطعام للوافدين وعابري السبيل والمقيمين على السواء، بل إن أهمية ما يطعم فيها يدل فعلا على أهميتها بالنسبة لسواها.... وتبرز أهمية هذا النشاط الاجتماعي عندما يحل بالناس وباء أو مجاعة أوقحط، إذ تحدثت المصادر وكذا الروايات الشفوية عن مساعدات الزاوية الهائلة لجموع الجائعين وتجندها للتخفيف من وطأة ذلك"[263].

أما صاحب كتاب "المغرب عبر التاريخ" فيذكر أن الزوايا كانت مأوى للوافدين خصوصا المريدين والأنصار، وضرب المثل بكرم بعضها أنها كانت تتوفر على قدور ضخمة يسع كل منها ثورين وتقدم الطعام في جفان ضخمة[264].

ويورد العلامة الدكتور جمال الدين القادري أعلاما عرفوا بإحياء سنة إطعام الطعام وأصبح يضرب بهم المثل في الكرم والجود كالشيخ أبي يعزى والصالح عبد الرحمن المجدوب ويوسف بن الحسن التليدي وعلي بن القاسم القنطري وعبد العزيز التباع وعبد الكريم الفلاح وسعيد أمسناو وأبي عمرو القسطلي وسعيد بن أبي المشترائي وسعيد الشوكي وأبي محمد عبد الخالق بن ياسين الدغوغي وسيدي أحمد البدوي بن عبد السلام... حيث كانت لهم زوايا يقصدها المريدون والزائرون في مختلف المناسبات الدينية، فيقدم لهم الإيواء وحسن الضيافة والإطعام الكافي لأعدادهم الكبيرة والتي تتجاوز أحيانا الألف والآلاف.

---

[262]- التصوف والمجتمع، عبد اللطيف الشاذلي، طبعة 1989، دار النشر سلا، ص 192.

[263]- الزاوية الشرقاوية، ج 2، ص 15، الطبعة الأولى 1989 الناشر: مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

[264]- المغرب عبر التاريخ إبراهيم حركات الجزء الثاني، ص 103، الناشر: دار الرشاد الحديثة، الطبعة الأولى 1398هـ/1978م.

وما يلاحظ أن شيخ الطريقة قدس الله سره لم يذكر زاوية الطريقة القادرية البودشيشية الذي هو شيخها، وهذا خلق عال منه رضي الله عنه، وإلا فزوايا الطريقة القادرية لم تكن بدعا من غيرها، فإطعام الطعام سنة متبعة فيها، إذ لها أتباع ومريدون ومحبون بالأعداد يتوافدون على الزاوية الأم في مختلف المناسبات، فتظهر همة القائمين عليها واجتهادهم خاصة في إطعام الطعام وتحيى هذه السنة أيضا في فروعها داخل المغرب وخارجه.

فهذه السنة ظهرت في الزاوية منذ شيوخها الأوائل حيث كان الشيخ علي بن محمد رضي الله عنه يلقب سيدي علي بودشيش لكونه كان يطعم الناس بزوايته مقدما لهم أكلة تسمى الدشيشة معروفة بالمغرب وهي عبارة عن حساء ومن هنا سميت الطريقة بهذا الاسم.

ب- الإيواء.

فهذا عمل مرتبط بالإطعام، فمداغ حيث مقر الطريقة القادرية البودشيشية به أجنحة ومرافق وبيوت للوافدين والزائرين والمريدين من فقهاء وأساتذة وطلبة وعابري السبيل وغيرهم، وعند اللقاء يظهر حرص شيوخ الطريقة وآخرهم سيدي جمال الدين وأنجاله على أن يوفروا أكمل شروط الاستقرار والضيافة والإقامة الملائمة يقول الدكتور عبد اللطيف الشادلي: "تمثل عملية الإيواء والإطعام عنصرا أساسيا في الجهاز الصوفي، ونخرج من قراءة نص التشوف بانطباع واضح قوامه أن حركة الصلحاء بشكل كبير وبأعداد كثيرة ومظاهر تلك الحركة متنوعة كانتقال القروي إلى المدينة أو انتقال الحضري من مدينة إلى مدينة أو كانتقال السائحين من الصوفية"[265].

كما أن أسباب الحركة كثيرة أيضا، تكون لأي سبب من الأسباب الداعية إلى الهجرة، ونعتقد أن هذه التحركات التي كانت تتم في غياب تنظيم قار لبنيات استقبال المسافرين، وفي جو لم يكن الأمن فيه قائما ولا الاستقرار دائما، ما كانت لتتم لولا البنية الاستقبالية التي تهيء نظام الإيواء والإطعام المرتبط بجهاز التصوف، وهو نظام

[265]- التصوف والمجتمع، ص 192.

تطوعي تكافلي مبني على التعامل بالمثل، بكيفية توفر لكل مسافر من الصوفية إمكانية الاستفادة من بنية استقبال في أي مكان ذهب إليه.

كذلك نورد في هذا الإطار الدور البارز للرجل الصوفي في التصدق على المحتاجين والمساكين وتفريق ما يحتاجه الفقراء من المأكل والمشرب والإيواء، وفي الوقت الحاضر تطور دور الزاوية من الناحية الاجتماعية كما نشاهده في زاوية الطريقة القادرية وخاصة الزاوية الأم، فالبناية الحالية للزاوية أصبحت لها طاقة استيعابية لإيواء كل زائر أو مريد مهما بلغ عددهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الخلق الحميد من الصفات المحمودة والأصيلة منذ القديم وتعظيما لشأن هذه الصفة وحرصا على سمعته فقد آوى رسول الله صلى الله عليه وسلم المطعم بن عدي وأجاره وهو مشرك كما آوى ابن الدغنة سيدنا أبا بكر الصديق وهو مشرك ليعبد الله أمام كبراء مكة بحرية تامة[266].

وهو خلق رباني كما قال ربنا عز وجل (فآواكم وآيدكم بنصره)[267] (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى)[268].

ثالثا: مقاربة مؤسسة الزاوية في الإدماج الاجتماعي.

يتناول العلامة الدكتور جمال الدين رضى الله عنه هذه المسألة برؤية ومقاربة جديدتين إذ يعتبر –كما علماء الاجتماع– أن الانحراف ينشأ من البيئة، وبالتالي يعتبر المنحرفون ضحايا ظروف خاصة اتسمت بعدم الاطمئنان وبالاضطراب والتصدع الاجتماعيين أو لأسباب متعلقة بانخفاض مستوى المعيشة الذي يعشون في ظله أو هم ضحايا مزيج من هذا وذاك.

وتؤكد هذه الرؤية التي ذهب إليها شيخ الطريقة إحصائيات رسمية وبالأرقام في أوروبا وأمريكا تذهب إلى أن القابعين في السجون ومرتكبي الجرائم الصغيرة والكبيرة في

---

[266]- البداية والنهاية، ابن كثير (774هـ) الجزء الثالث ص 32 باب بدء الوحي، طبعة 1412هـ/1991م، مكتبة دار المعارف بيروت–لبنان.

[267]- سورة الأنفال، آية 26.

[268]- سورة الضحى الآية 6.

المجتمع غالبا ما يكونون قد عاشوا تصدعات داخل أسرهم ومجتمعهم وبالتالي لم يندمجوا في مؤسسة الأسرة ولا في المجتمع.

ونظرا لأهمية هذا المسلك تبنت الزاوية القادرية وفي مقدمتها شيخها العارف بالله، رؤية تجديدية حيث سعت إلى إدماج كافة الشرائح بما فيها الرجال والنساء والشباب والبراعم بغية تقوية الجماعة وتعزيز مكانة كل فرد وتأهيل الجميع نحو مجتمع تسود فيه العدالة الاجتماعية وينعم بالأمن والاستقرار النفسي والمجتمعي.

بل تعدى دور مؤسسة الزاوية في إطار الإدماج الشخصي السوي، إلى الفرد الذي يتصف بالانحراف وتصدر عنه أفعال منحرفة تضر به وبالآخرين، وفي مقابله الفرد السوي أو النموذج المتكامل نفسيا وحسيا وعقليا وحركيا.

ولهذا فإن مؤسسة الزواية بأورادها وتوجيهات شيخها تعالج كل انحراف يصدر من الشخص حتى ولو اتسع ليشمل أنماطا شتى.

ينظر العلامة الدكتور جمال الدين إلى المنحرف نظرة العالم المحيط بأكدار النفس وتقلباتها، إذ يعتبر المنحرف هو ذلك الشخص الذي يعاني اضطربات نفسية يفصح عنها بأشكال من السلوك المنحرف وهنا يتقاطع فكره مع ما ذهب إليه علماء النفس الاجتماعي الذين يفرقون بين المنحرفين المرضى والمنحرفين الأسوياء على اعتبار أن الانحراف في الحالة الأخيرة مرده إلى المجتمع وظروفه وليس إلى الفرد نفسه كالذي يقتل أو يجرح شخصا مثلا دفاعا عن عرضه لأن القيم الدينية والخلقية تدفعه لذلك الفعل، فالانحراف في مثل هذه الحالة هو من وجهة نظر القانون الجنائي وليس من جهة نظر التكوين النفسي المضطرب أو المختل، ولهذا نجد علماء النفس لا يهتمون بالمنحرفين الذين لا تعبر سلوكاتهم وتصرفاتهم عن الاضطراب أو الخلل أو المرض النفسي لأنهم مجرمون بدون شخصية إجرامية[269].

فالمنحرف في نظر علماء الاجتماع أو علماء النفس الاجتماعي ليس هو المنحرف في نظر علماء القانون حيث يعرفون الانحراف: "هو كل فعل أو نوع من

[269]- الأحداث المنحرفون عوامل الانحراف، محمد علي جعفر، ص 48، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، طبعة 1984.

السلوك أو موقف يمكن أن يعرض على المحكمة ويصدر فيه حكم قضائي، والمنحرف عندهم هو شخص قد صدر ضده حكم إحدى المحاكم بالتطبيق لتشريع معين"[270].

يبرز العلامة جمال الدين دور الشيخ المربي في انتشال المنحرف من حمأة الإجرام ومستنقع الإنحراف، إذ يرى أن المنحرف قد يكون ضحية إهمال أسري لأنه يتمثل سلوكا عاش وسطه وتكرر داخل أسرته من أب أو أخ أو عم، وكم من منحرف سواء في نظر علم النفس أو علم الاجتماع أو في نظر القانون، فأصبح يؤرق أسرته وأقاربه أو سكان حيه، ساقته الألطاف الربانية والأقدار الإلهية إلى شيخ تربية فتاب بين يديه وأصبح إنسانا صالحا، كم من مدمن خمر وكم من مدمن مخدرات وكم من قاطع طريق وكم من لص وكم من سفاك دماء وكم من مغتصب وكم وكم ...؟ أتوا إلى حضرة الله واستغفروا لذنوبهم فاستقامت أحوالهم وأنقدوا من براثين الإجرام والانحراف، فتطهر ظاهرهم وباطنهم وصفت قلوبهم وأجسامهم وأصبحوا يستغفرون بالأسحار.. ويقومون بالأعمال الصالحة في وضح النهار، فقد نور الله قلوبهم بأنوار شيوخ التربية الروحية فخرجوا من ظلمات المعصية والانحراف وقد اشتهر أثر فضل صحبة الشيوخ المربين على من لجأ إليهم من المنحرفين حتى أصبح يقال: "من اللصوص إلى الخصوص"، ويقال: "من اللصوصية إلى الخصوصية"[271].

وهذا الأمر الذي أشار إليه العلامة جمال الدين رضي الله عنه هو شاهد بالتجربة والمعاينة فكم من منحرفين عاشوا حياة الإقصاء الجسدي والنفسي والاجتماعي فصاروا منبوذين من طرف المجتمع بسبب سلوكاتهم اللاأخلاقية والمناقضة لقيم الدين والشريعة، عملت الزاوية باعتبارها مؤسسة شمولية ومتكاملة في المنهج والمقصد إلى احتضانهم فحولتهم إلى أشخاص انعكست من خلال ممارساتهم وسلوكهم الأحكام والتوجيهات التي جاءت بها الشريعة الإسلامية الغراء.

فالزواية إذن في منظور شيخها الأكرم فضاء ومدرسة تهيء المنحرف لإعادة دمجه في النسيج المجتمعي فينصهر داخل مكوناته انصهارا سليما إيجابيا فعالا وبناء.

---

[270]- محمد إبراهيم زيد، مقدمة في علم الإجرام، ص 352، دار الثقافة القاهرة، الطبعة الأولى 1980.

[271]- مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصر، د. جمال الدين القادري البودشيشي، المجلد الثاني، ص 320.

رابعا: الصلح والتحكيم.

وهذا دور له مكانة كبيرة في شريعة الإسلام، خصوصا إذا علمنا أن في السيرة النبوية ما يزكي هذا الموقف فقد كان سيدنا رسول الله يستخلف في الصلاة ويخرج ليصلح بين قبيليتين متنازعتين، فقد أورد البخاري في صحيحه حديثا عن سهل بن سعد رضى الله عنه: أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله صلى الله وسلم بذلك فقال: اذهبوا بنا نصلح بينهم[272].

وكان سيدنا رسول الله يرغب في الصلح، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة) قال الترمذي (279هـ): ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين)[273].

بل أجازت الشريعة المطهرة الكذب من أجل هذا الأمر العظيم ففي صحيح البخاري: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا أو يقول خيرا)[274].

ولا عجب أن تجعل مؤسسة الزاوية بالمغرب خصوصا الصلح بين المتنازعين ضمن أدوارها ووظائفها النبيلة، إذ كانت تشكل في التاريخ دور الحكم للفصل في مشاكل الأفراد والجماعات الكائنة في محيطها نظرا لما يرمز إليه شيخ الزاوية من تجسيد للحقيقة والعدالة الدنيوية والأخروية، ولما يتصف به من حياد واستقامة، ويشير العلامة جمال الدين إلى أن الشيخ المربي يتدرج عمله في الصلح من التوسط لتحقيق الصلح بين الأفراد إلى دور الوساطة بين القبائل لحل مشاكلهم مع بعضهم البعض أو بين بعضهم مع ممثلي السلطة. يقول أحمد بوكاري: (إن ما يمكن أن نستنتج من كلام المؤرخ الزياني لا يخرج في نهاية المطاف عن بعض مهام الزاوية الرئيسية ونعني به

---

[272]- الجامع الصحيح للبخاري كتاب الصلح ص 658 باب قول الإمام لأصحابه إذهبوا بنا نصلح.

[273]- رواه الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، 408 طبعة اعتنى بها بيت الأفكار الدولية، وحسنة الألباني في صحيح الترمذي.

[274]- أخرجه البخاري في الجامع الصحيح كتاب الصلح باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، ص 658.

دور التوسط بين القبائل لحل مشاكلهم... أو بين بعضهم مع ممثلي المخزن والمنطقة)[275].

بل وفي بعض الحالات يتدخل شيخ الزاوية لتحقيق الصلح بين المتنازعين على السلطة فهو بذلك يشكل عامل استقرار وأمن لأنه يطفئ نار الفتن والحروب الأهلية ويحقن الدماءويؤلف بين القلوب المتنافرة والاتجاهات المتصارعة.

ويورد شيخ الطريقة القادرية الدكتور جمال الدين أمثلة ونماذج أهمها :

أ- الصلح بين الأفراد.

ليستشهد شيخ الطريقة القادرية هنا بالشيخ محمد بن أبي بكر الدلالي الذي عاصر أكثر من ثلاثين سنة من عهد الفوضى القلاقل والاضطرابات (1012هـ-1056هـ/1603م-1636م)، حيث كثرت تدخلاته واتسعت وساطاته بهدف حل المنازعات الفردية بقيادة أبنائه الثلاثة: عبد الخالق وعمر ومحمد الحاج، وقد تجاوزت تدخلاته المستوى المحلي.

وإذا ما دققنا في كتب التصوف، نجد أن بعض مشايخ الزاوية يضيفون مع الصلح التخفيف على المدين الذي كثرت ديونه ولا يستطيع لها أداء كما هو الشأن بالنسبة لمحمد بن العلامة والمرابط محمد ابن عبد الرحمان الصومعي الذي قدم على الشيخ الصالح محَمد الشرقي قائلا (علي ديون وثقل علي أمرها وخفت على نفسي الفضيحة من أربابها وتباع أملاكي في قضائها وليس لي غيرها فصاح الشيخ، وقال له، قد خلص الله عليك)[276].

يتضح مما سبق وباعتبار شيخ الطريقة هو المربي والدال على الله بأقواله وأفعاله وأحواله أهمية الشيخ في النسق الإجتماعي لما له من قوة التأثير والنفوذ القوي على أتباعه ومريديه وفي كثير من الأحيان على أفراد المجتمع لأنه من أسس الطريق وقواعده احترام الشيخ و التسليم التام له ليس فقط في الشؤون الدينية بل في الشؤون الدنيوية أيضا ونتيجة لذلك يتدخل الشيخ في كثير من الأمور التي تتعلق بأسرة المريد

---

[275]- الزاوية الشرقاوية، ج.2، ص 160.

[276]- الزاوية الشرقاوية، أحمد بوكاري المجلد الثاني، ص 21 الطبعة الأولى 1409هـ/1989م، دوحة الناشر، لابن عسكر الشفشاوني (989)، ص 113-114 تحقيق محمد حجي طبعة 1397هـ/1977م.

وأقاربه وجيرانه وأفراد مجتمعه مما كان له أثر كبير في معرفة دور الشيخ في الضبط الاجتماعي وديوع شهرته في هذا المجال مما حدا بكثير من أفراد المجتمع من غير المنتمين إلى الطرق الصوفية للجوء إليه لفض المنازعات القائمة بينهم و التدخل لحل المشكلات و إزالة أسبابها و القضاء على عوامل التشاحن و التباغض في حالة وجودها بينهم فالشيخ قدوة لمريديه ومعروف بين الناس بأنه المرشد والمعلم والمربي والمصلح والقائد والداعي والعارف الذي يجب الاقتداء به والامتثال لنصائحه[277].

وتأسيسا عليه تظهر لنا ضرورة (وجود الشيخ المربي في الطريق لأن منازل القوم كثيرة ولا يرشد فيها إلا من سلك وعرف مزالقها فالأخذ السليم عن الكاتب السليم ربما فيه الأجر، أما الأخذ عن الشيخ ففيه الأجر وفيه الوصول معا، لأن فيه الإمداد بالبركة وربط المريد بالوصلة المحمدية وذلك أشبه بالتيار الكهربائي لا ينتقل إلا بالموصل. فالشيخ هو محرك الطاقة ومن ثم فاتخاذ الشيخ أمر لابد منه للسالك، وهو واجب شرعي باعتباره وسيلة إلى الله لدخوله في عموم قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ}[278] وقوله تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}[279]... ولو لم يكن ذلك ما جعل الله عز وجل لنا من رسول الله إسوة حسنة نتعلم منه كافة أمور ديننا ودنيانا، لذلك فالقدوة تعد من أهم أساليب التطبع أو التنشئة الاجتماعية)[280].

ب- التوسط بين القبائل

إن التدخل المالي لمؤسسة الزاوية لا يقتصر على الأفراد بل يشمل أحيانا قبيلة برمتها وأحيانا أكثر، وهنا يورد أحمد بوكاري ما حدث بقبيلة أيت عتاب في عهد الشيخ العربي: "وكان طالبهم المخزن بمال كثير، فدفعه عنهم وأبرأ ذمتهم[281].

ويبرز شيخ الطريقة القادرية الدكتور جمال الدين ما ظهر في أقا وهي قرية على أحد روافد وادي درعة من أدوار لشيخها محمد بن امبارك الأقاوي حيث استقر بهذه

---

[277]- التصوف في مصر والمغرب ذة منال عبد المنعم جاد الله، ص 182.

[278]- سورة المائدة آية 35.

[279]- سورة الأنعام الآية 90.

[280]- التصوف في مصر والمغرب، منال عبد المنعم جاد الله، ص 190 دار المعارف للنشر الاسكندرية مصر.

[281]- الزاوية الشرقاوية، أحمد بوكاري، المجلد الثاني، ص 21، دوحة الناشر، لابن عسكر، ص 113-114.

المنطقة الفقيرة وكان يغلب على أهلها التنازع والتطاحن حيث يقاتلون كالوحوش، فنشر الطريقة الجزولية وأقر بينهم ثلاثة أيام في كل أسبوع وفي كل شهر، لا يحمل فيها أحد سلاحا ولا يتعرض بعض القبائل فيها لبعض وتسمى هذه الأيام بأيام سيدي محمد بن امبارك[282].

إن هذه الممارسات والجهود المبذولة من شيوخ الزوايا هي التي تحول دون توسيع دائرة الخرق والتمزق في البنيان القبلي، خاصة في فترات السيبا، عندما تتعطل الأحكام المخزنية، مما يجعل للشيخ الصالح أهيمة كبرى في الحفاظ على ثروات البلاد البشرية والمالية، وهو الدور الذي قام به بصفة خاصة الشيخ محمد المعطي في زمن الفتن والتمزق الذي عرفته البلاد بعد وفاة المولى إسماعيل والذي استمر زهاء ثلث قرن (من 1139هـ إلى 1171هـ). ذلك أن هذا الشيخ رحمه الله بذل نفسه في طاعة الله وفي الصلح والمهادنة بين العباد... في تادلة وتامسنا ودكالة.. وهو يتردد في ذلك مع خاصة أولاده وأصحابه، وكل بلد وصلها أمره ينفع فيها بين عباد الله الصلح والهادنة وتخرجها العداوة.

ويورد العلامة سيدي جمال توجه الشيخ محمد المعطي نفسه مع جماعة من أصحابه وخاصته في موكب مبارك حافل إلى قبيلة دكالة بغرض الصلح والمهادنة بين العباد كما فعل في تادلة والشاوية، فتلقاه علماء وأعيان وفقراء دكالة وعامتهم بكل مظاهر الاحترام والحفاواة وسجل ابن عبد الكريم أحداث هذه الزيارة تفصيلاتها بقلم المعاين المشاهد والحاضر، إذ كان من جملة المرافقين قائلا: (واجتمعت عليه جموع كبيرة من خلق لا عدد له وخيول كثيرة، وقضى لهم من الحوائج ما شاء الله أن يقضي، ولقنهم ما يحتاجون إليه من سنن الشريعة المحمدية، فكان عندهم ذلك الوقت عيدا عظيما، ومهرجانا كريما، وانتشرت في الناس كثرة الأذكار، فكلمهم عن الصلح والمهادنة بينهم وبين عبدة وقام المنادي ينادي، يا عباد الله استبشروا بخليفة الأشياخ وإمام الأئمة الرساخ الولي الكامل العالم العامل سيدي محمد المعطي، وقد أمركم

[282]- دوحة الناشر، ابن عسكر، ص 113-114.

بالصلح والمهادنة بينكم، فكونوا عباد الله إخوانا وعلى فعل الطاعة والخير أعوانا، فقالوا حبا وكرامة)[283].

وقد ذكر المؤرخ الناصري في الاستقصاء أيضا دور شيخ الزاوية في التخفيف من حدة الاصطدام بين القبائل في تادلة وتامسنا ولجوء المتنازعين إلى الشيخ محمد المعطي حفاة عراة طالبين تدخله ووساطته الكريمة لدفع ضرر المنازعات خاصة بعد فشل الحملات التأديبية العسكرية ضد هذه المناطق[284].

وقد كان للزاوية القادرية البودشيشية دور كبير في الصلح بين المتخاصمين، يذكر شيخ الطريقة الحالي أن والده سيدي حمزة رحمه الله كان ينوه بقدره ويدعوه ليحضر مجلسه الذي يعقده للمصالحة بين القبائل في زمن الفتن، فتظهر بركة حضوره، وكان رحمه الله كلما اندلعت الفتن والفوضى بين المداشر والقرى في قبيلته والقبائل المجاورة بادر إلى المصالحة بين المتقاتلين وإخماد نار الفتنة نظرا للمكانة المحترمة التي كان هذا الولي الصالح يحتلها في قلوب سكان القبيلة[285].

ويؤكد شيخ الطريقة ما كان يقوم به ولده المشمول برحمة الله، برسالة جوابية لسيدي المختار توضح شفاعته لشخص لدى السلطان هذا نصها:

الحمدلله وحده،

محبنا الأعز الأجل الشريف الأمجد السيد المختار بن محيي الدين القادري، رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله.

وبعد فغير خاف عنك العهد والميثاق الذي وقع بيننا وبين مبارك الهبيل... فنحبك أن تقدم عنده وتكلمه في ذلك وتعرفه بأننا منا عليه بأمان الله.

في 4 جمادى الأولى 1321هـ.

رسالة جوابية لسيدي المختار القادري لوساطته وشفاعته لشخص لدى السلطان.

الحمدلله وحده

---

[283]- مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة، ج.2، ص 387/386.

[284]- الاستقصاء لأخبار حول المغرب الأقصى، المجلد الرابع، لأحمد خالد الناصرني ص 156، طبعة دار الكتاب الدار البيضاء، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري 1418هـ/1997م.

[285]- مؤسسة الزاوية بالمغرب، المجلد الثاني، ص 388.

محبنا الأرضى الشريف الأجل الأحظى سيدي المختار نجل سيدي الحاج محيي الدين سلام عليكما وحمة الله بوجود مولانا نصره الله.

وبعد، فقد وصلنا كتابك وكل ما ذكرت فيه بالبال وعجل بالقدوم أنت ومن معك وعليه أمان الله ورسوله...

في 22 شعبان 1321هـ.

ج- الوساطة بين القبائل والسلطة.

يدرك الباحث في هذه الإشكالية أن الغرب انتج السوسيولوجيا لدراسة ذاته على اعتباره مجتمعا حديثا متطورا، كما أنتج الانثروبولوجيا لدراسة الآخر ولدراسة المجتمعات الأخرى على اعتبارها مجتمعات بدائية، غير أن دراساته للآخر ونحن نتحدث عن المجتمع المغربي، لم تكن محكومة على الدوام بهاجس معرفي وبعد علمي وبالتالي موضوعي بل على العكس من ذلك تماما فقد كان هاجسها إيديولوجي بالدرجة الأولى.

ومن هنا شاهدنا مغالطات حاول العديد من الباحثين ترسيخها والانطلاق منها كمسلمات تؤطرها الأطروحة الاستعمارية التي حاولت اللعب على مجموعة من الثنائيات التي اعتبرتها واقعا حتميا من قبيل: بلاد المخزن / بلاد السيبا / العرف، الدولة / القبيلة، الزاوية/ العرب، البربر. كما نتكلم هنا عن الأطروحة الانقسامية وريثة الأطروحة الأولى وذلك من خلال إعادة إنتاجها نفس المسلمات وإن بطرق أخرى.

لقد أفرز لنا هذا الوضع أطروحة مضادة سميت بالأطروحة الوطنية والتي حاول روادها نفي ما حاول الاستعماريون والانقساميون من بعدهم إثباته، وكمثال على ذلك ما قامت به كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، حيث نظمت يوما دراسيا خصصته لكتاب يوضح هذه الأطروحة وعنوانه: "الزاوية بين القبيلة والدولة" للدكتور محمد جحاح[286]، بمشاركة عدد من علماء الاجتماع، وهو كتاب جدير بالمناقشة والدراسة

[286]- كتاب ألفه محمد جحاح في جزئيين ونظمت من أجله ندوة فكرية في جامعة المولى اسماعيل بمكناس بتاريخ 15 دجنبر 2015، بقاعة السجلماسي بمكناس تتبعت أطوار هذه الندوة عبر تقنية الفيديو –نيت.

لأنه يمثل محاولة جديدة لتصحيح وإعادة النظر في كثير من المغالطات والتجاوزات النظرية والتاريخية، وهو محاولة لاستبدال أيديولوجيا بايديولوجيا أخرى.

وإذا كان الفكر الغربي الاستعماري قد حاول جاهدا إثبات أطروحة غياب الدولة وعجزها التام عن فرض سيطرتها على القبائل أو بعضها فإن صاحب الكتاب يؤكد مقولة بلاد المخزن في مقابل بلاد السيبا، والشرع في مقابل العرف، ورمزية شيخ الزاوية كمرجع إصلاحي لاستتباب الأمن الروحي والمجتمعي.

وانسجاما مع الإشكالية المطروحة، فإن أهمية الزاوية المغربية تتأكد بالنظر إلى ما اضطلع به هذا التنظيم الديني من أدوار اجتماعية وسياسية حاسمة في سياق مغرب ما قبل المرحلة الاستعمارية، هذه الفترة من تاريخ المغرب التي ستعرف –وكما تطلعنا المصادر التاريخية– مجموعة من الأحداث والوقائع الاجتماعية والسياسية التي تشهد بتأزم العلاقة على مستويات عدة، بين السلطة والمجتمع، ومن هذا المنطلق سيرتبط تاريخ الزوايا وبشكل بنيوي بالتاريخ الاجتماعي والسياسي للمغرب قبل الاستعمار وبعده، بحيث شكلت في هذا الإطار قوة شرعية واجتماعية وسياسية وازنة إلى جانب سلطة المخزن، خاصة وأنهما يشتركان في بعد واحد وموحد ألا وهو الانتساب للشرف: شرف آل البيت (رحمة الله وبركاته عليكم آل البيت)[287].

فكل من السلطان وشيخ الزاوية يعتبر شريفا تربطه قرابة مباركة بنبي الأمة صلى الله عليه وسلم.

ومن الباحثين الذين دافعوا عن الأطروحة الوطنية التي تؤكد على أن الزاوية في بعدها السوسيوتاريخي هي مؤسسة دينية تنسجم وتتعاون مع سلطة المخزن ويتقاطعان في كثير من الدلالات و المعاني (البركة–الطاعة–الخدمة–الامتثال–الولاء)، نذكر عبد الله العروي وعلى المحمدي وعبد اللطيف أكنوش... وغيرهم.

وفي إطار هذه المقاربة السوسيو–تاريخية لعلاقة الزاوية بالسلطة والقبيلة يمكن تحديدها في هذه الثلاثية:

– من جهة هناك سلطة الزاوية محلية ويمثلها الشريف/شيخ الزاوية.

---

[287]- سورة هود، آية 72.

– من جهة ثانية هناك سلطة العامل أو القائد المخزني ممثل أمير المومنين وحامي حمى الوطن والدين.

– من جهة ثالثة هناك سلطة المجالس القبلية "الجماعات" ممثلة في شخص ال(أمغار) أو شيخ القبيلة سابقا.

وقد قامت مؤسسة الزاوية منذ القديم بدور أساسي في الوساطة بين القبيلة والسلطة إذا ما نشب نزاع أو اضطراب في العلاقة ويعطينا العلامة الدكتور جمال الدين القادري نماذج من شيوخ الزوايا وكيف كانوا وساطة صلح وسببا في تأليف القلوب إذ كان الشيخ أبو شعيب أيوب يشفع للناس لدى عمال أزمور فإذا ما امتنع بعضهم من تلبية مرغوبه ظهرت براهينه فيه.

كما يذكر الشيخ سيدي محمد بن يوسف الدلائي وكيف لجأ إليه الناس يشكون ما أصابهم من المخزن فقال لهم: يا أهل تادلة، إن في بلدكم سيدا صالحا، ولو أراد الله بكم خيرا لعمر قلوبكم بمحبته وشغلكم بمعرفته وخدمته. ولو فعلتم ذلك لم يتعد عليكم إنس ولا جان ولا شيطان ولا سلطان إلا ما شاء الله[288].

والجدير بالذكر أن العلاقة بين مكونات المجتمع الثلاثة السالف ذكرها، لم تكن في كل الأحوال على ما يرام، وهنا يورد العلامة جمال الدين نفعنا الله به أمثلة لصلحاء الزاوية الشرقاوية لدى سلاطين الوقت ووساطتهم لقبائل السهل وقبائل الجبل كي ينعموا بالاستقرار الاجتماعي والسياسي في أرضهم وتحت حماية سلطة المخزن.

ومن ثمار العلاقة الحسنة بين الزاوية والمخزن أن أصحاب الشيخ محمد الصالح وأتباعه وكل من أستجار به احتموا بشيخ الطريقة للحد من تعسفات المخزن وخاصة موظفيه الجهويين من قواد وجباة لأنهم أسرفوا في المصادرة والتعذيب، وذلك بهدف فك أسرهم وتسريحهم من السجن أو استعادة ممتلكاتهم أو تخليصهم من القتل حيث تؤكد المصادر أن ما كان يصيبهم لم يكن له أي مبرر، إذ غالبا ما تم الإجهاز عليهم بسبب وشاية كاذبة أو شائعة مغرضه عنهم من امتلاكهم وادخارهم لأموال كثيرة وإخفائها[289].

---

[288]- الزاوية الشرقاوية، د. أحمد بوكاري، المجلد الثاني، ص 147.

[289]- مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصر، ج.2، ص 391/390، الطريقة التجانية نموذجا–ذ. الساسي عمامرة.

ويؤكد صاحب كتاب الخطاب الصوفي[290] أن شيوخ الصوفية كان لهم دور فعال في التخفيف من أعباء ما كان يفرض على القبائل وإخماد أسباب الفتن والقلاقل، إذ غالبا ما كان الناس يقصدونهم ويتخذونهم وسائل بل كان عبد الله الغالب يلجأ إلى الشيخ أحمد بن موسى السملالي ويسأله أن يدعو له ليمهد ملكه ويعتذر إليه بأنه لا يمكن العيش بدونه ولا يأمن على نفسه ولا تؤويه أرض إذا هو تخلى عنه فقال الشيخ: يا عرب، يا بربر، يا سهل، يا جبل اطيعوا السلطان مولاي عبد الله ولا تختلفوا عليه[291].

وفي السياق ذاته يذكر أحمد بوكاري اضطلاع الشيخ العربي الدرقاوي بأدوار سياسية تمثلت في:

- تكليفه من طرف السلطان مولاي سليمان بدور الواسطة السلمي و الإيجابي بين أتراك غرب الجزائر و الثوار الجزائريين.....[292].

أما دور الزاوية القادرية البودشيشية فقد ظهر في شيخها سيدي المختار القادري حيث يستشهد نجله رضي الله عنه برسالة أميرية ليصلح بين القبيلة والقائد هذا مقتطفها.

الحمد الله وحده

محبنا الأرضى المكرم الأحيى الأحظى الشريف المجيد سيدي المختار بودشيش أمنك الله ورعاك وسلام عليك ورحمة الله بوجود مولانا الإمام أيده الله ونصره.

نحبك تبذل مجهودك وتصلح القائد قدور مع الزياينة حتى لا يبقى بينهم وهم، فالله يجعل الفتح على يديك...

في 4 ذي الحجة 1322هـ.

كما يورد رسالة تبرز مكانة شيخ الزاوية القادرية وعلمها سيدي المختار عند ولي الأمر هذا نصها:

---

[290]- الخطاب الصوفي في الغرب الإسلامي، محمد مفتاح، ص 5.

والكتاب قدم رسالة لنيل الدكتوراه في 2014م/2015 جامعة محمد خيصر بسكرة كلية الآداب واللغات، الجزائر.

[291]- الاستقصاء، ج.5، ص 47.

[292]- الإحياء والتجديد الصوفي في المغرب، أحمد بوكاري، ص 85، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية طبعة 1427هـ/2006م.

الحمد لله وحده

محبنا الأرضى الشريف الأبر السيد المختار نجل سيدي محيي الدين، السلام عليك ورحمة الله بوجود مولانا أيده الله ونصره، وبعد فقد وصلنا شريف كتابك وفهمنا ما تضمنه فيه خطابك في شأن ولد الهبيل، وعليه فإن كان صالحا وسامعا كلام المخزن ومدعنا إليه فليقدم وعليه الأمان التام ونحن على ما عاهدناه عليه، فلا يجد بحول الله إلا ما يسره، وإن كان يسمع للقيل والقال، ويتبع سبل أهل الضلال فهو أدرى بنفسه... والحاصل أن ولد الهبيل إن أراد إصلاح نفسه وأهله يقدم معك لدينا وعليه أمان الله ورسوله ولا يجد إلا ما يسره عندنا، وبه الإعلام والسلام.

في 7 جمادى الأولى 1321هـ.

في بعض الحالات يتدخل شيخ الزاوية لتحقيق الصلح بين المتنازعين على السلطة فهو بذلك يشكل عامل استقرار وأمن لأنه يطفئ نار الفتن والحروب الأهلية ويحقن الدماء ويؤلف بين القلوب المتنافرة والاتجاهات المتصارعة[293].

ويؤكد العلامة جمال الدين القادري تدخل كثير من شيوخ الزوايا لتحقيق الصلح بين المتنازعين على السلطة من خلال إعطاء أمثلة ومواقف سجلها التاريخ كموقف عمر الخطاب الزرهوني والشيخ أبي الرواين اللذين كانا ضمن وفد دخل بين المتحاربين بالصلح لما رأى الناس ما وقع بين الملوك من التهالك والتقاتل وفناء الخلق بغاية تقاسم المغرب.

فالقوى الدينية ممثلة في الزوايا وشيوخها لم تكن بعيدة عن هاته الأحداث، إذ ظهرت أهميتها الاجتماعية والسياسية من خلال تردد أدعياء السلطة على رحابها وبين يدي شيوخها إما بهدف تعبئة سكان مناطق نفوذها، أو عند الاحتماء بحرمها طلبا للنجاة والأمان.

ويضرب شيخ الطريقة مثالا بالزواية الشرقاوية حيث كانت لها أدوار جيوسياسية توضحت أكثر إثر الصراع الذي احتدم بين أبناء السلطان سيدي محمد خصوصا عندما تركز التنافس بين منطقة مراكش ومنطقة فاس مما جعل لموقف شيخ الزاوية

[293]- الخطاب الصوفي، محمد مفتاح، ص 5.

وزعيمها الروحي أهميته وخطورته نظرا لما تمثله زاوية أبي الجعد من نفوذ في كل من تادلة والشاوية كمنطقة فاصلة وفي الوقت ذاته كخط تماس لقوى الجانبين... رأى السلطان مولاي سليمان أن حل مشكل الشاوية وتادلة يجب أن يمر عبر زاوية أبي الجعد... بل أظهر السلطان مولاي سليمان رغبته من شيخ الزاوية أكثر من أن يكون محايدا أمام هذه الأوضاع وذلك من خلال التردد والتقرب إليه.

هذه المواقف وغيرها أبرزت الحجم الحقيقي والجديد الذي أصبحت الزاوية الشرقاوية تحتله في الخريطة الدينية والسياسية على السواء، إذ أصبح حل المشاكل الكبرى مثل ولاية العهد والبيعة يأخذ بعين الاعتبار موقف وموقع الزاوية[294].

وتجدر الإشارة إلى أن مؤسسات الزوايا بصفة عامة كانت تشكل مأمنا وملجأ يجد فيه الفارون من مطاردة أو عدالة مكانا لإصلاح النفس ومراجعة السلوك وقد كان سلطة المخزن تقر لها بهذا الدور يقول الدكتور إبراهيم حركات: (وكانت الأضرحة الكبرى أيضا تتمتع بمقام سياسي مستقل متفق عليه ضمنيا بين السلطة والمجتمع، وهذا المقام ينحصر في كون اللجوء إليها من مطاردة الدولة حقا يتمتع به أي لاجئ.. لقد كان تكريم الأضرحة معروفا لدى سكان الشمال الإفريقي من أوائل العهد الإسلامي ومهما يكن من شأن فليس كل تكريم للأضرحة جهل وسداجة، فهناك رجال عظام بجهادهم أو علمهم أو زهدهم أو بكل ذلك يستحقون هذا التكريم في كل معتقد وملة... وهكذا هرع أحمد الذهبي إلى الزاوية الحنصالية بتافيلالت، ولجأ أخوه عبد الملك إلى ضريح مولاي ادريس بفاس في ظروف النزاع بينهما أو مع خصومهما من الجيش، ولجأ زعماء الأوداية إلى ضريح أحمد الشاوي وزاوية اليوسي وضريح سيدي بوسرغين بصفرو وغيرها في عملية التأديب التي قام بها محمد الثالث سنة 1174هـ/1760م)[295].

ويورد شيخنا رضي الله عنه كلاما في السياق ذاته للدكتور عبد اللطيف الشاذلي يعنى الحرم: المكان الذي يحرم فيه القتال والصيد، وزيد في معناه حتى شمل كل

---

[294]- أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، ج.2، ص 164-165.

[295]- المغرب عبر التاريخ، د. إبراهيم حركات، ج3، من صفحات 545-546-550، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء الطبعة الثانية 1415هـ/1994م.

المتعبدات، وطبقت الفكرة على الزوايا أيضا باعتبارها متعبدا، ويؤمن هذا الحرم الناس حين يلجأون إليه وما أكثر الإشارات إلى هذا النوع من الحماية، فقد استشفع أحد خدام الوزير محمد بن السلطان أحمد المريني، وكان واليا من قبل أبيه على مكناسة بالشيخ سعيد المشتراكي، فأمنه وتدخل لدى الوزير يطلب الصفح. لكن الوزير تجاوز وعده وخرج عن أمانه وقتل خادمه "فوعك الوزير تلك الليلة وتسلط عليه أكال في جسمه فتمزق لحمه وتقطع قطعا شيئا فشيئا حتى تمزق جسمه ومات لأيام قلائل، فاعتبر الناس والسلطان من ذلك. ومن ذلك الوقت زاد الأمراء وغيرهم في احترام حرم زاوية الشيخ، وأصبح الذي يلجأ إلى الزاوية ويحتمي بحماها لا يتبعه أحد تعظيما وهيبة لها كما ذكر ابن عساكر في كتابه الأربعون الأبدال العوالي.

وهكذا توضح لنا هذه الأمثلة وغيرها كثير، دور مؤسسة الزاوية ومكانتها الدينية والسياسية داخل المجتمع، فهل يبقى بعد هذا من ينكر على الطريقة القادرية البودشيشية لما خرجت لتعبر عن موقفها السياسي وتأييدها لدستور 2011 الذي أقره المغاربة قاطبة.

يتبين مما سبق أهمية الشيخ في النسق الاجتماعي لما له من قوة التأثير والنفوذ القوي على أتباعه وفي كثير من الأحيان على أفراد المجتمع، لأنه من أسس الطريق وآدابها احترام الشيخ والتسليم التام له كما سبق وذكرت الأستادة منال جاد الله.

لقد حظي مفهوم التنشئة الاجتماعية باهتمام كبير في مختلف مجالات المعرفة (علم الاجتماع، الانثربولوجيا، علم النفس) وفي المعاجم والقواميس العربية وغير العربية، فضلا عن الأبحاث والدراسات الاجتماعية والنفسية والتربوية، وتأسيسا عليه يمكن القول إنه لا يمكن استيعاب مفاهيم التنشئة الاجتماعية في مبحث أو مقال وما سنذكره هنا لا يعني سوى قليل من كثير وفيض من فيض ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد .

ويلاحظ أنه لا يوجد تعريف جامع مانع لهذه العملية لأنها إحدى عمليات العلوم الاجتماعية التي تتم بالنسبية والتغير عبر الزمان والمكان، فهي بالأصل عملية تتعلق بالإنسان في سياقه الاجتماعي وسيرورته الزمانية.

وما سأذكره يعتبر مقاربات للمفهوم، فبعض علماء المسلمين يعتبر التنشئة الاجتماعية عملية إكساب الإنسان الخصائص الأساسية للمجتمع الذي يعيش فيه ممثلة في القيم والاتجاهات والأعراف السائدة في مجتمعه باعتبارها ضوابط ومعايير للسلوك الاجتماعي المرغوب في هذا المجتمع؛ وهي عملية مستمرة عبر زمن متصل تبدأ من اللحظات الأولى من حياة الفرد إلى وفاته[296].

ويرى عالم الاجتماع الأمريكي بارسونز أن التنشئة الاجتماعية عملية تعلم تعتمد على التقليد والمحاكاة والتوحد مع الأنماط العقلية والعاطفية والأخلاقية عند الطفل والراشد، وهي عملية تهدف إلى إدماج عناصر الثقافة في النسق الشخصية، وهي عملية مستمرة تبدأ من الميلاد داخل الأسرة وتستمر في المدرسة وتتأثر بجماعات الرفاق[297].

ويحسن بنا ونحن نتكلم عن التنشئة الاجتماعية أن نورد تعريفا لها من أحد رواد هذا التخصص وهو إميل دوركايم حيث يرى أن التنشئة الاجتماعية عملية استبدال الجانب البيولوجي بأبعاد اجتماعية وثقافية لتصبح هي الموجهات الإنسانية لسلوك الفرد في المجتمع[298].

وإذا انتقلنا إلى القواميس والمعاجم التي عنيت بهذا الجانب نجد قاموس علم الاجتماع يعرف التنشئة الاجتماعية بأنها العملية التي يتعلم الطفل أو الراشد عن طريقها كيف يتكيف مع الجماعة عند اكتسابه السلوك الاجتماعي الذي توافق عليه هذه الجماعة[299].

أما معجم علم النفس والطب النفسي فإنه يعرف التنشئة الاجتماعية بأنها العملية التي يكتسب الفرد من خلالها المعرفة والمهارات الاجتماعية التي تمكنه من أن يتكامل

---

[296]- زين العابدين درويش، علم الاجتماع: أسسه وتطبيقاته، دار الفكر العربي القاهرة 1999، ص 68.

[297]- نقلا عن عبد الفتاح تركي موسى: التنشئة الاجتماعية من منظور إسلامي، المكتب العلمي للنشر والتوزيع القاهرة، ص 193.

[298]- أورده علي ليلة: الطفل والمجتمع، التنشية الاجتماعية وأبعاد الانتماء الاجتماعي، المكتبة المصرية القاهرة 2006، ص 193.

[299]- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1979، ص 449.

مع المجتمع ويسلك سلوكا تكيفا فيه، وهي أيضا عملية اكتساب الفرد للأدوار والسلوك والاتجاهات التي يتوقع منه في المجتمع[300].

ويمكن إجمال الملاحظات حول هذه التعريفات التي أوردتها في هذا المبحث وأخرى أطلعت عليها فيما يلي:

– يتضح لنا أن التنشئة الاجتماعية عملية معقدة متشعبة تتضمن من جهة كائنا بيولوجيا له تكوينه الخاص واستعداداته المختلفة ومن جهة أخرى شبكة من العلاقات والتفاعلات الاجتماعية التي تحدث داخل إطار معين ومنظومة خاصة من المعايير والقيم، ومن جهة ثالثة تفاعلا ديناميكيا مستمرا بين التنشئة والفرد يؤدي إلى نموه تدريجيا.

– يلاحظ أن معظم التعريفات التي تناولت التنشئة الاجتماعية تنصب في ناحية كونها التفاعل الاجتماعي التي يكتسب الأفراد من خلاله شخصيتهم ويتعلمون في نطاقه طريقة الحياة في مجتمعهم[301].

– تتفق معظم التعريفات حول الهدف الأساسي من التنشئة الاجتماعية والذي يتمثل في تشكيل الكائن البيولوجي وتحويله إلى كائن اجتماعي تحكمه قيم وينضبط بضوابط محددة، ومتعارف عليها، وهي التي يسميها علماء الاجتماع بالرقابة الاجتماعية، فما هو مفهومها وما هي أنواعها؟

الرقابة الاجتماعية كما يراها علماء النفس الاجتماعي هي مجموع الوسائل والطرق والمناهج التي يستخدمها المجتمع بمتابعة وتقويم سلوك أفراده خلال مواقفهم التفاعلية الاجتماعية وبصفة مطردة بهدف تحقيق أهداف اجتماعية منشودة ومساعدتهم وإرشادهم لتحقيق أهدافهم الفردية ومنع تعارضها مع الأهداف الاجتماعية المتعارف عليها، واكتشاف المخالفات فور ظهورها وتوجيهها وطرح بدائل علاجية فعالة[302].

---

[300]- جابر عبد الحميد علاء الدين كنافي، معجم علم النفس والطب النفسي، دار النهضة القاهرة ج7، ط 1995، ص 360. إعداد د. جابر عبد المجيد جابر ود. علاء الدين كفاني.

[301]- خلاصة بحث قمت به بعنوان "التنشئة الاجتماعية بين الأمس واليوم"، لم يطبع بعد.

[302]- خلاصة بحث قمت به بعنوان "التنشئة الاجتماعية بين الأمس واليوم"، لم يطبع بعد.

ويعرفها اميل دوركايم قائلا: (هي مجموعة من المعتقدات والعواطف العامة بين أعضاء المجتمع والتي تكون نسقا خاصا يحقق التجانس بينهم)[303].

كما يعرفها بأنها عملية استبدال الجانب البيولوجي بأبعاد اجتماعية وثقافية لتصبح هي الموجهات الأساسية لسلوك الفرد في المجتمع[304].

ومن أهم أقسام الرقابة الاجتماعية:

أ- الرقابة الذاتية: عن طريق الفرد نفسه فيكون رقيبا على سلوكه الفردي وحريصا على مطابقته للسلوك الاجتماعي، وهذا النوع هو أرقى أنواع الرقابة الاجتماعية، ويشكل هذا النوع أسمى أهداف الصوفية بصفة عامة وهو المقام الإحساني الذي يشير إليه حديث جبريل عليه السلام: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[305].

ب- الرقابة الأسرية: وهي الرقابة التي تفرض على الفرد في محيط الأسرة وكلما وضع المجتمع نظما توجيهية وساعد الأسرة في الرقابة السلوكية للفرد كلما كان هذا النوع فعالا، وإذا توحدت أهداف الأسرة وأهداف المجتمع كان التواجد الرقابي ووثقت الأسرة بوسائل الضبط الاجتماعي للمجتمع وبالتالي لجأت لاستخدامها لمنع الانحراف السلوكي والعكس صحيح.

ج- الرقابة المؤسسة الموجهة: وهي رقابة تولد لدى الفرد خوفا مستحسنا ودافعا إيجابيا لتحقيق الذات في محيط الأسرة.

ومؤسسة الزاوية الصوفية من أبرز المؤسسات التي تضطلع بالرقابة الاجتماعية من خلال وضعها لمجموعة من الأوراد الخاصة والعامة، الفردية والجماعية تتلاقى مع الأهداف الاجتماعية العامة للمجتمع المغربي والمتمثلة في العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي والتصوف السني وفقه الإمامة العظمى صمام الأمان ورمز الاستقرار والوحدة المجتمعية.

---

[303]- إميل دوركايم، دراسة في علم الاجتماع البنائي. د. حسام الدين محمود فياض، الناشر مكتبة نحو علم اجتماع تنويري (2018م).

[304]- قاموس علم الاجتماع، محمد عاطف غيث، ص 449، الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة 1979.

[305]- أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان ص 37. باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان.

خامسا: التجديد في فن السماع والمديح

السماع يعني السماع عن كلام الحق ما يحمل معه نسمات القرب، تهب على قلوب الذاكرين، وتحرك أشجار المعاني المغروسة في أرواحهم، أغصان المحبة والشوق إلى معرفته تعالى وذلك بترديد قصائد تحمل المعاني السامية الخالدة، والفضائل والمكارم النبيلة، والأخلاق الحميدة، والأمداح النبوية، وما فيه حكمة ورقة وذكرى وموعظة حسنة، أو يضع المعالم في طريق السلوك الرباني وحقيقة الصدق والإخلاص ويرشد إلى الحقيقة الشرعية باعتبارها مدخلا إلى الحقيقة القلبية الإلهية.

إن الأصل في السماع الشرعي لفظا ومعنى وإنشادا وتأثرا ما أخرجه البخاري ومسلم عن سلمة بن الأكوع، قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، فسرنا ليلا فقال رجل للشاعر عامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ فأخذ يحدو ويسوق وأسمعهم من شعر بن رواحة الأبيات مطعلها:

اللَّهمَّ لولا أنتَ ما اهتدَيْنا ** ولا تَصدَّقنْا ولا صَلَّيْنا

فأَنزِلَنْ سَكينةً علَيْنا ** وثبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقَيْنا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من هذا السائق؟ فقالوا: عامر بن الأكوع، فقال: "يرحمه الله"[306] فاستحق الشاعر عامر بن الأكوع الدعاء له بالرحمة من نبي الله جزاء أن أسمع الرسول وصحابته كلاما حسنا مستمدا من الحقيقة الإلهية في وقت يتناطح فيه البعض في صرف الألفاظ بين جواز السماع ومنعه، جاهلين أن السماع الصوفي لا يطلق لفظا ومعنى إلا على ما يستحسن سماعه، وهو النوع الذي سمعه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وطلب من الله أن يرحم منشده، بخلاف الشعر الذي يطلق عادة على ما يجوز سماعه وما لا يجوز، إذ هو لفظ يشمل ما هو حق وباطل، وحسن وقبيح، وهداية وضلالة، وحكمة وفضيلة، وخلاعة ومجون... فجمع بين الإيجابيات والسلبيات، والسماع الصوفي بكل ألوانه يعرف الإيجابيات ويجهل السلبيات، ويحتضن الحسن ويرفض القبيح والحسن يعني الحق، والقبيح يعني الباطل، إذ الحسن

---

[306]- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب غزوة خيبر، ص 1030. وعامر بن الأكوع الأسلمي كان شاعرا رقيقا استشهد في غزو خيبر.

ما استحسنه الشرع والقبيح ما استقبحه والذين أخطأوا وأنكروا جهلا بغير علم هم الذين التبس عليهم الأمر ما بين السماع والشعر، أو بين الشعر الإيجابي والسلبي أو بين الحسن والقبيح[307].

إن التصوف يعني الذكر، والذكر يعني طهارة القلب وصفاء السريرة والخروج من ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، لكل شيء جلاء، وجلاء القلوب ذكر الله.

إن ذكر الله وسماع آياته وأسمائه وصفاته، والمعاني القلبية تتلى، تجعل العبد مع الله، والله مع العبد كما في الحديث القدسي (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إذا ذكرنِي، فإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَير مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إلي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إليه بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)[308]، و الملأ هو ملأ الملائكة، وفيه أن الله يذكر الذاكرين له وليس الغافلين عنه.

وإذا كان الذكر بالمفهوم التربوي يعني ما يذكر بالله ويزيل الغفلة عن القلب، ويزيد في الإيمان ويوقظ الهمم وينشط الباطن، ويحركه نحو محبة الله ورسوله، فالسماع الصوفي الحقيقي ذكر تحصل معه هذه الفوائد، ويعمل عمله في القلب، وهو ذكر تربوي شعوري، وجداني وعرفاني ومن خصائصه أن ظلمة الغفلة لا تقع في مجلس تضاء أرجاؤه بأنواره[309].

إن السماع الصوفي الحقيقي عند أصحاب الحقيقة القلبية الصوفية ليس الشعر والإنشاد والغناء كما يقال، أو ينحصر في الدندنة بين الأذن والنفس كما هو شأن التغني بالألفاظ، وإنما هو دروس علمية توجيهية، تكوينية باطنية شعورية وجدانية، توحيدية معنوية خلقية ربانية... قصد تقويم الفهم عن الله وبه، وتنشيط القلب والروح، وتقوية الباطن على تحمل الجهد بالعمل بالكتاب والسنة.

---

[307]- الحقيقة القلبية الصوفية، أحمد لسان الحق، ودورها في إصلاح الفرد والمجتمع بروح التسامح والمسالمة في السلوك الصوفي، اطلعت على الكتاب عبر موقع نفحات الطريق، الطبعة الأولى 1999، ص 304/303.

[308]- الجامع الصحيح، للبخاري ص 1827.

[309]- نفسه نفسه ص 343.

إن التصوف المثالي القائم على الذكر وتلاوة القرآن وسماع المعاني القلبية والحقائق الإلهية والأمداح النبوية له هدف سام ومنهاج متكامل جمع بين صلاح الظاهر وصلاح الباطن من جهة، وبين الإلتزام بالكتاب والسنة والتعرض للفيض الروحي من جهة أخرى، وإنسانية التقوى والإدمان على الذكر وتلاوة القرآن والعبودية لله وعبادته، والخضوع لعظمته ومراقبته[310].

قال أبو القاسم الجنيد رحمه الله: "السماع لا يحدث في القلب شيئا وإنما هو مهيج ما فيها فتراهم يهيجون من وجدهم، وينطقون من حيث قصدهم، ويتواجدون من حيث كامنات سرائرهم، لا من حيث قول الشاعر ومراد القائل، ولا يلتفتون إلى الألفاظ لأن الفهم سبق إلى ما يتخيله الذهن"[311]، والمسلم الفطن يسمع لطيف الإشارة من كثيف العبارة . ذكر أهل العلم أن عليا رضى الله عنه سمع صوت ناقوس، فقال لأصحابه أتدرون ما يقول؟ قالوا لا، قال إنه يقول: سبحان الله حقائقا إن المولى صمدي يبقى يا أهل الدنيا إن الدنيا قد غرتنا واستهوتنا واستغوتنا، يا ابن الدنيا مهلا سهلا، يا ابن الدنيا تفنى الدنيا قرنا قرنا، ما من يوم يمضى عنا إلا يهوي منا ركنا[312].

ولما كانت الغاية من السماع أو الإنشاد، الإرشاد والمواعظ والفوائد، حيث أن من طبيعة سماعه إثارة كوامن النفوس، وتهييج مكنونات القلب، بما فيها من الأنس بالحضرة القدسية، والشوق إلى الأنوار المحمدية، بما اتصف به السادة الصوفية الذين لم يحتجبوا بالأصوات لهوا، ولا يجتمعون عبثا، وهم في واد والناس في واد آخر، والسر أنهم سمعوا ما لم يسمع الناس، وعرفوا ما لم يعرفه الناس، فسماعهم يثير أحوالهم الحسنة، ويظهر وجدهم، ويبعث ساكن الشوق ويحرك القلب، ولما كانت قلوبهم بربهم متعلقة، وعليه عاكفة، في حضرة قربه قائمة، فالسماع يسقي أرواحهم ويسرع في سيرهم إلى الله[313].

---

[310]- نفسه ص 345.

[311]- وظيفة السماع الصوفي، محمد الموضح، مجلة الإشارة ع 26 س 4 مارس 2003، ص 17. وأيضا غذاء الألباب شرح منظومة الآداب أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي –1188هـ) الجزء الأول ص 127 دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ضبط وتصحيح، محمد عبد العزيز الخالدي، الطبعة الأولى 1417هـ/1996م.

[312]- نفس المرجع ص 128.

[313]- حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، ص 205.

فالمحترف بحب الله تعالى لا تمنعه الألفاظ الكثيفة عن فهم المعاني اللطيفة حيث لم يكن واقفا مع نعمة ولا مشاهدة صورة، فمن ظن أن السماع يرجع إلى رقة المعنى وطيب النغمة فهو بعيد عن السماع[314].

إن السماع الصوفي يعتبر من أجمل ما أنتجته هذه الأمة الخاتمة من فن وإنشاد يغوص معناه في كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تعبيرا عن صفاء القلوب وذوقها لحلاوة التوحيد الذي يربطها بعالم الذر والتجريد وما أجمله من تحليل وتفسير لعلاقة الوجد أو الحال بالسماع لا يستطيع علماء النفس على اختلاف مدارسهم وتقدمها أن تستنتج مثله مهما غاصوا في بحر ما خفي عن الشعور، هو هذا الذي عبر عنه الإمام أبو القاسم الجنيد رحمه الله لما سئل: ما بال الإنسان يكون هادئا فإذا سمع السماع اضطرب فقال: إن الله تعالى خاطب الذر في الميثاق الأول بقوله (ألست بربكم قالوا بلى) استفرعت عذوبة سماع الكلام الأرواح فلما سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك[315].

إن ما يحمله مفهوم السماع من معاني وفضائل سامية من خلال تحديد مفهومه وما يحمله أيضا من أسرار تحرك القلوب وتربط الفرع بالأصل الأول (ألست بربكم قالوا بلى)[316].

وباعتباره حلقه من حلق الذكر التي تنهض الهمة وتغذي الوجدان استوجب معه بالضرورة آداب تهم المسمع والمستمع ولتحقيق الغاية والمقصد من ترديد قصائد تحمل المعاني والأسرار والقيم التربوية والفضائل وأمداح تورث الشوق والتعلق بالحضرة الإلهية وتزرع محبة سيد الخلق ونور الحق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

خصوصية السماع في الطريقة القادرية البودشيشية:

إذا كان عمل الذكر يحتل الصدارة في هرم أعمال الطريقة، وإذا كان الإسلام دين يسر وتيسير، لا يدعو الإنسان إلى سآمة الفعل لأن الله لا يمل حتى يمل المرء،

---

[314]- نفسه ص 205.

[315]- نفسه ص 209/208.

[316]- سورة الأعراف، الآية 172.

ولأن المومن مدعو ليعيش بين ساعة وساعة كما في حديث حنظلة السالف ذكره، فإن أطباء القلوب من خيرة شيوخ التربية قد أخذوا بالسماع لتحقيق هذا الهدف حتى يبقى باطن المريد محصنا من طوارق الغفلة التي قد توسوس له النفس بأن يدعن لها، وحتى يروح عنها مخافة السآمة والملل[317].

وبهذا المفهوم العميق لدور السماع في طريق السلوك و السير إلى الله من طرد الغفلة وإنهاض للهمة وتحرك للباطن فالسماع لدى طريقتنا المباركة يمتاز بخصوصيات حصرية تظهر في تفاعل غير العرب مع السماع الروحي ووجدهم به، رغم أن منهم من لا يعرف العربية جملة وتفصيلا، وخاصة إذا كان المسمع هو الشيخ نفسه بحيث تكاد أرواحهم تطير وحناجرهم تبح مع اضطراب في الأجساد ولكنه اضطراب لذة وهيام ووجد وليس جنون وسقام، وما ذلك إلا لانعكاس قرب المخاطب على المستمع قبل صيغة وألفاظ مضمون السماع نظرا لاتحاد الأرواح وتآلفها عند تعارفها كما في الحديث النبوي الصحيح (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)[318].

في حين نجد هذا المعنى بارزا في الحديث الشريف الذي أخرجه البخاري عن جبير بن مطعم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ) كاد قلبي أن يطير[319].

بحيث أن هذا الوجد المعبر عنه قد جاء نتيجة مستوى القارئ المتناسب مع مضمون القراءة مما لا يصح تفسيره إلا بالذوق المؤدي إلى الشوق.

من هنا يرى أبو حامد الغزالي بأن الفهم قد يختلف بأحوال المستمع، فيغلب الوجد على مستمعين لبيت واحد، أحدهما مصيب في الفهم والآخر مخطئ، أو كلاهما

---

[317]- البعد التوحيدي للذكر في الإسلام، الوسيلة والغاية، محمد بنيعيش، ط.1. 1420/1999، ص 96 دار الكتب العلمية، بيروت لبنان دخلت للكتاب عبر موقع نفحات الطرق.

[318]- ذكر الله وتحصيل الحضور، أحمد الرحيحات، مطبعة الساحل، الرباط 1992، ص 68، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، باب الأرواح جنود مجندة، ص 2031.

[319]- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير ص 1226.

مصيبان وقد فهما معنيين مختلفين متضادين ولكن بالإضافة إلى اختلاف أحوالهما لا يتناقض.

فالوجد بالسماع الصوفي في الطريقة القادرية البودشيشية وجد صادق بالمشاهدة ودقيق بالملاحظة يتجلى ذلك من خلال تفاوت صوره بين الفقراء المريدين وعدم خضوعه لإيقاع موحد بالكامل، حيث إن البعض في قمة الوجد الجماعي المسمى بالعمارة قد لا يحرك ساكنا بينما المعروف عنه أنه أكثرهم وجدا وحالا والبعض الآخر الذي قد يغلب عليه الهدوء في العادة ربما يطرأ عليه وجد لم يكن بالحسبان... وما ذلك إلا لقوة الوارد المصاحب للسماع داخل الطريقة التي تستمد قوة وجدها من حال شيخها ومستوى آثار حضوره في القرب من الله جل وعلا، واستمداده من الحضرة العلية الأقدسية والحضرة النبوية الشريفة.

وهو ما عبر عنه شيخ طريقتنا الراحل سيدي حمزة رحمه الله في قصيدته: "يا طالبا بلوغ الحقيقة" عن سر تلك القوة ومصدرها ألا وهو ذلك الإذن القدسي الذي حصل عليه في باب تربية الأنام، وهذا كذلك من أهم الخصائص التي تستوجب التأكيد عليه هو هذا الإذن الذي يعطي السماع شحنة نورانية وعرفانية تحرك القلوب ولقد يسر الله لي في ثمانينيات هذا القرن أن زرت مداغ و سمعت القصيدة عيانا من الشيخ المشمول برحمة الله سيدي حمزة.

ويعد مذهب الطريقة القادرية البودشيشية فيما يخص موقفها من السماع واختيارها لنموذج الصوت المجرد من دون آلة موسيقية وذلك بعدما انقسم الصوفية كما يقول شيخ الطريقة الراحل رحمه الله إلى فرقتين:

الأولى: ترى التزام السماع المجرد بالاعتماد على الصوت الطبيعي للإنسان وقدرته ومواهبه في صياغة الأوزان وتحديد المقامات والتموجات..

والثانية: ترى ضرورة استعمال الآلات الموسيقية والتي قد اختلف الفقهاء أنفسهم حول جوازها أو منعها.

فمذهب الطريقة القادرية البودشيشية من خلال هذا التقسيم المختصر هو ترك الآلة وإعطاء الفسحة للأصوات وخاصة لدى الشباب لكي يسبحو في فضاء العرفان

بأجنحة روحية ذات رفرفات جمالية وذبذبات ذوقية مشوقة إلى أقصى غايات الأشواق والتطلع إلى منتهى الآفاق وهو مما يتناسب مع قوة شيخنا الحالي سيدي جمال الروحية ومستواه العرفاني الرفيع والمؤثر بواسطة الهمة الفعالة والمهمينة على مجالس السماع قبل التسميع وبعده مما لا يمكن إنكاره، وقد وقفت على ذلك بنفسي إذ كنت ولازلت أجالس القوم وأحضر جهدي معهم

فاصحبهم وتأدب في مجالسهم***وخل حظك مهما خلفوك ورا

واستغنم الوقت واحضر دائما معهم***واعلم بأن الرضا يخص من حضرا[320]

وإذا كان شيخنا العارف بالله سيدي جمال بمذهبه هذا قد يتوافق مع المذاهب الفقهية في التزام السماع وأنواعه، إلا أنه يعتمد بالدرجة الأولى في مسلكه على فقه القلوب والوجدان أكثر من تلونات الحناجر واللسان، وذلك بحكم الاقتران القدسي الذي يعرفه السماع في الطريقة القادرية البودشيشية والمتميز كما يلحظه الجميع من ذوي النوايا الصافية بشفافية القرب من الحضرة القدسية الإلهية والحضرة النبوية الشريفة وتحقيق الخطاب المباشر بالحال والإشارة والاستبشار السائد فيها[321].

تمثل مقاصد السماع:

1- التربية على حسن المقصد وصفاء النية:

يقول سيدي حمزة رحمه الله (ربوا الفقراء على المقصود، أي من وجدتم فهمه قصر عن المقصود من الصحبة فأرشدوه إلى الغاية من التربية، وهي طلب وجه الله تعالى والتعلق به لا بسواه من الحظوظ)[322].

يعد المقصد الأسمى لطريقتنا المباركة هو تحصيل التحقق الأكمل وترسيخ التخلق الأفضل، والتحقق معناه التعلق بالله واستشعار القرب منه وكذا استشعار روح العبادة في كل شيء، فلا وصف ولا فعل إلا يتوجه إلى الله عز وجل، وبالتماهي مع

---

[320]- البيتان من قصيدة أبي مدين الغرث (594هـ)، أوردهما عمر بن محمد بن أبي بكر بن سالم بن حفيظ، في كتابه مسلك أهل الفطن من معاني قصيدة مالدة العيش لأبي مدين ص 9، الطبعة الأولى 1432هـ/2012م إصدارات دار المعطف.

[321]- السماع بالطريقة البودشيشية أذواق وآفاق، محمد بنيعيش، والنص من مقال طويل في موقع نفحات الطريق أصول الدين جامعة القروين المغرب، وهي قصيدة من ديوان أبي مدين، جمعه د. عبد القادر سعود ود. سليمان القرشي.

[322]- موقع نفحات الطريق.

هذا المعنى استوجب تحصيل هذا الأخير بالنسبة للمسمع باعتبار أن السماع في طريقتنا المباركة يعد وجها من أوجه خدمة الطريق وإحدى أهم الوسائل الفعالة في نشرها والتعريف بها، لذا يجب على المسمع أن يتمثل القصد الصحيح من السماع والذي ينبغي أن ينحصر في ابتغاء وجه الله بعيدا عن أي قصد سواء كان ماديا أو حظا نفسيا، لأن السماع كما سبق ذكره نسق يتكامل ويحيل على الذكر بمفهوم التزكية والتطهير.

2- رسالة للأمة رسالة كونية:

ما عرفته الطريقة القادرية البودشيشية من تقاطر للوافدين عليها من شتى الآفاق ومن جنسيات مختلفة يعبر عن أنها تشكل مركز إشعاع روحي تنجذب إليه الأرواح التي لا جنسية لها إلا فطرتها التي فطرها الله عليها، وبعد سماع الطريقة المأذون أداة ووسيلة تربوية وروحية توجه عبرها رسائل نورانية وإشارات عرفانية تحقق سمو الأخلاق وصفاء الروح وترقيها في معارج القرب في حضرة الله ,علاوة على ما تتعرض له من فيوضات ونفحات وأنوار تزود روح الصوفي من كل العبادات بالزاد الأوفى فتسمو وتتقوى[323].

قالوا: وإنما السماع حقيقة ربانية ولطيفة روحانية، تسري من السميع المسمع إلى الأسرار للطائف التحف والأنوار، فتمحق من القلب ما لم يكن ويبقى فيه ما لم يزل، فهو سماع حق بحق من حق[324].

فكان بذلك رسالة كونية موجهة للعام والخاص تتجاوز حدود العبارة والألفاظ وتسري لطائفها إلى المستمع فيكون تأثيره باطنيا ووجدانيا يقتنص الأرواح فتتراقص الأشباح ويحدث الأثر العميق في تحريك الباطن وتنبه القلب عن غفلة البعد عن الله.

كما قال أبو مدين التلمساني (594هـ):

إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقاء *** تراقص الأشباح يا جاهل المعنى[325].

---

[323]- الحضور الصوفي في زمن العولمة، د. منير القادري بودشيش، الطبعة الأولى 1425/2004، ص 100.

[324]- حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، ص 177، الطبعة الخامسة والعشرون 1421هـ/2001م.

[325]- إبعاد الغمم عن إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة (1266هـ) تصحيح وتنقيح د. عاصم إبراهيم الكيالي دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.

3- رسالة تخليقية:

إن السماع بأبعاده المختلفة المتنوعة رسالة تهذبية تخليقية من خلال ما تتضمنه القصائد والأشعار من معاني سامية في توجيه الغافل وإنهاض همته وإحياء القلوب وتنشيط البواطن واستحضار عظمة الخالق والارتواء من معين سيد الخلق وسرد سيرته والعمل بها لما يكون لها من الأثر الفاعل في تهذيب النفس وتزويد المستمع من سيرة العارفين وسيرة سيد الخلق أجمعين من أخلاق وفضائل توجيهية وتربوية.

أخلاقيات المسمع: الفقير المسمع وليس المسمع الفقير

من خلال ما ذكرناه تتبين أهمية السماع عند طريقتنا المباركة باعتباره حلقة من حلق الذكر، وما يحمله من معاني وأسرار، وبوجود الإذن فيه وما له من تأثير على القلوب في تهذيبها وتوجيهها استلزم معه بالضرورة مجموعة من آداب ظاهرة وباطنة:

آداب الظاهر:

* المحافظة على الأوراد والأذكار الفردية.
* ملازمة حضور الاجتماعات ومجالس الذكر.
* المحافظة على الشريعة.
* التخلق بأخلاق الطريقة.

آداب الباطن:

* إخلاص النية لله تعالى بالتجرد من أي حظ نفسي أو دنيوي.
* استحضار همة الشيخ ليكون رفيقا له.
* اجتناب الغرور بنسبة الحق والفضل لأهله.
* اعتبار السماع وجها من أوجه خدمة الطريقة.

نخلص مما سبق إلى النتائج الآتية:

1- ضرورة استحداث هيئة للسماع داخل مجلس الزاوية لها ارتباط مباشر بالمجموعة الوطنية للسماع.

2- توحيد وضبط مدونة النصوص السماعية مع الاستعانة بالخبرة العلمية لمريدي الطريقة وتضمينها نصوص جديدة.

3- عقد دورات تكوينية محلية تتوج بدورة تكوينية وطنية.

4- إدراج موضوع السماع ضمن التوجيهات والمذكرات لتوضيح المقصود والغاية من السماع داخل الطريقة المباركة.

5- التحقيق في القصائد والأشعار التي يوظفها المسمع في الملتقيات العامة والليالي الخاصة.

6- استخدام الرمزية في القصائد بشكل وسطي، علما أن الشعر الصوفي يقوم في الغالب على اللغة الرمزية، فالسكر والكرم وليلى وغيرها في الأدب الصوفي تصرف إلى معاني وإشارات عرفانية لا يفقهها إلا السالكون للطريقة، فهو يختزل كثيرا من المعاني كما ذهب إلى ذلك زكي مبارك "دمج كثير المعنى في قليل اللفظ"[326] وهذا ما يوافق الحكمة عند ابن عطاء الله السكندري (709هـ) تقول نجلاء بوجه: تنتمي الحكم العطائية إلى أدب الرمزيات، وتعود رمزية الحكم إلى كونها تتعرض لأحوال النفوس المتغيرة من آن إلى آن[327].

سادسا: انفتاح الطريقة القادرية على العالم الإسلامي-إفريقيا نموذجا-

يجمع الدارسون للشأن الصوفي أن الزاوية القادرية لمؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني (471هـ) توجد في كل من المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر والسودان وإثيوبيا والصومال وغانا ومالي وغينيا والتشاد والكامرون ونيجيريا وموزانبيق وسيراليون والأردن وفلسطين وسوريا والعراق وإيران وأفغانستان وتركيا والباكستان والهند وبورما والطايلاند وماليزنا واندونسيا والصين والشيشان والدول المستقلة عن الاتحاد السوفياتي سابقا ويوغسلافيا وألبانيا....

ويعتبر الدكتور حسن إبراهيم حسن في مقال بعنوان "انتشار الإسلام في القارة الإفريقية" الزاوية القادرية أوسع مؤسسة دينية انتشارا وقد دخلت أفريقيا الغربية في القرن

---

[326]- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، زكي مبارك ص 134 (بتصرف)، طبعة 2012 مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

[327]- الحضور الصوفي في زمن العولمة، نجلاء بوجه، ص 93، بحث مقدم لنيل دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث، السنة الجامعية 2017/2016.

الخامس عشر على يد المهاجرين الذين اتخذوا "لواتة" أول مركز لطريقتهم ثم لجأوا إلى تمبكتو، إلا أن الانتشار الديني لم يعرف أوجه إلا في صدر القرن التاسع عشر ففي مستهله كان للنهضة الروحية الكبيرة في العالم الإسلامي تأثير كبير وحافز للزاوية القادرية لتجدد نشاطها في التغلغل داخل إفريقيا خاصة دول الساحل والصحراء[328].

وكان ممثلي الطريقة القادرية يلقون ترحيبا شعبيا كبيرا باعتبارهم علماء وفقهاء ومعلمين، ولم يمض زمن طويل حتى وجدنا مثقفين وجماعات من المريدين قد انتشروا في أرجاء السودان العربي والسنغال إلى مصب نهر النيجر، وكان بعض هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام يوفدون لإتمام دراستهم بمدارس القيروان والزيتونة وطرابلس وبجامعتي القرويين والأزهر حتى إذا ما أتموا دراستهم عادوا إلى أوطانهم مزودين للعمل على نشر العقيدة الإسلامية بين مواطنيهم.

ويقول المؤرخ الفرنسي دولانوس: (إن أبرز النشاط للطريقة القادرية كان في أفريقيا السمراء عندما تولت جماعات من القادرية العمل على نشر الإسلام في صفوف القبائل السود الوثنية في أفريقيا السوداء)[329].

ويقول الدكتور عبد الرحمن زكي في كتابه "المسلمون في العالم اليوم": انتشرت في أوائل القرن الرابع عشر الهجري الطريقة القادرية بإرشاد الشيخ عمر البكاي وتفرعت القادرية البكائية التي يتبعها كثيرون في السودان وموريتانيا والسنغال ونشأت الطريقة الفضلية المنسوبة إلى محمد فضل ثم ماء العينيين ثم السيدية بالصحراء الكبرى[330].

ويقول علال الفاسي: (إن الطريقة القادرية هي أول طريقة أدخلت الإسلام إلى جميع المناطق الإفريقية ولها أكبر عدد من الأتباع...)[331].

ولعل المجال لا يسمح باستعراض كثير من الشهادات والتقارير التي تؤكد على أدوار الزاوية القادرية العلمية والتربوية والسياسية والاجتماعية لا سبيل لأحد أن ينكرها فقد شهد بذلك كثير من المستشرقين والمؤرخين نذكر منهم على سبيل المثال لا

---

[328]- انتشار الإسلام في إفريقيا، د حورية توفيق مجاهد، ص 66-67. عبر goodreads.com.

[329]- الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي، من دعوة الحق، ع 202.

[330]- نفس المصدر.

[331]- نفس المصدر.

الحصر المستشرقين الإنجليزي مرجيلوت والألماني شاخت والمؤرخين الفرنسين هنري طيراس وشارل اندري جوليان، والكاتب الفرنسي ريشيه والضابط الفرنسي كويولاني، والأستاذ مارتان والأمير شكيب أرسلان والمرحوم علال الفاسي والدكتور عبد الرحمان زكي والدكتور أحمد الشرباصي والمستشرق الفرنسي فانسان مونطاي الذي أسلم أخيرا وسمى نفسه المنصور بالله، والمستشرق الإنجليزي سير توماس أرنولد والأستاذ محمد عيني الشركي من تركيا والمؤرخة الفرنسية أوديت دوبوبكودو، وغيرهم كثير...

لقد نتج عن هذا التوسع الأفقي للزاوية القادرية في إفريقيا برمتها ظهور أتباع لها ومشايخ في العلم والعرفان نذكر منهم:

- الأمير عبد القادر الجزائري بطل المقاومة بالجزائر.
- محمد أحمد المهدي بطل الثورة السودانية أعوام 1882-1885.
- الشيخ محمد علي السنوسي.
- أحمد بن إدريس الفاسي.
- الشيخ محمد الأغضف دفين طانطان.
- الشيخ مصطفى محمد ماء العينين (1910م).
- الشيخ أحمد الهيبة.
- الشيخ مصطفى مربيه ربه.

تتعدد الطرق والوسائل والهدف واحد، تنطبق هذه القاعدة على الزاوية القادرية والتي تفرعت عنها ثلاثون مدرسة انتشرت بأفريقيا وآسيا وأطراف من أوروبا (الشيشان-ألبانيا..).

والطريقة البودشيشية أهم هذه المدارس وأشهرها نظرا لمكانة شيوخها العلمية والتربوية ومنهجها الوسطي المنفتح على كل المريدين واقعا وممارسة وغاية ومقصدا.

وفي سبيل ربط الحاضر بالماضي تسعى الطريقة إلى تنظيم ملتقيات فكرية وثقافية بغية تقوية العلاقات الدولية والتقريب فيما بين الشعوب، وكان من أهم هذه الملتقيات الملتقى العالمي التصوف في نسخته الثانية عشرة الذي نظم أيام 09-10-11-12 ربيع الأول 1439 الموافق ل 28-29-30 نونبر 01 دجنبر 2017 بمقر

الزاوية الأم بمداغ تحت شعار الدبلوماسية الروحية، الأبعاد الثقافية والتنموية والحضارية.

يقول الدكتور منير القادري نجل شيخ الطريقة عن هذا الملتقى "أضحت الدبلوماسية في ظل السياق المعاصر صورة مختزلة عن الشعوب والأمم في مختلف أبعادها السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية والحضارية، فبعد أن كان العمل الدبلوماسي يرتكز في السابق على التمثيلية للشعوب، غدا اليوم ينفتح على كل الفعاليات التي من شأنها الإسهام في رعاية وخدمة مصالحها، ويأتي هذا في سياق التحولات الكبيرة التي تعرفها مجتمعاتنا المعاصرة، وما فرضته السياقات الجديدة من متغيرات على كثير من منظوماتنا، بما فيها نظام الدولة نفسه، إذ لم يعد منحصرا في النظام السياسي، بقدر ما أصبح يرمز إلى كل المكونات والفعاليات المشكلة لهذا الكيان، وتبعا لهذا فقد تطورت العلاقات فيما بين الدول وصارت أكثر تعقيدا وتشابكا مما كانت عليه في الماضي؛ بحيث تتضمن اليوم كل الفاعلين الذين يسهمون في رعاية وتأثيث هذه العلاقات، وهو ما تبلور في مفهوم "الدبلوماسية الموازية" التي يعتبر البعد الروحي والديني من أهم فاعليها[332].

فلا يخفى الدور المحوري الكبير الذي أصبح يضطلع به المكون الديني في تقوية العلاقات الدولية والتقريب فيما بين الشعوب، وإشاعة روح الحوار والتعايش، وتثبيت دعائم السلم والسلام العالميين. وقد صارت الدول اليوم على درجة كبيرة من الوعي بأهمية هذا المكون في تدعيم وتقوية مواقفها السياسية والدبلوماسية، خاصة تلك التي تحمل موروثا ثقافيا وروحيا ودينيا كبيرا، حيث أصبحت تعمل بشكل ممنهج على استثماره وبلورته في تقوية علاقاتها ونسج تحالفات لخلق فضاء للتعاون؛ إقليميا ودوليا، والترويج لنموذجها الحضاري إلى جانب النماذج الحضارية الأخرى.

لقد شكل التصوف في سياق هذا البعد مرجعا روحيا وثقافيا هاما، فهو من أكثر المكونات الدينية رعاية وخدمة للأبعاد الروحية والوجدانية لأمتنا، وذلك لاختصاصه

[332]- من مجريات لقاء صحفي أجراه عبد الإله شبل من مداغ مع نجل شيخ الطريقة البودشيشية بتاريخ 29 نونبر 2017 مع الساعة الثانية زوالا.

بخدمة الجانب الإحساني من الدين الإسلامي المتمثل في تزكية النفس وتطهيرها والسمو بها إلى كمالات الأخلاق، وقد قدم طيلة تاريخه نماذج إنسانية وحضارية راقية، شكلت مرجعا قيميا وأخلاقيا وروحيا كبيرا، كان لها الأثر البالغ في إشاعة روح التعايش والتسامح فيما بين الأفراد والشعوب، سواء بين المسلمين على اختلاف مكوناتهم الثقافية والعرقية واللغوية...، أو فيما بينهم وبين غيرهم من المكونات الحضارية الأخرى.

وقد استطاع هؤلاء الأعلام بما حملوه من قيم أخلاقية سامية، أن يقدموا صورة مشرقة عن الإسلام في أرقى مستوياته، وقد كانت إسهاماتهم وما قاموا به من أدوار ريادية في تقوية الصلات بين الشعوب نموذجا حيا لما أسهم به التصوف في تفعيل الدبلوماسية الروحية.

إن الدبلوماسية الروحية التي يقدمها التصوف اليوم من شأنها أن تخلق دينامية واسعة داخل مجتمعاتنا الإنسانية في شتى أبعادها، فهي لا تقتصر في عملها على الجوانب الروحية والدينية، وإنما تشكل موجها عاما وشموليا يهم المعيش الإنساني في كل أبعاده؛ دينا وسياسة وأمنا واقتصادا وثقافة...إلخ، وقد كانت لهذه الأبعاد الآثار البالغة في توثيق الصلات فيما بين الشعوب والأمم، فكل واحد منها يشكل حلقة مستقلة من شأنها الدفع بقوة نحو تعزيز وتمتين هذه الصلات، بداية من الأبعاد الفنية والجمالية التي يتضمنها الخطاب الصوفي وما أضحت تضطلع به هي الأخرى من أدوار ضمن هذه الدبلوماسية؛ لما تفتحه من آفاق الحوار والتفاعل الإيجابي فيما بين الأفراد والثقافات والحضارات، إلى جانب الأبعاد المعرفية والثقافية والفكرية التي تشكل بدورها مكونا أصيلا في دعم وتعميق هذه الدبلوماسية، وما تفتحه من آفاق رائدة للتنمية؛ سواء من خلال ما يسهم به المنتسبون للزوايا من رجال الاقتصاد، أو من خلال الموجهات القيمية التي يقدمها التصوف والتي تدفع بقوة نحو ترسيخ الفكر الإنتاجي وترشيده وتخليقه، وما لذلك من آثار مباشرة على التنمية الاقتصادية ببعديها الإنساني والعمراني. هذا بالإضافة إلى ما تكرسه سائر الأبعاد الأخرى من قيم وأعراف وسلوكات شكلت إرثا مشتركا لكل الشعوب التي شملها هذا المكون الروحي الأصيل.

إن التصوف بما يحمله من موجهات سلوكية عميقة قد شكل فاعلا أساسيا في الرأسمال اللامادي للشعوب، وذلك لما يقدمه من إسهامات جليلة في البناء الروحي لهوية الإنسان، وما لذلك من آثار على كل أبعاده المعيشية، وهو كفيل اليوم في ظل ما تشهده مجتمعاتنا من متغيرات وتحديات، بأن يقدم سندا روحيا قويا من شأنه أن يحصنها من كثير من الآفات والاختلالات، بما فيها الفراغ الروحي المهول الذي أصبحت تعاني منه كثير من دول العالم، والدفع بقوة نحو تعزيز روح الحوار والتعايش والتعاون؛ امتثالا لأمر الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[333]، وتحقيق مقصد التعارف الوارد في قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[334]، ومن ثم تغيير الصورة النمطية التي أصبحت سائدة عن الإسلام في ظل تنامي ظاهرة العنف و الإرهاب، وتحصين الشباب من كل أشكال التطرف والتعصب وخطاب الكراهية، وبعث روح التسامح وسائر القيم الإسلامية النبيلة.

لقد كان للمغرب دور كبير ورائد في تفعيل الدبلوماسية الروحية في أرقى مستوياتها، وذلك في سياق ما عرفه من تميز وتفرد لهذا البعد الروحي وما شكله من عمق وتأصيل ضمن مكونات هويته، فالتصوف قد شكل مرجعا ثقافيا وروحيا وحضاريا هاما ضمن مقومات هذه الهوية؛ وهو ما أعطى للتجربة الدينية المغربية توازنها وخصوصيتها، لما تحمل من قيم روحية أصيلة شكلت صورة إيجابية للتدين المعتدل القائم على الوسطية والاعتدال والرحمة والمحبة، وما كان لها من آثار على الإشعاع الروحي لهذا البلد، خاصة مع ما عرفه من مدارس وشخصيات صوفية جليلة (ابن عربي، أبو الحسن الشاذلي...) كان لها الفضل الكبير في تقوية هذا الإشعاع. فالمغرب وهو أرض الأولياء. قد شكل مرجعا روحيا متميزا أسهم بقوة في توطيد العلاقات مع كثير من بلدان العالم، ويكفينا في هذا السياق ما عرفته المدارس والزوايا

---

[333]- سورة المائدة الآية 2.

[334]- سورة الحجرات الآية 13.

المغربية من امتدادات واسعة داخل إفريقيا وما خلفته تاريخيا وإلى الآن من روابط روحية وثقافية عميقة مع العديد من البلدان الإفريقية.

إن الدبلوماسية الروحية التي يقدمها المغرب في القطر الإفريقي تشكل حلقة وصل قوية فيما بين الشعوب الإفريقية، وهي من شأنها أن تقوم اليوم كما الأمس، بأدوار طلائعية ومحورية في إشاعة السلم والأمن داخل هذه القارة، وتسوية العديد من النزاعات والفتن بين كثير من بلدانها، وربط الصلة فيما بينها وبين المكونات الحضارية الأخرى في سياق ما تقدمه هذه الدبلوماسية من أبعاد للتفاعل الحضاري الدولي والعالمي. هذا بالإضافة إلى ما يمكن أن توفره من فكر تحصيني ضد التيارات المتطرفة التي أصبحت تهدد كيان كثير من هذه البلدان، خاصة تلك التي تقع في منطقة الساحل والصحراء، فالتصوف بما يحمله من أبعاد قيمية كفيل بأن يعزز الأمن الروحي للشعوب الإفريقية ويحارب كل أنواع التطرف الذي يشكل تهديدا على أمنها ويقف حاجزا أمام نهضتها.

إن مؤسسة الملتقى وإذ تطرح موضوع هذه الدورة فلأجل تسليط الضوء على الدور الكبير الذي تضطلع به الدبلوماسية الروحية في التقريب فيما بين الشعوب، وتفعيل ثقافة الحوار والتعايش، وترسيخ القيم الإسلامية النبيلة الداعية إلى التسامح والمحبة والسلام، وفتح المجال أمام الباحثين لسبر أغوار هذا المكون الروحي الأصيل، وبحث الآفاق التي يقدمها في خدمة الأمة ودعم علاقاتها مع سائر الأمم الأخرى على مختلف الأصعدة، وتدارس واستثمار النموذج المغربي وما حققه من مكاسب في هذا الباب، خاصة في القطر الإفريقي الذي أصبح يأخذ فيه المغرب موقعا متميزا بفضل هذا الإرث الروحي، وكذا بفضل الجهود الكبيرة التي يقوم بها صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله ومساعيه الحثيثة من أجل تقوية وتمتين أواصر البيت الإفريقي، خاصة في البعد الروحي الذي تشكل إمارة المؤمنين إحدى مكوناته، وما

يقدمه جلالته من مشاريع رائدة لأجل النهوض بهذه القارة والسير بها قدما في ركب النماء الاقتصادي والثقافي والحضاري[335].

محاور الملتقى:

1. التصوف والدبلوماسية الروحية: إطار نظري.
2. الدبلوماسية الروحية: أبعاد وتجليات.
3. الدبلوماسية الروحية في المغرب: واقع وآفاق.
4. الدبلوماسية الروحية والقضايا الوطنية.
5. الدبلوماسية الروحية وأبعادها الاجتماعية.
6. الدبلوماسية الروحية والأبعاد الثقافية والفكرية.
7. الدبلوماسية الروحية وأبعادها الاقتصادية والتنموية.
8. الدبلوماسية الروحية المغربية في العمق الإفريقي.
9. الدبلوماسية الروحية وتفعيل قيم المواطنة العالمية.
10. الدبلوماسية الروحية وتنمية الرأسمال اللامادي للشعوب.
11. الأبعاد الفنية والجمالية ودورها في تفعيل الدبلوماسية الروحية والتقارب الحضاري.
12. الدبلوماسية الروحية ودورها في الوقاية من آفتي الغلو والتطرف.
13. الدبلوماسية الروحية وترسيخ ثقافة الإسلام.
14. الدبلوماسية الروحية وبناء المشترك الإنساني.
15. الدبلوماسية الروحية ودورها في تفعيل الحوار بين الأديان.

من خلال ما سبق نخلص إلى نتائج أهمها:

أ- اضطلعت الزاوية القادرية بالدعوة إلى الله ونشر دينه في مختلف قارات العالم.

ب- الطريقة القادرية فرع عن السند الصوفي النبوي منذ نشأتها إلى اليوم.

---

[335]- هذه خلاصة جمعتها من مداخلة نجل الشيخ جمال الدين القادري الدكتور منير القدري وأحمد حسين لعمه الوكيل الأول لمشيخة الطرق الصوفية بدولة مصر وغيرهما من المشاركين.

جـ- شكلت الطريقة القادرية إلى جانب التيجانية إشعاعا في مختلف دول القارة السمراء حيث وصل عدد المريدين حسب الإحصائيات الأخيرة إلى 100 مليون مريد صوفي.

د- مثلت الطريقة القادرية قوة وازنة داخل أفريقيا إن على المستوى السياسي أو الثقافي أو الاجتماعي، مما جعل بعض الأحزاب السياسية تراهن على تأييد شيوخها ومريديها.

هـ- لا أحد يشك من الباحثين أن الزاوية القادرية كان لها أثر كبير في صد المستعمر وإخراجه وإضعافه وكمثال على ذلك الدور الجهادي الذي قام به الأمير عبد القادر الجزائري والشيخ ماء العينين وأحمد الهيبة.

و- رهان الزاوية البودشيشية على نشر الإشعاع الروحي والإنساني بين البلدان والقارات من أجل بناء حضارة معاصرة امنة متعاونة ومسالمة.

ر- الطريقة البودشيشية جسر للتواصل الحضاري غايته إبعاد كل ما التصق بالإسلام من اتهامات وهو منها براء مثل الإسلاموفوبيا.

ز- تعتبر الزاوية القادرية ضمن الزوايا التي أكدت العقيدة في قلوب شعوب إفريقيا وواجهت حملات التنصير ببعث علوم الإسلام الحقة.

س- إنشاء العديد من المراكز العلمية والمساجد والزوايا على امتداد خطوط التجارة التي كانت تصل حواضر شمال إفريقيا ببلدان الصحراء وجنوبها، الشيء الذي ساهم في تخرج كثير من العلماء والمصلحين والمتصوفة العاملين.

ص- لابد من تكثيف الحضور الديني والعلمي وتسيير سبل التفاعل الحضاري لدعم إعادة بناء الهوية الدينية الثقافية لهذه المجتمعات وهو ما جسده تاريخها المشترك مع المغرب، ذلك أن وحدة المغرب الترابية جزء لا يتجزأ من وحدته العقدية والمذهبية والسلوكية التي نجد امتدادها الطبيعي والحيوي والمصيري عبر جذوره الإفريقية العميقة في الزمان والممتدة في الذاكرة والوجدان.

ظ- التصوف السني حركة دعوية هادئة تستخدم خطابا رساليا وسطيا بعيدا عن الأسلوب العنيف والخطاب المغالي.

ك- يملك التيار الصوفي القدرة على إعادة التوازن إلى التدين بإيلاء البعد الروحي المنزلة التي يستحق عبر التذكير بقيم الرحمة والتقوى والورع والتواضع والإحسان...

ش- ما كان المال يوما لينشر دعوة أو يبني فكرة أو يقيم سلطانا، ولئن قدر للمال أن يقيم دعوة أو ينشر فكرة في يوم من الأيام فلن تستطيع هذه الدعوة أن تصمد أمام الحوادث أو تقوى على مجابهة الخطوب، لذلك فقد ركز الصوفية على بناء الإنسان المؤمن عن طريق التربية الروحية ليضطلع بمهة الإصلاح في الإرض.

ض- أينما تذهب في أي قطر من الأقطار الإسلامية تجد من بين أبطاله الذين خلد التاريخ سيرهم العطرة سير الأولياء والصالحين من كبار الصوفية، هذه الحقيقة التي أكدها كثير من الدارسين "فريمان نموذجا" تتمثل صورتها أكثر ما تتمثل، وتتبلور معانيها في الدور الإصلاحي العظيم الذي لعبه التصوف في غرب إفريقيا على الخصوص[336].

ظ- تميز التصوف في الغرب الإسلامي عن التصوف المشرقي في أبعاده الإصلاحية، حيث اتسمت الطرق الصوفية فيه بالايجابية والقدرة على التغلغل والسعي الدائب لتولي أمر المسلمين وإصلاحهم.

---

[336]- عمر احمد سعيد، دور حركات التجديد الإسلامي في غرب إفريقيا، عن مجلة دراسات إفريقية العدد 6 رجب 1410/ فبراير 1990.

اعتمدت هذا المؤلف للاستئناس وتزكية هذه النقطة.

الباب الثالث:

التأصيل العلمي لعلم التصوف وأقوال العلماء عبر التاريخ
من خلال كتاب مؤسسة الزاوية بالمغرب
بين الأصالة والمعاصرة ذ. جمال الدين القادري.

المبحث الأول: رؤية ابن خلدون لعلم التصوف.

تتنوع المقاربات في الفكر الإسلامي للتصوف، فمن مقاربة شرعية نصية إلى مقاربة تاريخية اجتماعية إلى مقاربة أصولية مقاصدية إلى مقاربة لغوية أدبية إلى غير ذلك من المقاربات.

وحينما بدأ الدكتور جمال الدين بالمقاربة التاريخية الاجتماعية في شخص رائدها ابن خلدون (808هـ) والمقاربة الأصولية المقاصدية في شخص علمها أبي اسحاق الشاطبي (590هـ)، نفهم من خلال ذكرهما أنه يريد أن يبرز لنا العصر أو البعد الزماني، وأنه يكتسي أهمية عظمى خاصة إذا علمنا أن ابن خلدون والشاطبي ظهرا بعد القرن السادس للهجرة وهو القرن الذي عرف فيه التصوف نقلة نوعية بحيث وضعت أسسه القوية وقواعده العرفانية، والذي يعتبره المؤرخون قرن التصوف بامتياز ويمكن الرجوع في هذا الجانب إلى:

1. كتاب "المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد" لمحمد بن عبد الكريم التميمي (603هـ).
2. كتاب "التشوف إلى رجال التصوف" بن الزياد التادلي (627هـ).
3. كتاب "دعامة اليقين في زعامة المتقين" أحمد العزفي (716هـ).
4. كتاب "أنس الفقير وعز الحقير" ابن قنفذ القسنطيني (740هـ).
5. كتاب "الذخيرة السنية" لابن أبي زرع الفاسي (726هـ).

هذه المراجع التاريخية وغيرها تؤكد لنا ما سبق أن أشرت إليه من أننا أمام ظاهرة تصوف المجتمع، وبل وتصوف أعلى الهرم في السلطة (الدولة المرينية أنموذجا).

هكذا عاش أبو زيد عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون الحضرمي (808هـ) في عصر أصبح فيه التصوف ظاهرة مجتمعية بل ثقافة وفكرا مجتمعيين يشكلان لحمة تصل بين الفئات المجتمعية وبين إمارة المؤمنين.

وكان الصوفي في هذه الحقبة – وما بعدها– فاعلا اجتماعيا ومواطنا إيجابيا، يحب الخير للبلاد والعباد ويساهم في البناء من موقعه ومن زاوية رؤيته، ويمكن

الاستدلال على هذا أن علماء فاس أوفدوا الشيخ الصالح أبا محمد الفشتالي للتشفع عند أبي يحيى المريني بعدما ثار السكان على عامله، فاستجاب الأمير لوساطته.

ولكن يحق لنا أن نتساءل هل انعكس هذا الواقع على فكر ابن خلدون فجاءت مقاربته للتصوف مقاربة اجتماعية وليست فقهية أصولية فقط؟؟

من خلال تتبعي لأبواب ومباحث كتاب ذ. جمال الدين لاحظت قيامه بجمع كثير من المواقف والرؤى العلمية التي يتبناها كثير من العلماء عبر التاريخ والتي تدخل التصوف ورجاله ضمن أهل السنة والجماعة، وتعتبر طريقهم مؤصلة بنهج السلف رضوان الله عليهم.

لقد بدأ شيخ الطريقة بالعالم الاجتماعي والمؤرخ الإسلامي عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن خلدون (808هـ) هذا العالم الذي أنصف أقطاب التصوف ورجالاته لتمكنه العلمي وكفاءته المعرفية من خلال مقدمته ومؤلفه "شفاء السائل لتهذيب المسائل" فمؤلفه الأول ضمنه إشارات قليلة تحيل إلى مذهبهم وطرقهم العرفانية اعتبرها الدكتور جمال الدين لا تفي بالغرض ولا تتماشى وحجم علم التصوف، لكن في مؤلفه الثاني فصل كثيرا وأسهب في ذكر الفرق الصوفية المتعددة وذكر مناهجهم في بلوغ الحقيقة والمعرفة التي يدعون إليها.

لقد اعتنى ابن خلدون بدراسة التصوف كظاهرة عمرانية يحدث التفاعل بينها والجماعة التي تولد فيها هذه الظاهرة وتنمو، وهو بهذا يزيل اللبس والخلط الذي وقع فيه كثير من الناس إذ لم يفرقوا بين التصوف المشرقي ونظيره في الغرب الإسلامي، فالفرق بينهما ظاهر لمن أمعن النظر واعتمد الموضوعية في الوصف والتحليل.

لقد سجل ابن خلدون على رجال الطريقة الصوفية تنوعا واختلافا في تحديد مفهوم التصوف، لكنه رد ذلك إلى عاملين رئيسيين:

الأول: لم يقصد المتصوفة بهذه التعريفات حد التصوف حدا علميا وإنما قصدوا التعبير عن مواجدهم وأحوالهم ومقاماتهم المتدرجة صعودا في لحظة بعينها، فكل واحد منهم عبر بما وجد، ونطق حسب حاله ومقامه.

الثاني: أن مصطلح التصوف اكتسب مع مرور الزمن تصورات جديدة ومفاهيم وإشارات ابعدته عن المتصور الذي فيه نشأ.

وعلى ضوء العاملين يعتبر الدكتور جمال الدين أن ابن خلدون من العلماء الذين أصلوا للتصوف ووضعوا هذا العلم في موضعه الصحيح موردا قولا له في المقدمة: "وهذا العلم –يعني التصوف– من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم –في طريق الحق والهداية– وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزنيتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم المتصوفة[337].

لقد فهم بعض الدارسين من كلام صاحب المقدمة الذي يصف التصوف أنه من العلوم الشرعية الحادثة، قسوته على الصوفية وإنكاره لعلم التصوف، لكن الدكتور جمال الدين يبرز سوء الفهم هذا فيؤكد على أن مقصود ابن خلدون من لفظ الحدوث: حدوث الاصطلاحات والتدوين بوضع القواعد لهذا العلم شأنه في ذلك شأن سائر العلوم التي دونت في القرن الثاني الهجري كعلم أصول الفقه على يد الشافعي في الرسالة وعلم الفقه في كتابه الأم...

وحينما رجعت إلى كتاب صاحب المقدمة "شفاء السائل" وجدت كلاما لابن خلدون يؤكد ما أبرزه شيخ الطريقة د. جمال الدين هذا نصه: "ثم اختلف الناس وتباينت المراتب وفشا الميل عن الجادة والخروج عن الاستقامة، ونسي الناس أعمال القلوب وأغفلوها، وأقبل الجمع الغفير على صلاح الأعمال البدنية والعناية بالمراسم الدينية، من غير التفات إلى الباطن ولا اهتمام بصلاحه، وشغل الفقهاء بما تعم به البلوى من أحكام المعاملات والعبادات الظاهرة حسبما طالبهم بها منصب الفتوى وهداية الجمهور،

---

[337]- مقدمة ابن خلدون، الفصل الثامن عشر، في علم التصرف، المجلد الثاني، ص 225، تحقيق عبد الله محمد الدروشي، الطبعة الأولى 1425هـ/2004م مكتبة الهداية دمشق سورية.

فاختص أرباب القلوب باسم الزهاد والعباد وطلاب الآخرة المنقطعين إلى الله... فانفرد خواص أهل السنة المحافظين على أعمال القلوب، المقتدون بالسلف الصالح في أعمالهم الباطنة والظاهرة وسموا بالصوفية"[338].

ومن سمات الموضوعية العلمية التي وصف بها الدكتور جمال الدين القادري أنه يذكر الرؤية الخلدونية كاملة وشاملة، فإضافة إلى مناصرته للتصوف السني، فابن خلدون له مؤاخذات على بعض ممارسات الصوفية المتأخرين خاصة ممن ظهروا في عصره، لكنها لا ترقى أن تكون موقفا يتمسك به المغرضون وقطاع الطريق إلى الله، فابن خلدون على علم بهؤلاء من الفقهاء وأهل الفتيا الذين عرفوا بالتنكير على كل شيء يختص بطريقة القوم فيذكر في المقدمة أن كلامهم ليس على عمومه بل فيه تفصيل ويحتاج إلى تدقيق علمي رصين.

ويعتبر الدكتور محمد التومي إدخال ابن خلدون المتصوفة إلى منهج أهل السنة والجماعة يوافق ما ذهب إليه القشيري في رسالته حيث يقول: (فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، المحافظون على قلوبهم من طوارق العفلة، باسم التصوف واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة)[339].

إذا ظهر موقف ابن خلدون الإيجابي لعلم التصوف والممارسة الصوفية، فهل للتصوف حد عند ابن خلدون؟ وما هي معايير المشيخة والكرامات في تصوره؟

من خلال الرجوع إلى مؤلفيه، يبدو ابن خلدون في كثير من الأحيان متصوفا لا واصفا لظاهرة ما، ولكن تصوفه هو تصوف سني ينبني على الزهد والتوكل على الله عز وجل، لأنه تصدى لكل مظاهر الغلو الفكري الفلسفي التي التصقت بالممارسة الصوفية السنية.

ويمكن إجمال المحاور الصوفية التي عالجها ابن خلدون في:

---

[338]- شفاء السائل، لابن خلدون (808هـ) ص 45 تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1417هـ/1996م.

[339]- شفاء السائل، ص 50 بتصرف وأنظر مقدمة الرسالة للقشري، ص 2.

1. **المجاهدة:** ويقسمها ابن خلدون إلى ثلاثة أنواع متفاوتة بعضها متقدم على بعض:

أ. مجاهدة التقوى: وهي الوقوف عند حدود الله.

ب. مجاهدة الاستقامة: وهي تقويم النفس وحملها على التوسط في جميع أخلاقها.

د. مجاهدة الكشف والإطلاع.

وحدد لهذه المجاهدة خمسة شروط:

الأول: حصول التقوى.

الثاني: حصول الاستقامة.

الثالث: الاقتداء بشيخ سالك قد خبر المجاهدات وقطع بها الطريق وارتفع له الحجاب وحصل له الكشف.

الرابع: قطع العلائق كلها على النفس بالزهد في كل شيء.

الخامس: صدق الإرادة: وهي أن يستولي حب الله على قلب المريد.

وأشار في الوقت نفسه أن الحقيقة التي يجاهد المريد من أجل بلوغها لا تحدث لكل الناس لأنهم فاقدون للآداب التي بواسطتها يبلغون إلى المراد، إذ أن هذه الأدوات من طبيعة وجدانية قلبية في رأي ابن خلدون، ولذلك تكون مدارك من لم يشارك المتصوفة في طريقهم قاصرة عن فهم أذواقهم ومواجدهم، لذلك كان أهل الفتيا مشككين في أوضاع هؤلاء، لأن البرهان والدليل لا ينفعان في سلوك هذا الطريق، لأنها أمور من قبيل الوجدانيات أساسا.

وهو بهذا جاء كلامه في هذا المحور منتصرا للصوفية معتبرا ما يجده الصوفية من مواجد لا مدفع فيه لأحد، وأذواقهم فيه صحيحة، والتحقق بها هو عين السعادة[340].

وعموما –وباقتضاب– فإن أي حديث في مجال المعرفة الإلهامية والكشفية لا يمكن أن يفي بالحاجة والغرض وهو أشبه بالثرثرة واللغو الذي لا طائل من ورائه، فالتجربة الصوفية تجربة يعيشها المريد ويحياها بمشاعره القلبية وجوانحه الوجدانية دون

[340]- المقدمة، المجلد الثاني ص 242.

أن يكون باستطاعة أهل العلم الكسبي والتعليمي أن يحيط بها, لذا نبه بن خلدون على عجز اللغة العادية عن الاضطلاع بهذا الأمر الجلل، لأن في مجال "الكلام وإعطاء حقائق العلويات وتركيب صدور الكائنات، فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما أنه وجداني وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه. واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه، لأنها لم توضع إلا للمتعارف وأكثره من المحسوسات، فينبغي أن لا تتعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من المتشابه"[341].

2- رؤية بن خلدون للكرامات: يبدو أن الدكتور جمال الدين لم يخصص حيزا كبيرا في رسالته لموضوع الكرامات في نظر صاحب المقدمة، ويرجع هذا الأمر أن ابن خلدون مر عليها مرور الكرام واختصر الكلام كثيرا، لكن رغم ذلك أبرز شيخ الطريقة موقفه المساند للصوفية والمعارض لمن أنكر الكرامة مخافة خلطها بالمعجزة.

لقد تعرض ابن خلدون لكرامات الأولياء من خلال النوع الثالث للمجاهدة وهو الكشف والإطلاع، حيث يعتبر أن الكلام في هذا الموضوع –الكرامات– أمر صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها ليس ذلك من الحق، ويؤيد موقفه هذا بحدوث الكرامات لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي بكر وعمر في قصة سارية الجبل، لكن الصحابة الكرماء كانت تعرض لهم من الكرامات لكنهم لا يهتمون بها كثيرا، وربما أخفاها الصحابة عن إخوانه بدافع الإخلاص، ويبني ابن خلدون على ما سبق موقفا اعتبر فيه أن سلف المتصوفة لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب – أو غيره– ولا هذا النوع من الإدراك، إنما همهم الإتباع والاقتداء ما استطاعوا، ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به، بل يفرون منه، ويرون أنه من العوائق والمحن... ويأمرون أصحابهم بالإتباع والاقتداء، وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله أعلم بحقيقة الحال[342].

---

[341]- المقدمة، ص 171.

[342]- المقدمة 2، ص 243.

3. **كلامه في الواردات:** التي تعرض للمريد والشيخ معا يترتب عن ذلك النطق بكلام قد يكون لغزا وغير مفهوم، حيث يوضح الدكتور جمال الدين موقف ابن خلدون الإيجابي لأنه يعتبر أن اللغة عاجزة عن التعبير عن الوجدانيات والأحوال يقول في المقدمة: (العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها وتأدية الحق فيها وبها)[343]، ويشبه موقف ابن خلدون موقف ابن تيمية في أمر الوارد يعرض للصوفية، أنهم يعذرون لما يصيبهم إذا غالبهم هذا الوارد دون رياء أو تصنع.

لكن هنا الإعذار ليس على إطلاقة كما ذكر شيخ الطريقة، وإنما يتعلق الأمر بمن عرف فضلهم وقدوتهم سدا للذريعة حتى لا يدخل إلى هذا المجال من ليس أهله ولا يعرف أصله ولا فصله.

خلص الدكتور جمال الدين من هذا المبحث بنتائج عدة أهمها:

- وضوح موقف ابن خلدون من التصوف وأعلامه.
- وسمهم بأعلام الأمة وسلف المتصوفة.
- اعتبر الممارسة الصوفية تصوفا حقا.
- علم التصوف صنف ضمن أصناف العلوم الشرعية.

ومن المعلوم أن ابن خلدون تعرض للتصوف في كتابه المقدمة الذي كان تأسيسا لعلم الاجتماع وعلم العمران البشري، إلا أن تخصيصه لكتاب التصوف الذي هو "شفاء السائل لتهذيب المسائل" جاء كذلك بدافع اجتماعي، هذا الدفاع هو النقاش الذي عرفه المجتمع الأندلسي أولا لينتقل بفضل الشاطبي (730هـ) ويحرك الساحة العلمية بالمغرب، إذ تذكر المصادر التاريخية أن الإمام الشاطبي راسل شخصيتين علميتين بفاس يتساءل عن قضية ضرورة النموذج الروحي، أي الشيخ الصوفي الحي لسلوك الطريق الصوفي وقد كتب كتابين لهذا الغرض:

- الكتاب الأول: أرسله إلى أبي عبد الله محمد بن إبراهيم ابن عباد الرندي (792هـ).

[343]- المقدمة، علم التصوف، المجلد الثاني، ص 240.

- الكتاب الثاني: توجه به إلى أبي العباس أحمد بن القاسم عبد الرحمان الفاسي الشهير بابن القباب (778هـ).

وقد أجاب ابن عباد الشاطبي برسالتين: الأولى مطولة نقلها الونشريسي صاحب المعيار في الجزء الثاني عشر، أما الثانية فمختصرة وهي الرسالة السادسة عشرة ضمن رسائل ابن عباد.

ونقل الونشريسي في الجزء الحادي عشر جواب ابن القباب، وقد ذكر بن خلدون أن هذه المسألة شارك فيها علماء آخرون.

وقد أشار ابن خلدون في مقدمة شفاء السائل إلى كتاب الشاطبي دون ان يذكر اسمه حيث يقول (أما بعد فقد أوقفني بعض الإخوان أبقاهم الله على تقييد وصل من عدوة الأندلس وطن الرباط والجهاد، ومأوى الصالحين والزهاد، والفقهاء والعباد يخاطب بعض الإعلام من أهل فاس، طالبا كشف الغطاء في طريق الصوفية، أهل التحقق في التوحيد الذوقي والمعرفة الوجدانية، هل يصح سلوكه والوصول به إلى المعرفة الذوقية ورفع الحجاب عن العالم الروحاني تعلما من الكتب الموضوعة لأهله واقتداء بأقوالهم الشارحة لكيفيته... أم لابد من شيخ يتبين دلائله، ويحذر غوائله، ويميز للمريد عند اشتباه الواردات والأحوال مسائله، فيتنزل منزلة الطبيب للمرضى)[344].

وحدد ابن خلدون موضوع هذا الكتاب بقوله: ونقل مناظرة مريدين جرت في ذلك ردا وقبولا وحشرت معقولا ومنقولا ما بين مسوغ لهذا السلوك من غير شيخ يقتدي المريد به، ولا إمام يأتم بأدبه، وبين مشترط شيخا يروض السالك ويحذره ما شاهد في طريقه إلى الله من المهالك[345].

ومما يدل على خطورة المسألة وأنها أخذت بعدا كبيرا، ولم تكن فقط مسألة نقاش بين أفراد قول ابن خلدون: فطال في تلك المناظرة الجدال، وجلب الاحتجاج العلماء والأبدال وذهبت النصفة بينهم والإعتدال والحق وإن فقدوه فقريب مما اعتقدوه[346].

---

[344]- شفاء السائل، ص 35.

[345]- نفس المرجع، ص 35.

[346]- نفس المرجع، ص 35.

وليس مرادنا من هذا البسط العلمي الوقوف مع شفاء السائل وآراء ابن خلدون الصوفية، فقد بينها الدكتور جمال الدين فجمع وأوفى وفصل فأوعى، وإنما نريد أن نتوقف مع بعض خصوصيات النظرة الخلدونية للتصوف والتي وإن غلب عليها البعد التاريخي والوصفي، فإنها كانت تسعى إلى ربط مقاصد التصوف بمقاصد العمران، وحددت موقع التصوف في المجتمع وأثر التغييرات الاجتماعية على موقع التصوف ودوره المجتمعي. وعليه وظف ابن خلدون مقاصد الشريعة في مقاربة التصوف ولكن في ارتباط مع مقاصد العمران، فمقاصد الشريعة عند ابن خلدون هي لتحقيق مقاصد العمران المادي والروحي، وليس المادي فقط إذ أن ابن خلدون بين بعبارة صريحة بأن رعاية المقاصد الشرعية المتفق عليها لا تعنى بحفظ المصالح المتعينة للأفراد فقط بقدر ما هي معنية بحفظ العمران البشري, فبناء الإنسان آكد من بناء العمران.

كما أنه يرى أن دور ممارسة السياسة الشرعية هو حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة.

من هنا كان حضور التصوف كفاعل مجتمعي كفيل بتسهيل الأمر لتفعيل هذه السياسة الشرعية وهو ما تفطن له بنومرين فجعلوا من التصوف مؤطرا اجتماعيا يساهم في تخليق المجتمع وفي تحقيق مصالح الآخرة.

فمقاصد العمران الروحي لا تتحقق إلا بتحقق مقاصد الآخرة التي هي أهم مقاصد التصوف، وقد حرر ابن خلدون فقرة هامة فيما يتعلق بهذا الترابط جاء فيها: "واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية للآخرة، ومن فقد المطية فقد الوصول، وليس مراده –أي الشارع– فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله، وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية، إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة، حتى تصير المقاصد كلها حقا وتتحد الوجهة"[347].

[347]- نفس المرجع، ص 40.

إن هذا الربط بين الأوامر والنواهي الشرعية ومقاصد وجود الإنسان في الدنيا وربطها بمقاصد الآخرة وكون الشارع يستهدف أن تصير المقاصد كلها حقا، وتتحد الوجهة هو تأسيس للرؤية الصوفية المعتدلة المتوازنة التي يعرضها ابن خلدون في شفاء السائل.

والحقيقة التي لا مفر منها أن ابن خلدون انطلق في شفاء السائل من منطلق تاريخي فوصف مجتمع الصحابة بأنه مجتمع الاهتمام بأعمال الباطن وهذا هو مجال الإشتغال الصوفي يقول: ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم لما شرح الله صدورهم للإسلام، وقبلوا من الهداية ما كانوا فيه على بينة من ربهم صرفوا الاهتمام إلى أعمال الباطن أكثر من أعمال الظاهر[348].

وهنا يربط ابن خلدون عصر الصحابة بمفهوم التصوف ثم ينتقل إلى عصر التابعين ليؤكد نفس الرؤية المجتمعية ثم تابعي التابعين، لكنه يقرر أن التغييرات الاجتماعية سرعان ما ستفعل فعلها في الأمة مما سيجعلها تتغير من مجتمع يهتم بفقه القلوب إلى مجتمع يعتني بالمراسم الدينية مع إغفال أعمال القلوب وهو ما يشير إليه بقوله: (ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، وفشا الميل عن الجادة والخروج عن الاستقامة، ونسي الناس أعمال القلوب وأغفلوها وأقبل الجم الغفير على صلاح الأعمال البدنية والعناية بالمراسم الدينية من غير التفات إلى الباطن واهتمام بصلاحه)[349].

إن هذا التغيير الجذري في المجتمع يعتبره ابن خلدون مبررا وسببا لنشوء التصوف لذلك فهو يقول، فانفرد خواص السنة المحافظون على أعمال القلوب المقتدون بالسلف الصالح في أعمالهم الباطنة والظاهرة بالصوفية لا شك أننا سنجد تقاطعات في الرؤى بين فكر ابن خلدون والشاطبي في النظر إلى مسألة التصوف، فكيف بسط الدكتور جمال الدين فكر الإمام الشاطبي ورؤيته للتصوف؟؟

وقبل الإجابة على هذه الإشكالية تبادر إلي سؤال قد يبدو للبعض طبيعيا وهو لماذا بدأ شيخ طريقتنا بابن خلدون؟ ولعل السر في هذا التقديم يكمن في معرفة الشيخ

---

[348]- نفس المرجع، ص 40.

[349]- نفس المرجع، ص 42.

المتعمقة للتجربة الصوفية وعلمه أنه لا توجد شخصية درست التصوف دراسة علمية كصاحب المقدمة، ومما يؤكد هذا الأمر ما ذهب إليه المفكر محمد اقبال في كتابه "تجديد الفكر الديني" حيث يعتبر ابن خلدون الدارس الوحيد من بين المسلمين جميعا الذي انفرد بالبحث في التصوف بطريقة علمية خالصة[350].

المبحث الثاني: أبو اسحاق الشاطبي وآراؤه في التصوف.

تميز الفقيه الأصولي أبو اسحاق الشاطبي (790هـ) بمنزلة عالية رفيعة بين علماء الأمة حيث ارتقى مرتبة العلماء المجتهدين المجددين وأثرى المكتبة الإسلامية حتى صار فكره سندا ومرجعا للأمة فقها وأصولا وتفسيرا وحديثا...

وصف العلماء الإمام الشاطبي فقالوا في حقه "الإمام العلامة المحقق القدوة الحافظ الجليل المجتهد، كان أصوليا مفسرا فقيها محدثا لغويا بيانيا ثبتا ورعا صالحا زاهدا، سنيا إماما مطلقا، بحاثا مدققا بارعا في العلوم من أفراد العلماء المحققين الأثبات وأكابر الأئمة المتقنين الثقات... ويعتبر الشاطبي تسمية المتصوفة بهذا الاسم أمرا تفترضه الراهنية سيرا على أن كل جيل من المسلمين تسموا بأحسن اسم، يقول (إن المسلمين بعد رسول صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم باسم علم سوى الصحبة، إذ لا فضيلة فوقها، تم سمي من يليهم بالتابعين ورأوا هذا الاسم أشرف الأسماء، ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن له شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد)[351].

ووصفه علماء التراجم بالإمامة فقالوا: له القدم الراسخ والإمامة العظمى في الفنون فقها وأصولا وتفسيرا وحديثا ولغة وبيانا وأدبا...[352].

---

[350]- تجديد الفكر الديني، ص 50، ترجمة محمد يوسف عدس تقديم الشيماء الدمرداش العقالي، دار الكتاب المصري القاهرة.

[351]- المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 148.

[352]- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي (963هـ)، ص 48، منشورات دار الكاتب طرابلس، الطبعة الثانية 2000م.

يمهد الدكتور جمال الدين للشاطبي في مؤلفه بذكر مراسلاته لعلماء عصره في القرن الثامن الهجري ليطرح أمامهم مسألة اتخاذ الشيخ في السير إلى الله وقد أشرت إلى ذلك في المبحث المخصص لابن خلدون.

ثم ينتقل الدكتور إلى ذكر كتابه "الاعتصام" وكيف قام فيه الإمام الشاطبي لمحاربة البدع خير قيام وقمع فيه المبتدعين الذين يدعون التصوف فخلطوا الأمور خلطا وقد تحدث هو نفسه في كتابه فقال: لم أزل اتتبع البدع التي نبه عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذر منها، وبين أنها ضلالة وخروج عن الجادة، وأشار العلماء إلى تمييزها والتعريف بجملة منها، لعلي اجتنبها فيما استطعت، وأبحث عن السنن التي تطفئ بنورها تلك المحدثات، لعلي أجلو بالعمل سناها، وأعد يوم القيامة فيمن أحياها[353].

وقد اعتمد الإمام الشاطبي في كتابه الاعتصام على أكثر من أربعين شيخا من الصوفية الكرام في إقامة السنة ودحض البدعة إلى أن قال: "الوجه الرابع من النقل، ما جاء في ذم البدع وأهلها عن الصوفية المشهورين عند الناس، وإنما خصصنا هذا الموضع بالذكر وإن كان فيما تقدم من النقل كفاية، لأن كثيرا من الجهال يعتقدون أنهم متساهلون في الإتباع وأن اختراع العبادات والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون ويعملون عليه، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به، فأول شيء بنوا عليه طريقهم: إتباع السنة واجتناب ما خالفها، حتى زعم مذكرهم وحافظ مأخذهم، وعمود نحلتهم أبو القاسم القشيري أنهم إنما اختصوا باسم التصوف انفرادا عن أهل البدع[354].

بل نجد الإمام الشاطبي يثني على أهل التصوف ويصفهم بأحمد الصفات إذ يقول (الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة مجمعون على تعظيم الشريعة، مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها، ولذلك لا نجد منهم من ينسب إلى فرقة من الفرق الضالة، ولا من يميل إلى خلاف السنة. وأكثر

---

[353]- الاعتصام، للشاطبي المجلد الأول، ص 24 مكتبة التوحيد الطبعة الثانية 2007.

[354]- المصدر نفسه، المجلد الأول،147-148.

من ذكر منهم علماء وفقهاء ومحدثون وممن يؤخذ عنهم الدين أصولا وفروعا، ومن لم يكن كذلك فلابد له أن يكون فقيها في دينه بمقدار كفايته)[355].

لقد وصف الشاطبي في الاعتصام أهل التصوف بأنهم أهل الحقائق والمواجد والأذواق والأحوال والأسرار التوحيدية، فهم الحجة لنا على كل من ينتسب إلى طريقهم ولا يجري على مناهجهم، ولذا أخذ من كلامهم بما يقوم عنده دليلا على مدح السنة وذم البدعة في طريقتهم..

ونمثل لمسلكه هذا بجملة أقوال ينسبها لأصحابها.

(من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم في أوامره وأفعاله وأخلاقه) أبو العباس بن عطاء، ص 162.

(ليس العلم بكثرة الرواية إنما العالم من اتبع العلم واستعمله، واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم) ص 161.

(الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة) إبراهيم الخواص، ص 163.

(ما ظهرت حالة عالية إلا من ملازمة أمر صحيح) أبو حفص الحداد، ص 159.

(من عمل عملا بلا إتباع سنة، فباطل عمله) أحمد بن أبي الحواري، ص 158.

(الصحبة مع الله تعالى بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول صلى الله عليه و سلم بإتباع سنته ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والخدمة) أبو عثمان الحيري، ص 160.

وقال (من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا، نطق بالحكمة، ومن أمر الهدى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة قال الله تعالى {وإن تطيعوه تهتدوا}) ص 161.

توضيح الشاطبي الغاية من ذكر مباحث التصوف.

قال (ولما كان اهل التصوف في طريقهم بالنسبة إلى إجماعهم على أمر كسائر أهل العلوم في علومهم، أثبت من كلامهم بما يقوم منه دليل على مدح السنة وذم

---

[355]- المصدر نفسه، 1/165-166.

البدعة في طريقتهم حتى يكون دليلا لنا من جهتهم على أهل البدع عموما، وعلى المدعين في طريقهم خصوصا وبالله التوفيق) الاعتصام ج 1، ص 166.

كما ينبه على آفة سقط فيما المتأخرون، فكثير منهم ممن يتشبه بهم – المتصوفة– فيرتكب من الأعمال ما أجمع الناس على فساده شرعا، ويحتج بحكايات هي قضايا أحوال، إن صحت، لم يكن فيها حجة لوجوه عدة، ويترك من كلامهم وأحوالهم ما هو أوضح في الحق الصريح، والإتباع الصحيح، شأن من اتبع من الأدلة الشرعية ما تشابه منها) الاعتصام ج 1، ص 166.

والعلامة أبو منير حينما يحاور علما من الأعلام، ويتناول كتبه ومؤلفاته، فهو يركز على ما يخدم الطريقة القادرية المباركة فيسلط الضوء على أمور تنفع السائر إلى الله كمشروعية مجالس الذكر، والأوراد والأحوال والمشاهدات والكرامات والمشيخة وشروطها... فما موقف الشاطبي من كل هذا؟

1. أما عن مسألة الاجتماع على الذكر فقد بين معنى مجالس الذكر قال : فهذه مجالس الذكر على الحقيقة وهي التي حرمها الله أهل البدع من هؤلاء الفقراء الذين زعموا أنهم سلكوا طريق التصوف، وقلما تجد منهم من يحسن قراءة الفاتحة في الصلاة إلا على اللحن فضلا عن غيرها[356].

وهنا يؤيد الدكتور كلام الشاطبي عن المنتسبين إلى الطريقة زورا وبهتانا وهم يفتقدون أول صفات سلوك طريق التصوف ألا وهي العلم بالضروري من أمر الدين.

2. أما قضية الحال أو الوارد الذي يعرض للمريد والشيخ أحيانا، فإن موقف الشاطبي كموقف ابن خلدون منه، فمعظم الأحوال الواردة والطارئة على الصوفي لا ينكر عليها إذا كانت خارجة عن طاقته، وقد ساق جملة من أحوال التابعين لإثبات مشروعية هذه القضية.

لكن في المقابل شدد الشاطبي القول على أدعياء التصوف، المتكلفين في بعض الممارسات باسم التصوف، المتصنعين للأحوال والأقوال والشطحات، المتبعين لرجل من حيث هم رجال، لا من حيث هم راجعون بالحاكم الحق، وهم –بلا شك– على

[356]- المصدر نفسه 195/1.

خلاف بما عليه السلف الصالح وما عليه المتصوفة الصادقون أيضا، إذ قال إمامهم سهل بن عبد الله التستري (283هـ): مذهبنا مبني على ثلاثة أصول: الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال، ولم يثبت في طريقهم إتباع الرجال على انحراف وحاشاهم من ذلك[357].

وهذا الوارد الذي كثر الكلام فيه من القاصي والداني، وتحصل فيه المواخذات والجدالات التي لا تستند إلى دليل ولا تحتكم إلى نص، لا يرده الإمام الشاطبي على إطلاقه، وإنما تعامل معه في الاعتصام وانطلاقا من واقعه المجتمعي على أنه بعيد عن حقيقة التصوف، وإن كان قد قال بمشروعيته في عهد الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

تجدر الإشارة إلى أن الإمام الشاطبي كان في نيته أن يخصص كتابا لعلم التصوف وتحصينه من أهل البدع والأهواء بدل هذه الإشارات الطفيفة في الاعتصام على رأي الدكتور أبي منير البودشيشي، يقول صاحب الاعتصام: (وفي غرضي إن فسح الله في المدة، وأعانني بفضله ويسر لي الأسباب، أن ألخص في طريقة القوم أنموذجا يستدل به على صحتها وجريانها على الطريقة المثلى، وأنه إنما داخلتها المفاسد وتطرقت إليها البدع من جهة قوم تأخرت أزمانهم على عهد ذلك السلف الصالح، وادعوا الدخول فيها من غير سلوك شرعي، ولا فهم لمقاصد أهلها، وتقولوا عليهم ما لم يقولوا به، حتى صارت في هذا الزمان الأخير كأنها شريعة أخرى غير ما أتي بها محمد صلى الله عليه وسلم... وطريقة القوم بريئة من هذا الخباط بحمد الله[358].

وجاء في آخر الجزء الأول من كتابه الاعتصام أيضا ما يؤكد عزمه الصادق على تأليف مؤلف يعالج فيه التصوف ويرد ما أدخل فيه مما ليس منه فقال: "وإن فسح الله في المدة، وأعان بفضله، بسطنا الكلام في هذا الباب في كتاب مذهب أهل التصوف، وبيان ما أدخل فيه مما ليس بطريق لهم[359].

---

[357]- المصدر نفسه 508/2، مؤسسة الزاوية بالمغرب، المجلد الأول، ص 180.

[358]- الاعتصام، المجلد الأول، ص 148-149.

[359]- نفس المصدر المجلد الأول 368.

ولكن المنية عاجلت الشاطبي قبل أن يحقق مراده، ووافاه الأجل قبل أن يضع مصنفه... فهل تضمن كتابه الموافقات ما يوضح موقفه بعبارة النص؟ وما الجديد في هذا الكتاب مما يدرس علم التصوف والحقيقة الصوفية؟؟

تابع الدكتور جمال الدين موقف الفقيه الأصولي "المغربي" الإمام الشاطبي من التصوف والصوفية من خلال كتابه "الموافقات في أصول الشريعة" وهو الذي بنى فيه صرح علم المقاصد بالاعتماد على الصوفية في جملة من مباحثه، مع العلم أن البوادر الأولى لنشوء علم المقاصد بدأت مع الحكيم الترمذي الصوفي الشهير فكتاب كالموافقات لا يمكن أن يغفل علم التصوف لأنه أصل من أصول الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، بل صاحبه عاب على كل فقيه يهتم بظاهر الشريعة دون باطنها وروحها قال في الموافقات "وإنما عني الفقهاء بتقرير الحدود والأحكام والجزئيات التي هي مظان التنازع والمشاحة والأخذ بالحظوظ العاجلة، والعمل بمقتضى الطوارئ العارضة، وكأنهم واقفون للناس في اجتهادهم على خط الفصل بين ما أحل الله وما حرم، حتى لا يتجاوزوا ما أحل الله إلى ما حرم.. وأما ما سوى ذلك مما هو من أصول مكارم الأخلاق فعلا وتركا فلم يفصلوا القول فيه... وإذا نظرت إلى أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله تبين لك فرق ما بين القسمين، وبون ما بين المنزلتين، وكذلك ما يؤثر من شيم الصحابة واتصافهم، بمقتضى تلك الأصول، وعلى هذا القسم عول من شهر من أهل التصوف وبذلك سادوا غيرهم ممن لم يبلغ مبالغهم في الاتصاف بأوصاف الرسول وأصحابه[360].

والحاصل أن كل علم شرعي ليس بمطلوب إلا من جهة ما يتوسل به إليه وهو العمل (المرافقات ج1 ص 83)، ويورد كلاما عظيما لعلي رضى الله عنه: (يا حملة العلم ! اعملوا به فإن العالم من عَلِمَ ثم عمل، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف علمهم عملهم، يقعدون حلقا يباهي بعضهم بعضا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى

[360]- الموافقات ج5/ص 239/235 دار ابن عفان للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 1417هـ/1997م، ضبط وتحقيق مشهور بن حسن آل سليمان تقديم بكر بن عبد أبو زيد، مؤسسة الزاوية بالمغرب، المجلد الأول، ص 181.

غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم تلك إلى الله عز وجل.) أخرجه الدرامي في السنن/ الموافقات المجلد 1، ص 101.

وعن ابن الدرداء (لا تكون تقيا حتى تكون عالما، ولا تكون بالعلم جميلا حتى تكون به عاملا) أخرجه الدارمي في السنن/الموافقات 101/1.

ومن الأصول الصوفية التي طرقها الشاطبي في موافقاته، وأشار إلى بعضها الدكتور جمال الدين نذكر:

1. أخذ الصوفية بالعزائم بدل الترخص: ومن هنا يثني الشاطبي على أهل التصوف، ويمدح طريقتهم ومذهبهم في العمل بمقاصد الشريعة، ويعتبر مسلكهم هذا مسلكا سليما في السلوك لأن تتبع الرخص فيه إتباع شهوات النفس وأهوائها، وفيه عدم الائتمان من السقوط في حبائل الشيطان ومكره قال الشاطبي: (ولأجل هذا أوصى شيوخ الصوفية تلامذتهم بترك إتباع الرخص جملة وجعلوا من أصولهم الأخذ بعزائم العلم وهو أصل صحيح مليح مما أظهروا من فوائدهم رحمهم الله)[361].

2. الصوفية أصحاب الهمم العالية ومن يوجد أعلى منهم في سلوكهم ومسلكهم في نظر الشاطبي وهم لم يلتفتوا أوينساقوا وراء الحظوظ العاجلة الفانية، فهم أرباب الأحوال عاملون في أصولهم على إسقاط الحظوظ، بلغوا غاية الجهد في أداء الحقوق، إما لسائق الخوف أو لحادي الرجاء، أو لحامل المحبة، فحظوظهم العاجلة قد سقطت من أيديهم بأمر شاغل عن غير ما هم فيه، فليس لهم عن الأعمال فترة، ولا عن جد السير راحة... سهل الله عليهم ما عسر على غيرهم، وأيدهم بقوة منه على ما تحملوه من القيام بخدمته، حتى صار الشاق على الناس غير شاق عليهم، والثقيل على غيرهم خفيفا عليهم، فكيف يقدر على الاقتداء بهم ضعيف المنة عن حمل تلك الأعباء، أو مريض العزم في قطع مسافات النفس، أو خامد الطلب لتلك المراتب العلية، أو راض بالأوائل عن الغايات[362].

---

[361]- نفس المصدر ج252/1.

[362]- المصدر نفسه ج4/ ص 209-210.

غير أن هذا المسلك الذي سلكه الصوفية وأشار إليه الشاطبي، جعلهم لا يخرجون عن الوسطية والإعتدال التي هي من خصائص شريعة هذه الأمة، بل هم واقفون عند حدود الشرع في حركاتهم وسكناتهم قال صاحب الموافقات: (ومن طالع سير الأولياء وجدهم محافظين على ظواهر الشريعة)[363].

ومخافة أن يتوهم الواهم من الناس أن الصوفية سلكوا أمورا لا توجد عند العامة، فقد أورد العلامة جمال الدين كلاما للشاطبي يجلي فيه حقيقة القوم بقوله: "فيظن الظان أنهم شدوا على أنفسهم، وتكلفوا ما لم يكلفوا، ودخلوا على غير مدخل أهل الشريعة، وحاش لله ما كانوا ليفعلوا ذلك وقد بنوا نحلتهم على إتباع سنة صفوة الله من الخليقة"[364].

3. أما عن الأحوال والكرامات فنجد الشاطبي يدحض مزاعم المنكرين بنص حاسم يقول فيه (كل ما نقل عن الأولياء أو العلماء أو ينقل إلى يوم القيامة من الأحوال والخوارق والعلوم والمفهوم وغيرها فهي أفراد وجزئيات داخلة تحت كليات ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم)[365].

4. يرى الشاطبي أن أهل التصوف يتميزون عن الفقهاء في نظرتهم إلى أفعال العباد، لأن لهم بعدا مقصديا ينظر إلى مآلات الأفعال من تحصيل الكمال والتقرب إلى مولاهم بأحسن هيئة وأتم صورة، وهذا الرأي من الشاطبي يؤكده الشيخ زروق في قواعده إذ يقول: (نظر الصوفي للمعاملات أخص من نظر الفقيه، إذ الفقيه يعتبر ما يسقط به الحرج، والصوفي ينظر ما يحصل به الكمال)[366].

ألف الدكتور جمال الدين كتابه "مؤسسة الزاوية بالمغرب" وهو مريد يمتح من والده المشمول برحمة الله المعاني العرفانية للتصوف في أبهى صورها وأوضح إشراقاتها، مما يعطي لكتابه مصداقية كبيرة ومكانة جليلة في ميدان التصوف، فهو لم

---

[363]- المصدر نفسه ج1/ ص 166-167.

[364]- المصدر نفسه ج4/ ص 174.

[365]- المصدر نفسه ج2/ ص 198.

[366]- قواعد التصوف للشيخ زروق قاعدة 55.

يؤلفه من باب الترف المعرفي والفكري بقدر ما ألفه ليكون إطارا مرجعيا لكل باحث في هذا المجال.

وأتساءل هنا هل كان الدكتور جمال الدين –عند تأليفه– عالما أنه سيكون شيخا للطريقة يوما ما؟؟ لا أعتقد ذلك وهو الذي صرح لإخوانه في الطريقة ومقربيه كيف دعاه والده رحمه الله، وناوله وصية لم يعرف مضمونها إلا بعد وفاته.

وما يهمني هنا أن الدكتور جمال الدين تناول في رسالته قضية المشيخة وهي قضية جوهرية وتكتنفها كثير من المخاطر والصعوبات خاصة إذا علمنا أن للشيخ مرتبة عظيمة في التربية الصوفية، فهو المعلم والمرشد والناصح والداعية والقدوة، وقد استند الصوفية في تأصيل دور الشيخ على مجموعة من الأدلة الشرعية في القرآن والسنة، جمعها الدكتور جمال الدين في رسالته في الفصل الثالث من الجزء الأول: ص 142-143.

وقد ذكر شهاب الدين السهروردي في كتابه "عوارف المعارف" أهمية الشيخ ودوره في أنه يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، لذا فرتبة الشيخ عنده من أعلى الرتب في طريق الصوفية، ونيابة عن النبوة في الدعوة إلى الله، لأن مسألة التزكية والتصفية عند الصوفية لا تتم إلا بوجود الشيخ وصحبته، للوصول إلى الهدف الأسمى وهو تزكية النفس، يقول صاحب عوارف المعارف: "فإذا تزكت النفس، انجلت مرآة القلب وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ولاح فيه جمال التوحيد وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ورؤية الكمال الأزلي، فأحب العبد ربه لا محالة... فيحب العبد الباقي ويزهد في الفاني، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية، فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدين ويهدي به الطالبين"[367].

والمشيخة وسيلة لتطويع نفس المريد والسلوك به إلى معارج الانقياد الروحي لما أمر به الله عز وجل وبالتالي فهي سلطة روحية مهمتها الأولى إرشاد السالك إلى

[367]- عوارف المعارف، شهاب الدين السهروردي (632هـ)، الجزء الثاني، ص 153، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار المعاريف القاهرة (بدون التاريخ).

الطريق وحضه على التزكية وحفظ نفسه من الحياد عن الطريق الذي شرع الله لعباده على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. والشيخ بذلك خليفة في تبليغ الشريعة ورسم الطريقة وبلوغ الحقيقة وهذا ما ذهب إليه محمد بن عبد الكبير الكتاني في كتابه سلم الارتقاء قائلا: (فلابد من الاستسلام لمرشد ناصح مشفق عالم بالحقيقة والشريعة والطريقة، عارف بعلل النفس وقواطعها)[368].

إذا كانت المشيخة بهذا القدر فما هي شروطها؟ وما الصفات التي بتحققها في الشيخ يكون أهلا للتربية والتلقين والتزكية؟ وما هي حدود سلطة الشيخ على المريد؟ وهل يحق للمريد أن يتربى على أكثر من شيخ؟

تلكم أسئلة طرحها الدكتور في رسالته والتمس الأجوبة من مجموعة من العلماء والدارسين وذوي التخصص في علم التصوف عبر التاريخ.

المبحث الثالث: رؤية أبي الوليد ابن رشد (595هـ) للتصوف

قبل الدخول إلى صلب الموضوع لابد من الإشارة والتأكيد على أن ابن رشد في مشروعه الفكري قد سعى للبحث في اتجاهين: الأول: قصد منه الوصول إلى الحقيقة الدينية (الصوفية) والثاني: قصد منه الوصول إلى الحقيقة الفلسفية، مع وضوح الغلبة للاتجاه الثاني، ولهذا سمي بفيلسوف الحقيقتين، كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد بيطار في كتابه المفيد في فلسفة ابن رشد "الوجود والخلود"[369].

من هنا نخلص إلى طرح إشاكالية: كيف نتوصل إلى موقف ابن رشد من التصوف من خلال أقواله ومواقفه نفسها؟ وهل توجد علاقة ما بين التصوف والفلسفة من خلال تجربة هذا المفكر الإسلامة؟ خاصة إذا علمنا أنه سعى إلى التقريب والتغليب بينهما حيث طلب لقاء محيي الدين بن عربي ولعل أشهر كتاب يمكن أن يكون منطلق للوصول إلى هدفنا هو "الكشف عن مناهج الأدلة" حيث يقول ابن رشد (وأما الصوفية فطرقهم في النظر ليست

---

[368]- سلم الارتقاء، في منشأ التصوف ووجوب شيخ التربية، تحقيق إسماعيل المساوي دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 2005م.

[369]- هل ابن رشد صوفي؟ ذ. محمد سعيد ركري ضمن شبكة ضياء عبر النيت.

طرقا نظرية، أعني مركبة من مقدمات وأقيسة، وإنما يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شيء يلقى في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية وإقبالها الفطرة على المطلوب ويحتجون لتصحيح هذا بظواهر من الشرع كثيرة مثل قوله تعالى {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} ومثل قوله تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} ومثل قوله تعالى {إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا}. إلى أشباه لذلك كثيرة يظن أنها عاضدة لهذا المعنى.

ونحن نقول: إن هذه الطريقة –وإن سلمنا وجودها– فإنها ليست عامة للناس بما هم ناس..[370].

والقرآن كله إنما هو دعاء إلى النظر والاعتبار وتنبيه على طرق النظر.

لابد أن نشير إلى العصر الذي عاش فيه ابن رشد هو عصر ثقافي صوفي، يظهر هذا في فتوى لوالد بن رشد الجد الفقيه لما سئل عن قول الإمام أبي حامد الغزالي عن ذلك في كتابه الإحياء معرفة الله سبحانه والعلم، وقال إن المرتبة العليا في ذلك للأنبياء ثم الأولياء ثم العارفين ثم العلماء الراسخين ثم الصالحين فقدم الأولياء على العلماء وفضلهم عليهم، وقال القشيري في أول رسالته: أما بعد فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه، فهل هذا كقول أبي حامد وهل المذهب صحيح أم لا؟ فقد قال بعض الناس خلاف ذلك؟ فأجاب: أما تفضيل العارفين بالله على العارفين بأحكام الله فقول أبي حامد والقشيري فيه متفق، لا يشك عاقل أن العارفين بما يجب لله من أوصاف الجلال ونعوث الكمال، وبما يستحيل عليه من العيب والنقصان أفضل من العارفين بالأحكام بل العارفون بالله أفضل من أهل الفروع والأصول، لأن العلم يشرف بشرف المعلوم وبثمراته.

وقد اعتبر ابن رشد القسم الثاني يشكل موضوع الزهد وعلوم الآخرة، وأفرد له مقولات لكونه يرى أن الزهد "أملك للتقوى التي هي سبب السعادة" ومعنى هذا أن التصوف والفلسفة في رأي ابن رشد عبارتان عن معبر واحد لا يختلف إلا من حيث الأساليب والطرق مع اتحاد الغاية فيها، إذ أن المطلوب من الفلسفة –في نظر ابن رشد– يرجع إلى توجيه العقول والقلوب ومساعدة الإنسان للرجوع إلى ربه، ولا غاية للتصوف غير ذلك، فالفيلسوف يطلب

[370]- الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد املة، ابن رشيد ص 117، مركز دراسات الوحدة العربية سلسلة التراث العلمي العربي.

معرفة الله عن طريق الفكر والعقل، والعابد يطلبها عن طريق القلب والذوق، وكلا الطريقين واحد[371].

لقد وظف ابن رشد كثيرا من المفاهيم الصوفية وآلياته في سبيل المعرفة الفلسفية، ومن أهم هذه المفاهيم مفهوما الظاهر والباطن حيث نقلهما من معناهما الصوفي إلى معنى فلسفي، فصرف المدلول الصوفي للباطن واستبدل به مدلولا فلسفيا، حيث يصير عنده هو معنى البرهان. لقد أسس أبو الوليد صرحه الفلسفي على هذا الروح الصوفي ظاهر/باطن، الذي أصبح مشروعا في فضاء إنساني تختلف فيه فطر الناس في التصديق كما سيبين في فصل المقال، وسيحرص على إعطاء الجمهور ما ينفعهم من ظواهر في نصوصه التي وجهها إليهم وبخاصة "مناهج الأدلة" و"بداية المجتهد" حيث يقدم في الأول العقائد الواجبة وفي الثاني الأحكام الفقهية المشهورة، معتنيا بهذه الظواهر لتأثيرها الكبير في النفوس متجنبا تأويلها حتى لا تفقد الشريعة أهميتها في حياة الناس كما يفصل –ابن رشد– ذلك في كتابه "مناهج الأدلة"، وسيتفرغ في كتاب البرهان لما يعتقده الحقائق الخفية التي لا يجب أن يطلع عليها إلا العارفون بالله.

وهذا التمييز بين الظاهر والباطن عند أبي الوليد، ليس تمييزا بين الحقيقة والشريعة، بل إن الشريعة نفسها تحمل هذا التمييز فينقسم الشرع نفسه إلى ظاهر وباطن، الأمر الذي يسمح بهذا التلاقي بين الشرع والحكمة عندما يتعارض ظاهر الشرع مع الحقيقة الفلسفية فتتدخل آلية التأويل من أجل الجمع بين الحقائق المتعارضة بين الباطن الشرعي والبرهان الفلسفي، وهذه الحقائق المتعارضة ظاهرا المتوافقة باطنا هي السر سواء كان سرا شرعيا أو سرا فلسفيا فهي من "العلم الذي لا سبيل إلى إفشائه"[372].

لكن ابن رشد لم يفكر أن الحكمة الصوفية (الحقيقة) تتقابل والحكمة الفلسفية تقابل الأضرار نظرا لأن التجربة الصوفية ليست راجعة إلى الحس أو إلى العقل، وإنما هي نور يقذف به الله في قلب من أحبه، فهم –أي الصوفية– أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال، إنهم يصلون إلى هذه الأحوال بالإلهام، وهو ما لا واسطة في حصوله بين النفس والباري، وإنما هو كالضوء في سراج الغيب يقع على مكب فارغ لطيف[373].

---

[371]- محمد بيطار في فلسفة ابن رشد الوجود والخلود ص 98 دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان.

[372]- من أراد التوبيع يرجى الرجوع إلى الكشف عن مناهج الأدلة صفحات 99 فما بعدها.

[373]- المنقد من الضلال. الغزالي ص 127، دار الأندلس للنشر والتوزيع لبنان.

فالعلم بالله وصفاته أشرف من العلم بكل معلوم من جهة أن متعلقه أشرف من المعلومات وأكملها، وأن ثماره أفضل الثمار، فإن معرفة كل صفة من الصفات توجب حالا عليه، وينشأ من كل حال ملابسة أخلاق سنية، فمن عرف سعة الرحمة أثمرت معرفته سعة الرجاء، ومن عرف شدة النقمة اثمرت معرفته شدة الخوف وأثمر الخوف الكف عن الإثم والفسق والعصيان مع البكاء والأحزان والورع وحسن الانقياد والإذعان، ومن عرف أن جميع النعمة منه أحبه، وأثمرت المحبة آثارها المعروفة، وكذلك من عرفه بالعظمة والدل هابه وعامله معاملة التائبين المعظمين مع الانقياد والتدلل وغيرها[374].

يستفاد من هذه الفتوى دعوة ابن رشد الجد الضمنية إلى سلوك الطريق الصوفي بتأكيده على حجية أقوال شيخين من شيوخه الكبار وانتصاره للمجاهدة الصوفية وطرقها في تحصيل الأقوال الربانية والمقامات الإحسانية.

هذا ما جعل ابن رشد لا يتحرج من الإشارة إلى مقالات الصوفية إشارة مثمن ومؤيد كما يفعل عند حديثه عن ماهية الذات الإلهية التي يدل عليها عند الصوفية –كما يقول– الاسم الأعظم، وكذلك عند معالجته أشكال العلم الإلهي، والفرق بين الكرامة والمعجزة.

لقد عاش ابن رشد في عصر كما ذكرنا كثر فيه العارفون والصالحون، واشتد الاهتمام بالتصوف إلى درجة أن القرن السادس الهجري، وهو قرن بن رشد، أصبح يعتبر العصر الكلاسيكي للتصوف المغربي حيث أصبح إطارا مرجعيا لمن جاء بعده من المتصوفة، ما جعل ابن رشد يلتقي بصاحب الفتوحات المكية غير ما مرة، رغبة منه في مطابقة تجربته الفلسفية مع تجربة صوفية أندلسية مغربية عريقة لمتصوف ناشئ يشهد لابن رشد بالإمامة وبحثا عن سند صوفي لتجربته الفلسفية نشدانا لاطمئنان نفسي لما عنده من علم ومعرفة.

يتحدث ابن رشد في "فصل المقال" عن المقصود الذي يرومه الشرع فيجده في تعليم العلم الحق والعمل به، مبرزا أن المعرفة بالأفعال المفيدة للسعادة والمفيدة للشفاء هو موضوع العلم العملي وهو الجزء الثاني من الفلسفة كما فهمها الأسلاف، ويقف ابن رشد عند هذه الأفعال ويقسمها إلى قسمين:

1- قسم يتعلق بالأفعال الظاهرة البدنية التي تشكل موضوع الفقه.

---

[374]- التجكاني مسائل ابن رشد الجد، محمد الحبيب، المجلد الأول 512 دار الأفاق الجديدة–المغرب، الطبعة الثانية 1414هـ/1993م.

2- وقسم يتعلق بالأفعال الباطنة مثل الشكر والصبر وغير ذلك من الأخلاق التي دعا إليها الإسلام.

وفي العموم نجد أن ابن رشد من خلال كتبه كان حريصا على المقابلة بين طريقين.

طريق عقلي وطريق قلبي ذوقي، دون أن نخفي اضطرابا في شعور ابن رشد ورؤيته هذه مما دفعه إلى مناظرة ابن عربي في كثير من المجالات خاصة نظرية المعرفة ومشكله الاتصال ولبيان حاله يقول: (إن الشريعة هي نتاج نمطي ينتجه مجتمع أخلاقي، ولكي تتطور الشريعة بشكل يلائم المتطلبات الملحة للحركة العقلية للمجتمع، كان لابد أن يتعلم المسلمون المنطق والفلسفة لإخراج التصوف من مجاله الحدسي ووضعه في مجاله العقلاني إذ "العقل ينزع إلى تداخل إيجابي بين المثل الدينية والأخلاقية والفلسفية، ويعمل التخيل الديني بشكل دائم على إخراج أغراض جديدة يسعى إلى تحديدها ودمجها بالعالم الفعلي دمجا متكاملا)[375].

إن جميع هذه المعطيات جعلت التصوف ذا أهمية خاصة عند ابن رشد الذي أراد تحويل تلك العلاقة بين أخلاق التصوف وأخلاق التأمل العقلي لتصبح عملية اتصال بين الفلسفة والتصوف في ضوء العقيدة الصحيحة.

ومن يدري ربما أراد ابن رشد في أيامه الأخيرة أن ينتقل من الفلسفة إلى التصوف بعد أن أحس بالاقتناع كما فعل أبو حامد الغزالي فلم يمهله الأجل.

المبحث الرابع: علماء بن الصديق ومواقفهم الصوفية

1) عبد الله بن الصديق

إن كتاب العالم عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله "الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام" كان يقصد منه الدفاع عن هذا العلم وأهله والرد على من زعم أن التصوف دخيل على الإسلام فالصوفي في الحقيقة لا يفارق السلف في معتقده، ولا يفارق الفقهاء في معتمده، لأن العقائد رأس ماله والأحكام أساس أعماله، فهو أخذ بالأحوط في المأمورات، مجتنبا للمنهيات، مقتصر على الضروريات من المباحات، همه تخلية القلب من الرذائل

[375]- الأخلاق الدينية ومسألة التأويل عند ابن رشد عصام غصن عبود مجلة جامعة دمشق مجلد 20 العدد 1و2.

وتحليته بالفضائل، متبعا في ذلك أصحاب الحديث، لما هم عليه في ذلك من التحقيق والتثبيت، غايته إفراد القلب لله دون ما سواه.

والرسالة في عمومها تؤرخ لفترة زمنية عرف فيها المجتمع المغربي مخاضا سياسيا واجتماعيا، كان له أثره البالغ في التضييق على العمل الصوفي، وذلك من خلال السعي إلى نسف مشروعيته مع أنه مكون إسلامي متجذر في عمق الممارسة السلفية الحية التي عايشها الأوائل وتفاعلوا معها في ظل المدرسة النبوية. فانبرى المؤلف رحمه الله وهو العالم الصوفي والمحدث الحافظ لإبطال هذا التزييف الذي يضر بالممارسة الدينية في أبعادها الإحسانية والروحية في سياق إعادة صياغة قضايا التصوف وفق رؤية تأصيلية تجيب على عدد من الإشكالات التي يواجه بها هذا المشرب المبارك.

ولعل الداعي إلى تأليف هذه الرسالة لأجل أن تتضح حقيقة علم التصوف الشريف وبيان فضيلة طريقة المنيف قال المؤلف: آثرنا أن نعيد تحقيق هذه الرسالة المباركة النافعة الدامغة في تأصيل هذا العلم الجليل وبيان مذاهب علماء الإسلام فيه وأقوالهم في رجاله، مما يزيح أي إشكال حوله وحولهم ويدفع أي شبهة فيه وعنهم[376]

2) عبد العزيز بن الصديق الإمام المحدث (1413هـ).

له شهادة في عام 1417هـ أمام شيخ الطريقة سيدي حمزة بلعباس تتلخص في تأكيده على أن الطريقة القادرية البودشيشية مؤسسة رائدة في الشأن الصوفي ومرجعا للتصوف السني بالمغرب.

وقد جمعت أهم ما جاء في شهادته رحمه الله يقول:

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه أجميعن أما بعد أيها الإخوان، حقيقة لقد كانت زيارتي إلى هذا المكان الطاهر المبارك أول مرة، وقد وجدت فيه ما أثلج قلبي وشرح صدري وأعاد ذاكرتي للسمو إلى الله سبحانه وتعالى وإلى الاتصال بأهل الله وغلى الاعتراف بأن فضل الله سبحانه وتعالى لا يزال ناشرا جناحه على هذه الأمة المحمدية المباركة رغم ما ظهر من تيارات ضالة، ورغم ما ظهر من عدائية للإسلام، ورغم ما ظهر من أعمال تخالف الشريعة المحمدية يريد أصحابها القضاء على ديننا الحنيف... رغم كل

[376]- الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام، عبد الله بن الصديق، ص 5، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.

هذا قيض الله لهذا الدين ولهذه الشريعة المحمدية المباركة، ولهذا الإسلام الخالد الذي رضيه الله لنا دينا رجالا كان من بينهم الشيخ حمزة، فقد رأيت منه الفناء في حب الله تعالى ورأيت منه التضحية في سبيل الله، ورأيت منه ما يذكر بالشيوخ السابقين الذين ضحوا بمالهم وأنفسهم في سبيل التعريف بدين الله تعالى.. لمست ذلك أيضا لما زارنا الشيخ المبارك في زاويتنا بطنجة، فمن أراد الهداية والتزكية فليلزم هذا الشيخ..

ومن فضل هذا الرجل في هذا العصر، حيث تجمع الجموع للخرافات.. أنه يجمع الصغير والكبير والشباب والشابات على ذكر الله وعلى لا إله إلا الله.

نقول بعد هذا إن التصوف هو المذهب الوحيد من بين المذاهب الإسلامية، مذهب الإحسان الذي يعمل على تثبيت الإيمان في القلوب على نور وعلى بصيرة وعلى الحكمة[377].

حينما نتكلم عن علماء أسرة بن الصديق، فإننا نبحث في ثلة من العلماء الذين أصلوا لعلم التصوف وانخرطوا في مقاماته العرفانية وقواعده الروحانية بداية من محمد بن الصديق[378] (1295هـ) أكبر الحفاظ الذين عرفهم التاريخ وانخرط في سلك الطريقة الدرقاوية الشاذلية، وكان من الملتزمين بها، والدعاة لها، وأسس لأجل ذلك زاوية الصديقية بطنجة، إذ كان يدرس إلى جانب علوم القرآن والحديث، علم التصوف، فكان يلقن طلبة العلم ومعهم أبناؤه العلوم وقواعد التربية الصوفية، يقول عبد العزيز بن الصديق: (كان والدي رضي الله عنه، يتعاهدني بالنصائح والإرشادات التي تضيء أمامي الطريق، وتكشف عن سبيل السير فيما ينفعني في ديني ويقرب لي طريقة التعلم... لم يكن يمر علي يوم دون أن أذاكره واسأله في شتى العلوم والفنون المختلفة، فكان يعطيني رحمه الله ورضي الله عنه في كل موضوع أسأله عن قواعد عامة تكفيني وتغنيني عن كثير من البحث والمطالعة، فنفعني ذلك جدا، فكان رحمه الله يسر بذلك ويحثني على الاستزادة من البحث والمعرفة)[379].

ونذكر في السياق ذاته أكبر إخوة محمد بن الصديق وهو أحمد بن الصديق (1380هـ) المكنى بأبي الفيض مؤسس التيار الحديثي في الزاوية، فبعد أن أخذ الإخوة عن

---

[377]- قال العالم عبد العزيز بن الصديق هذه الكلمة بمداغ في سنة 1417 في ليلة إحياء الطريقة ق.ب. للمولد النبوي الشريف.

[378]- توفي محمد بن الصديق في نفس السنة التي توفي فيها إبراهيم بن علي العمارني صاحب كرامات ألف كتابا في علم التصوف سماه "نصرة الدين وبجهة السالكين ومفتاح الواصلين"، موسوعة أعلام المغرب، ص 2660 تحقيق محمد حجي المجلد الأول دار العرب الإسلامي ط 1، 1996، ص رقم 2008.

[379]- تعريف المؤتسي بأحوال نفسي، مخطوطة خاصة، ص 13.

والدهم أصول التربية الدينية الصوفية وحفظهم القرآن وتلقيهم دروس علوم اللغة والحديث والمنطق جلسوا إلى أخيهم الأكبر ونهلوا من معارفه وعلومه بحيث أصبح أحمد بن الصديق خليفة والده والراعي لشؤون الأسرة والزاوية، وهذا يرجع إلى سعة مداركه العلمية وخاصة في فن الحديث وقد تجاوزت مصنفاته مائة وعشرين كتابا من أشهرها:

- المداوي لعلل المناوي في ست جلدات.
- هداية الرشد في تخريج أحاديث ابن رشد.
- البحر العميق في مرويات ابن الصديق.

كما نذكر الشيخ عبد الله بن الصديق (1413هـ) المكني بأبي الفضل وهو أحد أكبر الحفاظ المحدثين في المغرب وأحد علماء الأزهر، تربى في أحضان الزاوية الصديقية ونهل منها العلوم الأولى، بعدها رحل قي طلب العلم داخل المغرب وخارجه ونال الإجازات العلمية من القرويين والأزهر بمصر, ألف في كثير من الفنون والعلوم ومن مؤلفاته:

- الأربعون حديثًا الغمارية في شكر النعم.
- الإحسان في تعقيب الإتقان في علوم القرآن.
- الابتهاج بتخريج أحاديث المنهاج للبيضاوي.
- تخريج أحاديث لمع أبي إسحاق الشيرازي في الأصول.

ولا ننسى ذكر محمد بن الصديق (1408هـ) الملقب بالزمزمي وهو أحد كبار الأسرة الصديقية تربى في أكناف الزاوية الصديقية وحضي بتربية صوفية خالصة، لكن يسجل التاريخ أنه حاد عن الاتجاه الصوفي رغم أنه ألف كتابا بعنوان "الانتصار لطريق الصوفية الأخيار".

ثم نذكر الشيخ عبد العزيز بن الصديق المكني بأبي اليسر، والذي حضي بزيارة لمقر الطريقة البودشيشية الأم (مداغ) وهناك أدلى بشهادته التي ذكرتها في هذا المبحث.

أما إبراهيم بن الصديق (1424هـ) فقد كان واسع الإطلاع رحل في طلب العلم إلى القرويين بعدما حفظ القرآن وأخذ مبادئ العلم عن علماء بلده، ولما تاقت نفسه إلى مزيد البحث والتحصيل رحل إلى القاهرة وقصد جامعة الأزهر، فلازم أخاه الشيخ الحافظ أحمد وأخذ عنه الحديث كما أخذ عن كبار علماء الازهر، ثم سافر إلى العراق للبحث عن مزيد من المعرفة والإطلاع، ثم عاد إلى المغرب ليدرس بكلية الشريعة بفاس سنة 1965 ثم دار الحديث الحسنية المغربية ابتداء من سنة 1966فحصل على دبلوم الدراسات العليا في

موضوع الجرح و التعديل وفي سنة 1985 حصل على دكتوراه الدولة في موضوع: علم العلل في المغرب والأندلس من خل كتاب بيان الوهم والإلهام الواقعين في كتاب الأحكام لأبي الحسن القطان.

عمل أستاذا بكلية أصول الدين بتطوان وبدار الحديث الحسنية بالرباط، وتخرج على يده ثلة من الأساتذة والعلماء وأشرف على عشرات الرسائل والأطاريح الجامعية.

تشرف بالجلوس بين يديه جلالة الملك الراحل الحسن الثاني وجلالة الملك محمد السادس للمشاركة في الدروس الحسنية، وعينه جلالته رئيسا للمجلس العلمي بطنجة وعضوا بالمجلس العلمي الأعلى، كما عينه عضوا باللجنة الملكية الاستشارية لإصلاح المدونة[380].

ولم تكن هذه المهام والمسؤوليات لتشغله عن البحث والتأليف، ومن مؤلفاته:

- الجرح والتعديل في المدرسة المغربية للحديث في مجلدين.
- علم علل الحديث السابق ذكره في مجلدين.
- مستدرك ابن حزم على الصحيحين.
- القول الوجيز في ترجمة أخي عبد العزيز واختصاره ل"تعريف المؤتسي"

وكانت للشيخ إبراهيم بن الصديق إشارات إلى علم التصوف من ذلك ما ذكره في درس حسني في سنة 1988... لما كان يشرح الحديث الصحيح "دعوني ما تركتكم..." قال: (ومعلوم أن الاستجابة الكاملة لغريزة كثرة السؤال واستكشاف المغيب تفضي للانسياق وراء الحقيقة على حساب الوقوف عند حدود الشريعة فتختل بذلك موازين الشرع ويصبح ظواهره رسوما لا حقيقة لها كما حدث لبعض الفرق التي أغرقت في البحث عن الحقيقة فظلت عن العمل بالشريعة مع أن العمل بالشريعة والوقوف مع حدودها هو مفتاح باب كل شيء فما وصل من وصل إلا به ومنه كما قرر كبار العارفين وأمثال أبي الحسين الوراق النسابوري (319هـ) يقول: (لا يصل العبد إلى الله إلا بالله، وبموافقة حبيبه في شرائعه، ومن جعل الطريق إلى الوصول من غير اقتداء يصل من حيث ظن أنه مهتد)[381].

وقوله: (الصدق استقامة الطريق في الدين وإتباع السنة في الشرع)[382].

---

[380]- معلمة المغرب، بوعبيد التركي ص 238-239.

[381]- الطبقات الصوفية، أبو عبد الرحمان السلمي ص 99، تحقيق أحمد الشرباجي الطبعة الثانية 1419هـ/1998.

[382]- الطبقات الصوفية، أبو عبد الرحمان السلمي ص 99، تحقيق أحمد الشرباجي الطبعة الثانية 1419هـ/1998.

وأيضا من كلام العز بن عبد السلام (660هـ) (إن أدب السلوك في خدم ملك الملوك ثلاثة فالإسلام قيام البدن بوظائف الأحكام، والإيمان قيام القلب بوظائف الإستسلام والإحسان قيام الروح بمشاهدة الملك العلام، ألا تراه يقول صلى الله عليه وسلم: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه" فتكون قائما بوظائف العبودية مع شهودك إياه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك فتكون قائما بوظائف العبودية مع شهوده إياك، فأنت في الأول مراد وفي الثاني مريد، لأنه حين أرادك أشهدك إياه، وحين أردته كانت الإرادة منك له، فلذلك حجبك، فلو كانت الإرادة لك لما حجبك، فإنه لا توصل إليه إلا به)[383].

المبحث الخامس: الحضور الصوفي في شخصية المختار السوسي (1383هـ).

يعتبر المختار السوسي من الشخصيات المغربية التي حافظت على توازنها الروحي والفكري، يظهر هذا جليا في كتابه المعسول، ففي مقدمته يقول: (ثم إنني ابن زاوية وابن بيئة أمس مؤمن بالروحيات الصادقة، فأقبل خرق العادة إن صح أن ذلك واقع، ولذلك يعذرني من ليس له هذا الإيمان إن وجد في بعض التراجم من الكتاب مثل ذلك فله دينه ولي ديني.

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف.

(فليعلم الطالع لهذا الكتاب بأجزائه العشرين سيعوض فيها أخبار الفقهاء والأدباء والرؤساء والصوفية وكل ما يعن من أحوال البادية وسيكون كالداخل إلى السوق التي تجمع كل شيء.. فمن ليس بأديب لا يرتاح للأدب، ومن ليس بفقيه لا يرتاح لأحوال الفقهاء، ومن ليس بصوفي يستنكر حتى ما هو حق من أحوال الصوفية. نعم إن من يكون مؤرخا يريد أن يستنتج ويفرح بكل شيء ولو الخرافات فضلا عن الحقائق) ص 6. 7.

وهكذا يتتبع المختار السوسي إعلام الصوفية من عهدهم بالمهد إلى أن يواروا في اللحد وتجدر الإشارة إلى أن المختار السوسي جعل التصوف أساسا وثابتا يشكل هوية المجتمع المغربي، ومعلما من معالم الدولة إلى جانب الفقه المالكي وهو ما يؤكده العلامة علال الفاسي بقوله: (التصوف المغربي إلى جانب الفقه المالكي له الأثر الفعال في توجيه

---

[383]- زبد خلاصة التصوف (حل رموز ومفاتيح الكنوز) ص 19-20، تحقيق محمد بعد الرحمان الشاغول، الجزيرة للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.

كل الأفكار والسياسات التي جرت في بلادنا، فالفقه والتصوف عنصران أساسيان في تكييف المجتمع المغربي وتسييره) www.arrabita.ma

يتضح لنا مما سبق نكره أن الحياة الصوفية عند المسلمين نمت داخل المنظومة الإسلامية وليست وليدة تيارات دخيلة، ومن يفصل التصوف عن الهوية المغربية الأصلية يسقط في المغالطات والمزايدات.

فالمختار السوسي يرى في التصوف العاصم من في ظل تقلبات الحياة ومتغيرات الواقع، وهو الوسيلة الكبرى في بناء الشخصية المسلمة قال رحمه الله: فإن الفقير هو الذي لا يزال مراقبا لربه لا تزعزعه العواصف ولا تستمليه الأقوال ولا يستفزه دنيوي كيفما كان، بل يحوله بهمته إلى أخروي فيشاهد رضا الله في حرثه وفي غرسه وفي كل ما يزاول[384].

وإذا عمقنا البحث في فكر المختار السوسي وأرائه في التصوف والممارسة الروحية الخالصة فسنجده ر يخرج لها عن عمل السلف الصالح، فالتصوف الصافي والدين الإسلامي البحث مدلولا على شيء واحد، فمن اعتنق التصوف الخالص كما هو فقد تمسك بجوهر الدين وروح الشريعة.

مقتطفات من كتاب المعسول

(... فتحدث من التغيير ما يجرف التقاليد والأفكار وكل ما يمن إلى العادات، فإذا بالمغرب يتحول في عهد قصير إلى مغرب آخر يركل ما كان معروفا منه في الأمس، فإذا بأمثالنا نحن الذين كنا نعيش في شرخ شبابنا في المغرب المستقل قبل 1330هـ، قد كدنا نكون غرباء في طور شيخوختنا في المغرب المستقل من جديد 1375هـ. فقد حرصنا ألا ننكر إلا ما يستحق أن ينكر. وأن نحمد كل ما يمكن أن يحمد واجتهدنا أن نساير العصر، وأن نتفهمه فلا ننكر أخذ ما لابد من أخذه من أساليب الحضارة و نظمها وعلومها –لأن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها– ولكننا مع ذلك نشاهد إسرافا في التحول السريع الذي لم يراع فيه –حسب أنظارنا نحن المسنين– حكمة ما بين التفريط والإفراط، فنحاول أن نجمع ما بين محاسن أمس واليوم.

[384]- المعسول، المختار السوسي، مطبعة الجامعة الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1381هـ/1961م.

(وأعظم ما نهتم له شيئان: أحدهما التفريط في المثل العليا التي لا ترسخ في الشعوب إلا بعد جهود قرون، ومتى اجتثت من أي شعب بمثل هذه الاندفاعات العمياء، فإن ابناء ذلك الشعب سرعان ما ينحرفون عن الصراط المستقيم في الحياة) ص 3.

وثانيهما: التفريط في المحافظة على اللغة العربية وآدابها التي هي شعار المغرب وكنزه الموروث والمحافظ عليه كلغة رسمية) ص 3.

(وليث شعري لماذا كنا نحرص على الاستقلال إن لم تكن أهدافنا المحافظة على المثل العليا المجموعة في ديننا الحنيف؟ والمحافظة على هذه اللغة التي استمات المغاربة كلهم عربهم وبربرهم في جعلها هي اللغة الوحيدة في البلاد) ص3. خزانة التراث العربي، دون تاريخ الطبعة.

1-قوله في السياحة الصوفية:

(إن مما يقول الصوفية إنه مما يصقل القلوب، ويجلو مراياها ويهذب النفوس السياحة، ولذلك يجعلونها في رأس قائمة شروط الطريقة ويقولون: بقدر ما تبتعد عن شواغلك بين أهلك ومعاريفك تبتعد عما يحول بينك وبين ما يقربك من ربك ويستدلون لذلك بأن الله وضع السياحة إزاء التوبة والعبادة في قوله تعالى {التائبون.... وبشر المؤمنين).

قال المفسرون: فوصف هذه مرتبته بين أوصاف المؤمنين ينبغي أن لا يفرط فيه المومنون، وأن يجعل كأساس من أسس الإيمان وكمرآة يتراءى منها للمريد ما يكثر به اعتباره، ولا مقرب إلى الله كمثل الاعتبار الكثير والتفكير الحي في مخلوقاته، وتفكر ساعة خير من عبادة سنة، على أن للسياحة أثرا محسوسا في تكوين الأخلاق والرجولة، ولذلك نرى الشعوب الحية تأخذ بالتجوال ابناءها من شرخ الشباب) المعسول ص 21.

2-قوله في التجريد وخرق العادة:

الرجوع إلى كتابه المعسول ص: 202-203-204-205 إلى 201 فمن الصفات كلام نفيس جدا جدا للمختار السوسي.

ثناؤه على الطريقة الناصرية وشيوخها (المعسول من ص 264 إلى 312).

ونجاه الله مما ألصق عن محمد او جهل من البدع، فإنه ما اعتنق إلا الإسلام الخالص نفسه[385].

[385]- المعسول، ج 17، ص 5.

فهو يدرك رحمه الله الانزلاقات التي وقعت فيها بعض الطرق الصوفية، لكن الحجة في الطرق عنده هم أولئك سادات القوم ويعتبر نفسه محبا لهم ويرجو أن تسوقه المحبة لأن يحظى بمعيتهم مصداقا لقول الحبيب المصدوق المرء مع من أحب[386]، فهو يقول: وإنما أن محب للقوم وأرجو بهذه المحبة أن أحشر معهم، والمرء مع من أحب[387].

ظل التصوف عند المختار السوس حاضرا في شخصيته، مؤمنا بفعاليته الكبير، ودوره العظيم على المستوى الداخلي للإنسان أو فيما يتعلق بمحيطه الخارجي.

المبحث السادس التأصيل الشرعي للتصوف الشيخ عبد الله بن بيه

في مؤتمر عقد بالمغرب بدعوة، وزير الأوقاف المغربي أحمد التوفيق.

بدأ الشيخ كلامه في المؤتمر بقوله: إن الخصومة الفكرية بين مختلف الطوائف الإسلامية لم تسلم منها طائفة، فلم يكن من الغريب ولا الشاد أن تفحم الطائفة الصوفية في هذه الخصومة أصلا وفرعا.

وكلامه يحمل جانبا كبيرا من الصحة، لأن كثيرا من الجماعات والفرق المنتسبة إلى الإسلام وتحمل مشروعا "إصلاحيا" تسلطت بقصد في إثارة الثغرات وتضخم الخلاف، وعدم إعطاء المسألة المختلف فيها حجمها الشرعي المطلوب، ولم تسلم الطرق الصوفية من أثر هذا الهجوم.

أصل الشيخ للتصوف بقوله "وقد اختلف الناس في تعريف لفظ التصوف إلى ألفي قول كما يقول سيدي أحمد زروق في قواعده، لكنه في نفس القاعدة يرده إلى صدق التوجه إلى الله وهو الإحسان. وقال السيوطي: التصوف تجريد القلب لله واحتقار ما سواه بالنسبة إليه. وقال بعضهم: هو السلو عن الأعراض بالسمو إلى الأغراض. واختلاف التعريفات راجع إلى مقام من مقامات التصوف غلب على قائله النظر إليه، فعرفه به باعتباره الرئيس الأعظم كما عرف النبي صلى الله عليه وسلم الحج بقوله: "الحج عرفة"، باعتباره ركنه الأعظم، فالتصوف هو النظر لأحوال القلوب.

---

[386]- سنن الترمذي، كتاب الدعوات، ص 501 المجلد الرابع تحقيق: مركز البحوث وتقنية المعلومات الطبعة 1، 2014/1435 دار التأصيل الناشر.

[387]- منبه المتطلعين ص 4.

كما اعتبر الشيخ الصوفية مجتهدين في اتباع السنة والهدي النبوي قال: إن الصوفية تقدم أنواعا شتى من الوسائل مستقاه من الكتاب والسنة والتجارب الروحية والتجارب الروحية الخاصة اعتمادا على قوله تعالى {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}، فدوا في العبادة وألزموا أنفسهم الأوراد في الأوقات وأمروا بالمحافظة عليها بإطلاق وشددوا في الامتثال... واشتغلوا بالأذكار، فرتحوا في رياض الجنة في كما في الحديث الصحيح "إذا مرر تم برياض الجنة فارتعوا، قيل يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر".

إلى أن قال الشيخ: فأصولهم في الكتاب والسنة وأفعال السلف قد تكون دقيقة... واستدل بكلام الجنيد الذي مر معنا "علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة... فمن لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المتأدبين.. أفسد من اتبعه، وهنا أسوق قولا لشيخ الطريقة الراحل حمزة ابن العباس رحمه الله، يقول رحمه الله: (طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}[388])[389].

ثم يستدل في نفس السياق بحديث حنظلة الذي رأيناه سابق، وكذا برواية الرجل الذي جلد في شرب الخمر، (لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله) البخاري 6780.

وحديث أنس بن مالك (لا يومن أحدكم حتى أكون احب إليه من أهله وماله والناس أجمعين) مسلم 44.

وحديث الأعرابي الذي سأل رسول الله عن الساعة (إنك مع من احببت فقلنا ونحن كذلك؟ قال نعم، ففرحنا يومئذ فرحا شديد) البخاري ومسلم من حديث أنس.

ثم قال معلقا على هذه الأحاديث (هذا الفضاء المترع بالمحبة والمشرق بالأنوار، وهذه الرؤى والأشواق والحب والشفافية ولواعج النفوس والإلهامات والمراعي والاسرار ليس لها ناظم يجمعها، ولا سياق يسوقها بإزاء صور الأعمال مع الاعتراف بحاجة كل منهما للآخر، كما لا غنى للجسد عن الروح ولا للروح عن الجسد... إنها كمالات تسعى إليها الهمم العالية.

ثم يعرض الشيخ لألفاظ الصوفية –وما أكثرها– يقول (ويدخل في المصطلحات الفاظ كالشيخ والمريد والسالك والمجذوب والوتد ولها دلالات مقبولة وقد استعمل أهل الحديث لفظ الشيخ في التعديل كما استعمل الطالب والحافظ والحاكم لتمييز رتب المحدثين وكما قال

---

[388]- سورة الحشر الآية 7.

[389]- نبراس المريد في طريق التوحيد، تأليف أحمد قسطاس، مطبعة فضالة، طبعة 1414هـ.

السيوفي (واعلم أن دقائق علم التصوف لو عرضت معاينها على الفقها، بالعبارة التي ألفوها في علومهم لاستحسنوها كل الاستحسان وكانوا أول قائل بها، وإنما ينفرهم منها إيرادها بعبارة مستغربة لم يألقوها...

ثم انتقل إلى حكم الأوراد بالعدد أو بغيره مستدلا بعبارات نبوية تشرع العدد في الذكر وأحيانا الزيادة عليه كما في قوله صلى الله عليه وسلام "إلا من زاد على ذلك" (ولم يأت أحد بأفضل مما جاء إلا من زاد).

وحديث المرأة التي كانت تسبح بالمصى أو النوى[390]، وإقراره عليه السلام لها خير دليل تمسك به بن بيه على مشروعيه الشيخ بغير الأنامل وإن كان الأفضل في هذا الأخير قال الشيخ (فلا جرم أن الشيخ بالسيد أفضل إلا إذا كانت مصلحة الورد الطويل تقتضي سوى ذلك وقصارى الأمر الجواز).

كما أكد في محاضرته في اتخاذ الشيخ وأهمية ذلك بالنسبة للسالك.

وختم محاضرته بمسألتين غاية في الأهمية:

الأولى: مشروعي زيارة قبور المشايخ والألياء.

الثانية: خاصة بالكشف والكرامات والرؤى.

المبحث السابع: إجراء حوار مع وزير الأوقاف أحمد التوفيق:

الحقل الديني بالمغرب الذي جعل الثوابت إحدى ركائزه أخذ البعد الروحي وشجعه وجعله خادما للشأن الديني.

- التربية الصوفية بالمغرب (الزوايا) تدعو إلى التوحيد أي عبادة الله وحده.
- مذهب الزوايا نشر الأخلاق: الاهتمام بالنفس ومحاسبتها.
- الزوايا تنشر الأخلاق في عموم المسلمين سواء انتسبوا إلى شيخة التصوف أو لم ينسبو.
- تصوف الجنيد مقيد بالكتاب والسنة.
- أعزما يطلب التوحيد الحقيقي.

[390]- الحديث رواد النسائي وابن حبان وأبو داود والترمدي والحاكم قال صحيحه الاسناد عن سعد بن أبي قصاص.

- البعد الأخلاقي.
- لما تم التفريق بين جسم الدين وروحه أي ما بين ظواهر الشريعة وبواطنها وحقائقها.
- الأعضاء تنشط إذا حلت الهداية قلب المسلم: أداء العبادة جوهريا.
- الحقوق التي يرعاها الدين ثلاثة: – حقوق الله: الذكر ركز عليه.
  - حقوق النفس.
  - حقوق الغير.
- من الخطأ أن يرجع الانحراف إلى عامل التصوف.
- لمح إلى علال الفاسي لما أتى إلى وزارة الثقافة ألقى 3 محاضرات حول تصوف الأخلاق.
- فرق بين الأخلاق والعرفات، والأولى عامة والثانية خاصة.

هذا الحوار أجري في 22 نونبر 2017.

–إلقاؤه محاضرة بمتحف محمد السادس للفن الحديث والمعاصر في 21 جمادى ا 1426هـ/ 21 مارس 2015 بالرباط

بعنوان، الشرف والتصوف أقاما صرح الأمة والمجتمع والدولة المغربية.

- اعتبر السيد التوفيق التصوف مسلكا روحيا قائم على نفس أساس العدل، عدل الإنسان مع نفسه ولا يكون الإنسان عادلا مع نفسه ومع الله ومع غيره إلا إذا زكى نفسه.
- وأكد على أن التصوف قائم على قيم وفضائل منها التمرس على التقوى والإخلاص لله وحده، والتحقق بالتوحيد والإعراض عن زخارف الدنيا والعكوف على الذكر والصلاة.
- التصوف في الإسلام يتميز بأمرين: هما التقيد بواجبات الذين وأحكام الشريعة وبمحبة مقام الرسول الكريم.
- أشار إلى أن هناك فرقا بين التصوف وما يسمى عادة بالروحانية التي توجد في أطراف وهوامش كل الديانات والتي لا يقبلها الدين الإسلامي.

المبحث الثامن: القرضاوي والتصوف.

كلما طرقنا موضوع التصوف ورجاله ومناهجه الفكرية والتربوية، إذا هم فريقان يختصمون فريق رفضه جملة وتفصيلا واعتبره ضد الإسلام الصحيح، وفريق قبله قبولا مطلقا واعتبره الطريق الوحيد للوصول إلى الإسلام معرفة وتذوقا وسلوكا.

مما يصعب أمامنا الأمر ويجعلنا لا نستطيع الوصول إلى رأي حاسم في الموضوع، لأن لكل فريق فلسفته الثقافية التي تحدد مقاربة تفكيره كما أن لكل خلفيته المعرفية التي ينطلق منها.

إن نظرة عامة في تاريخ الأمة الإسلامية، تجعلنا نؤكد أن علماء السلف كانوا يأخذون دين الله كاملا وبممارسة كلية لمراتبه كلها –الإسلام والإيمان والإحسان– التي جاءت في حديث جبريل المشهور، ثم صار أهل الفقه أخص بمعرفة الإسلام وأحكامه الظاهرة، وأهل الكلام اشتغلوا بالإيمان وما يرتبط به مما فروع وأصول، وجاء أهل التصوف ليهتموا بالإحسان ومراتبه.

ويمكن القول إن التصوف مر من مرحلة الممارسة الفردية في القرون الأولى إلى مرحلة المؤسسة التربوية الخلقية الروحية.

لكن الانصاف اقتضى من الدكتور يوسف القرضاوي أن يعتبر التصوف له جذور إسلامية أصيلة لا تجحد، وفيه عناصر إسلامية أساسية لا تخفى، تجسد ذلك في القرآن والسنة وسيرة الرسول الكريم وأصحابه الزاهدين مثل عمر وعلي وأبي الدرداء وسلمان وأبي ذر وغيرهم.....

- **التصوف بين مادحيه وقادحيه د. يوسف القرضاوي.**

لم يخصص الدكتور للتصوف كتابا خاصا، وهذا لا يعني أنه لم يهتم بهذا العلم وإنما كانت له حوارات مباشرة سأحاول من خلالها إبراز موقف الدكتور من التصوف وحقيقته، وهل هو من مادحيه أم من قادحيه؟

وإذا كان من المادحين فما هي حدود التجربة الصوفية عند د. يوسف القرضاوي، ما هي معالمها وملامحها؟

إن من يتتبع آراء يوسف القرضاوي في التصوف، يجد أنه لا يخرج عن طائفة العلماء الذين مدحوا التصوف وخبروا علومه وقدحوا ما ألصق به من خرافات وبدع، يقول الدكتور

في حوار أجرته معه صحيفة الشرق الأوسط (كما أنني مع التصوف، فلابد من الأخذ من التصوف خير ما فيه كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم، فهما من كبار المتصوفين إلا أنهما رفضا من التصوف ما لا يليق، وأخذا منه ما يليق وأنا شخصيا أدعو إلى "تسليف الصوفية"، و"تصويف السلفية" فالمتصوف يأخذ من انضباط السلفية في عدم الأخذ بالأحاديث الموضوعة وعدم الأخذ بالشركيات والقبوريات، ونريد من السلفي أن يأخذ من الصوفية الرقة والروحانية وخشوع القلب ونعمل من هذا المزيج المسلم المطلوب) العدد 11712–22 دجنبر 2010.

أما عن مكان الصوفية داخل نسيج المجتمع، فلما سئل عن ذلك أجاب بقوله: (ظهر هؤلاء الصوفية ليسدوا ذلك الفراغ، الذي لم يستطع ان يشغله المتكلمون ولا أن يملأه الفقهاء، وصار لدى كثير من الناس جوعا روحيا، فلم يشبع هذا الجوع إلا الصوفية الذي عنوا بتطهير الباطن قبل الظاهر، وبعلاج أمراض النفوس، وإعطاء الأولوية لأعمال القلوب وشغلوا أنفسهم بالتربية الروحية والأخلاقية، وصرفوا إليها جل تفكيرهم واهتمامهم ونشاطهم).

لقد دخل كثير من الناس الإسلام عن طريق الصوفية، وأحب جمع غفير دين الله وشريعته بسببهم ولا ينكر عليهم هذا الا مكابر أو متعصب كما عبر عن ذلك الدكتور وقد مر هو الاخر من التجربة الصوفية التي ألمح لها من خلال حوار أجرته معه قناة الجزيرة الإعلامية الفضائية في حلقتين بثتا يوم 21 و28 شهر مارس 2010.

أكد في الحلقتين أن التصوف الذي هو تربية النفس وتخليقها على مكارم الأخلاق، أمر واجب على كل مسلم ومسلمة، ووسيلة ناجعة لإصلاح الفرد والمجتمع.

كما أنه في كلتا الحلقتين عاتب على كل اتجاه ينكر على الصوفية، ويرفض التجربة جملة وتفصيلا، إذ كيف يلام من نزع بنفسه إلى الهروب بها من سخط الله وغضبه عن طريق المجاهدة وحملها على آداب الشرع ومحاسن الشريعة كالحسن البصري والداراني وذي النون المصري وأبي يزيد البسطامي والجنيد وغيرهم....

نستخلص من كل ما سبق أن الشيخ القرضاوي يأتي في نظرته للتصوف بين المفرطين في المدح والمفرطين فيه وهو بهذا يحمل موقفا وسطا دون تعصب له أو عليه، موقف انطلق من أن السلف الصالح كانوا يأخذون دين الله كله بمراتبه كلها من الإسلام والإيمان والإحسان.

هذا الموقف الإيجابي دفع الدكتور إلى أن يبرز موقف ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، اللذين تمسك بها القادحون للتصوف دون تمييز ولا تمحيص، وخير ما نمثل به أن ابن القيم كتب كتابا قيما عن التصوف هو "مدارج السالكين"، وهو عبارة عن شرح لرسالة صوفية صغيرة اسمها "منازل السائرين" [إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين] لشيخ الإسلام عبد الله اسماعيل الهروي[391] الحنبلي (481هـ) فمعظم العبارات التي استخدمها في كتابه تنبئ عن الإشارات العرفانية والدلالات الروحانية.

ومن يقرأ القرآن والحديث يجد فيهما تحذيرا متكررا من فتنة الحياة الدنيا ومتاعها وتوجيه الهمم إلى الله وإلى الدار الآخرة، وتزكية القلوب بالتشويق إلى الجنة وما فيها من رضوان الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم، والتخويف من النار وما فيها من عذاب، كما يجد الحديث عن حب الله تعالى لعباده وحبهم له سبحانه في مثل قوله تعالى {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}[392] {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}[393].

كما جاء في القرآن والأحاديث نصوص غزيرة في الزهد والتوكل والتوبة والشكر والصبر واليقين والتقوى والمراقبة وغيرها من مقامات الدين، ولم يعطها العناية اللائقة بها من التفسير والتعليل والتقسيم والتفضيل، غير الصوفية، ولهذا كانوا أعلم الأمة بعيوب النفوس وأكدارها، وأمراض القلوب وعللها، ومداخل الشيطان ووساوسه، وأكثرهم عناية بأحوال السلوك وتربية السالكين. وكم تاب على أيديهم من عاص، وكم أسلم من كافر.

ومن الصوفية من كان معتدلا ويحذر من الغلو والانحراف ويوجب التقيد بنصوص الشريعة وقواعدها، ينقل ابن القيم عن شيوخ القوم أقوالا عديدة لهم في ذلك منها قول سيد الطائفة وشيخهم الجنيد (297هـ): الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال بعضهم، من لم يزك أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال[394]. (التصوف كله آداب، لكل وقت أدب، ولكل مقام أدب،

---

[391]- أبو إسماعيل عبد الهروي 396هـ/481هـ.

[392]- سورة المائدة آية 53.

[393]- سورة آل عمران آية 30.

[394]- أبو حفص النيسابوري (264هـ).

فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول)[395].

وقال أبو سليمان الداراني (215هـ): ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين، الكتاب والسنة.

وقال أبو يزيد (201هـ): لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة.

ولعل أعدل ما قيل عن الصوفية هو جواب ابن تيمية حين سئل عنهم فكان قوله: تنازع الناس في طريقهم، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء... وكلا طرفي هذه الأمور ذميم والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أجل طاعة الله ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو في أهل اليمين، وفي كل من الضفتين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه. والله أعلم.

تلك طائفة من العلماء الدين ساقتهم لي مشيئة الله عز وجل وسطرتهم مقاديره الغيبية لأنبه من خلالهم على أهمية التصوف وفي سياقه إبراز مكانة الطريقة القادرية البودشيشية محليا ودوليا مع اعتماد الإختصار وتقديم الأهم على المهم والله الموفق وهو يهدي السبيل.

[395]- طبقات الصوفية: أبو عبد الرحمان السلمي ص 103-109 دار الكتب العلمي ط 2003.

خاتمة البحث

أطرق موضوع التصوف في هذه الأطروحة وأنا أعلم أن العمل الصوفي كان ولا يزال يشكل عقلية وثقافة المجتمع المغربي، بالإضافة إلى ما كان يقوم به من أدوار فاعلة على مستويات عدة دينية واجتماعية وثقافية وسياسية... حتى أنه لا يمكن فصل الممارسة الصوفية عن وجدان أهل المغرب، وهم الذين جعلوا التصوف أحد معالم هويتهم الأساسية إلى جانب العقيدة الأشعرية والفقه المالكي، وهو ما يؤكده العلامة علال الفاسي بقوله (التصوف المغربي إلى جانب الفقه المالكي، له الأثر الفعال في توجيه كل الأفكار والسياسات التي جرت في بلادنا، فالفقه والتصوف عنصران أساسيان في تكييف المجتمع المغربي وتسييره)[396].

وتجدر الإشارة إلى أن الزاوية كانت مجالا في تكوين وبناء الشخصية المسلمة بالمغرب، على أسس أخلاقية متينة، لا تأخذ منها تقلبات الحياة وشدائد الأيام مأخذها، وتأسيسا عليه اعتمد المغرب التصوف وتبناه محددا مركزيا وثابتا معرفيا لإعادة هيكلة الحقل الديني وهذا راجع إلى تكاثر مشاريع التصوف إلى درجة وصف معها المغرب ببلد الأولياء والصالحين، ولهذا السبب احتضنت المملكة المغربية الملتقى العالمي الأول للتصوف بمدينة مراكش في سياق فعالياته خاطب الملك محمد السادس نصره الله الحضور من خلال رسالة ملكية قائلا (ولا شك أن في تجربتكم الموروثة من أجل تحقيق هذه الأهداف، ما يؤهلكم للعودة إلى الميدان الديني والتربوي والاجتماعي المنزه عن كل توظيف سياسي رخيص أو مغرض متحلين بقيم التصوف الأصيل القائم على الجمع بين الورع والتقوى والاستقامة في السلوك، وبين العمل الخالص المنزه عن الأغراض الذاتية، سيما أن المجتمعات في عصرنا هذا قد أخذت في إعلاء كل قيم التجرد والتسامح، وفي الأخذ بعدد من مفاهيم الثقافة التي قامت عليها طريقتكم).

لقد رسم هذا الخطاب الملكي خارطة الطريق للتصوف المبني على الاعتدال والتوسط في القول والعمل، وألا يتخذ التصوف مغنما ومكسبا للوصول إلى أهداف محددة، أو يندس فيه ذوو الهمم والمطامح العاجلة.

---

[396]- التصوف الإسلامي في المغرب، علال الفاسي، ص 21 مطبعة الرسالة.

حينما تتبعت مؤلف شيخنا الرضي جمال الدين بأجزائه الأربعة وكذا كل رسائله التي يوجهها لمريدي الطريقة، وتصريحات نجله الدكتور منير القادري، وجدت أنهما يركزان على القيم ودورها في بناء الإنسان والمجتمع، وأعظمها وأساسها الإيمان بالله تعالى، فمنه تنشأ وبه تقوى، وحين يتمكن الإيمان في القلب يجعل المسلم ينمو فيتطلع إلى قيم عليا، وهذا ما حدث لسحرة فرعون، فإنهم كانوا في البدء يسخرون إمكاناتهم وخبراتهم لأغراض دنيوية دنية فانية {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}[397].

فلما أكرمهم الله بقيمة الايمان انقلبت موازينهم وتغيرت مواقفهم وارتفعت هممهم وسمت قيمهم، هددهم فرعون فأجابوه بقولهم {لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}[398].

فالثبات على القيم حصانة للمجتمع من الذوبان وتجعل حياته وحركته إلى الأمام لأنها تسير في إطار العقيدة وسياج الدين، والقيم تحفظ الأمن المجتمعي وتقي من الشرور داخل الأمة لأن تأثيرها أعظم من تأثير القوانين والعقوبات، فإذا تركزت في النفس تكون أكثر قدرة على منع الأخطاء من العقوبة والقانون. وهي التي تشكل شخصية المسلم المتزنة، وتوحد ذاته وتقوي إرادته، والذي لا تهذبه القيم متذبذب الأخلاق، مشتت النفس، ضعيف العزيمة، ينتابه الكثير من الصراعات قال جل ذكر {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[399].

والقيم التي يدعو إليها شيخ الطريقة تجعل للإنسان قيمة ومنزلة ولحياته طعما وتزداد ثقة الناس به، وهي حينما تنشأ مع الفرد انطلاقا من إيمانه وعقيدته وخشيته لله، ينمو مع نمو جسده فكر نقي وخلق قويم وسلوك طيب، وتغذو القيم ثابتة في نفسه راسخة في فؤاده، لا تتبدل بتبدل المصالح والأهواء كما هو في المجتمعات المادية، ويصغر ما عداها من القيم الأرضية الدنيوية قال الله تعالى {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ} لقد كانت القيم الخلقية مغروسة في أجيال السلف الصالح قولا واعتقادا وممارسة وعملا.

والأيام تظهر لنا عظمة القيم التي يؤصل لها العلامة جمال الدين القادري، فهذه الأمم اليوم تترنح ويتوالى الانهيار فيها منذ فجر التاريخ، تنهار الأمم لضمور المبادئ وهشاشة

---

[397]- سورة الأعراف الآية 112.

[398]- سورة طه الآية 71.

[399]- سورة الملك الآية 23.

القيم التي أقيمت عليها، وتقف أمة الإسلام شامخة بإسلامها، قوية بإيمانها، عزيزة بمبادئها، ممكن لها بصلاحها {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}[400].

وفي المقابل إذا فسدت القيم والأخلاق انهار الإنسان وأصبح كائنا مفسدا، وإن نظرة إلى بعض الأقوام الماضية في تاريخ البشرية، نجد أنهم هلكوا بسبب انحرافهم وفساد قيمهم.

والقرآن الكريم أشار في أكثر من موضع إلى انحطاط الأمم وهلاكها بسبب أزمة القيم داخلها وموت الضمير بين أفرادها، وغياب الصالح الناصح المصلح فيها. وبين سنة الله في خلقه وأن عذابه لا ينزل إلا بتجاوز الخلق حدود الله {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[401]، إن حضارتنا تنتحر لغياب الوازع الديني والبعد القيمي، وسوف يجيء يوم قريب يتحول فيه النظام إلى فوضى، وينعدم التوازن وضبط النفس، ويتفشى الشر في كل مكان ويبدوا أن الأمور لن تستقر إلا بالعودة إلى الله[402].

فالقيم في رؤية مشيخة الطريقة البودشيشية هي العاصم من الفتن والحافظ للمجتمع في تماسكه وقوته ووحدته.

وفي كل ملتقيات الطريقة البودشيشية وتصريحات شيخها الرضي ونجله الوفي، نرى التركيز على القيم والتحذير من كل ما يهددها ويزعزع بنيانها ويخلخل توازنها، ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن أزمة الأمة اليوم هي أزمة قيم وأخلاق، وقد سجلت الأمة في فترات رسوخ الدين وعلم الإسلام مبادرات من الأعمال الخيرة والسلوك الرصين أثارت الإعجاب وادهشت المنصفين قال سبحانه {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}.

ولا يخفى على ذي لب ما تقوم به الطريقة القادرية البودشيشية من أدوار داخل المملكة المغربية وخارجها، فهي مصطفة بشيخها ومريديها ومريداتها مع النظام السياسي والمؤسسة الملكية في قضاياها الكبرى ومنها قضية الصحراء المغربية والسعي من أجل وحدتها الترابية، فعلى مستوى الممارسة ترشد المريدين والمريدات بالأذكار والسلك القرآنية وتنظيم المجالس لإقامة الذكر والدعوات الصالحة.

---

[400]- سورة الأنبياء الآية 104.

[401]- سورة العنكبوت الآية 40.

[402]- تحصين الأمة وحماية الملة القاضي برهون ص 574 الطبعة الأولى 2012/1434 منشورات دار العفاني.

أما على مستوى التنظير فتنظم مؤسسة مشيخة الطريقة ندوات وفعاليات ثقافية وفكرية لتأكيد مغربية الصحراء وتنوير الرأي العام بخطورة المناورات العدائية التي تهدف إلى ضرب وحدة المغرب الترابية.. ومن القضايا أيضا قضية الإرهاب الذي أصبح يؤرق العالم برمته ويزهق الأرواح البريئة في كل مكان فنلاحظ دور الطريقة في معالجة ذلك وقد أشرت إلى بعض الملتقيات الفكرية التي نظمتها الطريقة وكانت كل محاورها تهدف إلى إبراز خطورة التطرف الديني والغلو العقدي اللذين ينتج عنهما زعزعة أمن المجتمع وإزهاق أرواح الأبرياء.

وفي المقابل تجلى للرأي العام أهمية الوسطية والاعتدال فكرا وممارسة، ونعمة الأمن والاستقرار ومالها من الآثار الطيبة، فهما مقررنان بالغذاء والطعام {أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}[403].

ومن ينظر إلى الدول التي تعرف اقتتالا عرفيا وفتنا طائفية يدرك أهمية الأمن وانخراط الطرق والزوايا الصوفية في تأهيل الإنسان الذي يحافظ عليه ويجاهد من أجله، ويذكر الله ويتضرع إليه في خلواته وجلواته أن يديمه على بلده وعلى جميع الأمصار والأقطار.

ومما يؤكد على واقعية الطريقة البودشيشية وتفاعلها مع الأحداث الوطنية والدولية، دورها البارز إزاء جائحة كورونا المسماة كوفيد 19، حيث ارشدت مشيخة الطريقة مريديها ومريداتها داخل وخارج الوطن إلى اوراد خاصة عسى الله أن يرفع هذا الوباء عن الخلق وفي غضون هذا السياق جاءت كلمة الشيخ جمال الدين القادري لتؤكد عقيدته الصحيحة وإيمانه القوي بقدرة الله وحكمته، بثت على المواقع الرقمية بمناسبة إحياء ليلة القدر عن بعد، أشار فيها إلى خطورة فيروس كورونا المستجد، الصغير في حجمه والخطير في وقعه وأن هذا يدخل في قضاء الله وابتلائه مستدلا بقوله عز ذكره {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[404].

كما ألمح إلى دور أمير المومنين الاستباقي وتدبيره الرشيد للحد من خطورة هذا الوباء القاتل وأن صحة المواطنين والمواطنات عنده من أولى الأولويات.

كما دعا الذاكرين والذاكرات إلى الاعتراف له تحميل الامتنان وعظيم العرفان.

---

[403]- سورة قريش الآية 4.

[404]- سورة البقرة الآية 155.

وهذا الوباء على حد قوله كما يقضى عليه باللقاح والأدوية، يرفع أيضا بالذكر والتضرع واللجوء إلى الله عز وجل بالأذكار الفردية والجماعية.

والحجر عند شيخنا هو منحة لا محنة، فكم من نقمة في طيها نعمة، على أمل ذهاب الوباء وتجدد القاء وفي انتظار ذلك يوصي الدكتور جمال الدين رضي الله عنه بما يلي:

* الذكر ثم الذكر لأنه يقوي الرابطة الروحية بين الفقير وشيخه.
* محبة الله.
* التركيز على أن سيدنا محمدا هو الباب إلى معرفة الله.
* النظافة القلبية وأهميتها للدخول على الله.
* معية الله وإطلاعه على العبد ومراقبة الخلق.
* اجتناب أماكن الغفلة لأن الفقير يحمل معه نورانية لا إله إلا الله ومعرفة رسول الله
* تعهد الأماكن التي تثير القلوب وتعلي الهمم.
* الشيوخ في التصوف دالة على الخير ليس إلا، فهم وسائل وليسوا غايات.
* أهمية النفقة والخدمة في ترقي الذاكر والذاكرة لله {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ}[405].
* مكانة المرأة أما وزوجة وبنتا، مع الإشارة إلى ضرورة تكوين النساء وإعدادهن للإصلاح والبناء.
* الأبناء وحاجتهم إلى التربية والرعاية.
* فقدان هذه الأرواح يرجعنا إلى الله.
* ذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ((يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخبث)).

فهذه أهم محاور كلمة في هذه المناسبة العظيمة في شهر رمضان الفضيل 1442هـ.

أما كلمته الموجهة إلى عموم مريدي ومريدات الطريقة بمناسبة ذكرى المولد النبوي ربيع الأول 1442هـ، فقد تم بثها في القناة الرسمية لمشيخة الطريقة القادرية وهي تحمل إضاءات فكرية وإشارات وتوجيهات أذكرها على الشكل الآتي:

---

[405]- سورة البقرة الآية 109.

* شاء الله وأراد أن تأتي هذه الذكرى في ظل وباء كورونا قال تعالى {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}.
* الوباء ابتلاء وامتحان، وإعجاز إلهي للعلماء وأن العلماء لازالوا باقي حاجة إلى العلم والبحث لأن العلم بحر لا ساحل، وهو فرصة لابتكار أدوية ولقاحات جديدة.
* الذي سقط مريضا بهذا الوباء –وغيره– لا يظن أن الله يكرهه، بل هو محبوب لديه لحديث رسول الله (إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه، وإن سخط نفاه وأقصاه).

وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دَخَلْتُ علَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ وَهو يُوعَكُ فَقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّكَ تُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا قالَ: أَجَلْ إنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنكُم.

* كل الابتلاءات التي تصيبنا هي ترقية وطهارة بنا في هذه الدنيا بشرط الصبر والرضى.
* أهمية النظافة والطهارة وإتباع نصائح الأطباء العلماء.
* أهمية الذكر لورود الآيات القرآنية في فضله، واستدل ببيتين نفيسين من كلام أهل الله:

الذكر أعظم باب أنت داخله ** فاجعل له الأنفاس حراسا
والقلب أفضل بيت فيه تذكره ** فكن له في جنان القلب غراسا

* رغم تباعد الأجساد فإن الأرواح تتلاقى لأنها جنود مجندة كما في الحديث النبوي.
* أهمية قراءة كتاب الشفاء وأوراد دلائل الخيرات وفضيلة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ففيها تفريج للكربات وكشف للغمات.
* إشارته إلى الملتقي العالمي للتصوف الذي دأبت الطريقة على تنظيمه وسيكون هذه السنة عن بعد وعبر وسائل التواصل الافتراضي.
* للحفظ والوقاية ساق آيات وأذكار وأدعية يستحسن المواظبة عليها وهي:

آية الكرسي سبع مرات.

لقد جاءكم رسول من أنفسكم، سبع مرات.

فالله خير حفظا وهو أرحم الراحمين، سبع مرات.

بسم الله على نفسي وأهلي ومالي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبع مرات.

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، سبع مرات.

إن خاتمة البحث تستلزم مسحا فكريا وعلميا لمادة الأطروحة تستثمر في استجماع واستنباط أهم المعالم التجديدية لتكون إضاءات في البحث والسير العلمي لمعرفة التصوف كثابت من الثوابت التي يرتكز عليها النظام المغربي.

فالبحث في الموضوع من خلال أبواب هذا البحث ومباحثه ومطالبه أثبت أن التصوف مر بمراحل تاريخية كرونولوجية فصلها شيخ الطريقة القادرية في الجزء الأول من مؤلفه الذي قمت بتقديمه للباحثين كمادة علمية تعتمد مرجعا لهم في دراستهم لهذا المجال، وفي السياق ذاته يمكن إجمال أهم محاور بحثي فيما يلي:

* التأصيل الشرعي للزاوية كمرحلة من مراحل التدين.
* الدراسات الاستشراقية للتصوف بين مادح وقادح.
* أعلام وشيوخ الطريقة القادرية البودشيشية.
* انفتاح الطريقة القادرية البودشيشية على محيطها في شكل ملتقيات وندوات وأمسيات ومسابقات علمية في مختلف التخصصات.
* معالم التجديد: هي إحياء وإنهاض للهمم.
* الشيخ جمال الدين مجددا في مجال التصوف وعلم السلوك.
* وظائف الطريقة القادرية البودشيشية.
* انخراط الطريقة القادرية البودشيشية في السياقات الوطنية والدولية المعاصرة.
* تأصيل مواقف العلماء القدامى والمحدثين وآراؤهم في علم التصوف.

فكل محور يستحق أن يكون منطلقا للبحث بأن يكون موضوعا مستقلا يعطى له قدره من العناية والدراسة.

ومؤلف شيخ الطريقة –موضوع البحث– بمادته العلمية والمعرفية يتناول موضوعا من الخطورة بمكان، فهو ليس فضاء مفتوحا لكل حائم حازم، ولا أرضا مباحة لكل سائح، ولا حديقة غناء تقصد للتنزه والتفسح والترويح على النفس، ولا كتابا مبثوثا للترف الفكري والتخمة المعرفية، ولكنه لافتة عرفانية دالة على ذاته، تنبه من يحوم حوله ليتناوله بالبحث فيه بأدوات ومصطلحات وضوابط ومعارف وأحكام خاصة لا يفهمها إلا من دخل حماها وذاق أريجها وتمثل إشاراتها.

يا طالب العرفان ** بالحجة والبرهان

أنت أنت حيران ** هائم في ملك الله
سلم لما ترى ** فالسر إن سرى
خلعنا العدارى ** وفنينا في الله
هذه طريق الحال ** لا تعرف بالقال
لا تدرك بالأعمال ** هي من فضل الله
يا قاصد الديار ** إياك والإنكار
حداري والإدبار ** فهذا سر الله

إن المزايدة على التصوف تحطمت على صخرة مؤلف شيخ الطريقة فتبين أن بعض علماء المسلمين، وإظهار أقوال لهم دون أخرى كان محكوما بخلفية ونوايا غير سليمة، وبالتالي لم نجد عالما على مر التاريخ يعادي الصوفية وينكر عليهم طريقتهم في السير إلى الله.

وها أنت أخي القارئ تجد في رسالتي هذه أن شيخ الطريقة جمال الدين تعمق في بطون الكتب ليبرز مواقف العلماء وآرائهم حول التصوف السني، وإجماعهم على ضرورة اتخاذ الشيخ المربي، فمطالعة الكتاب وحده لا يقوى دليلا على تحصيل العلم والمعرفة ولا وسيلة لتزكية النفس ولا مقياسا للعمل والسير إلى الله، لأن من جعل شيخه كتابه غلب خطؤه صوابه.

وهذه الحقيقة أجمع عليها أهل العلم قديما وحديثا، فكان من نصحهم لطالب العلم والتزكية "لا تأخذ القرآن من مصحفي ولا تأخذ العلم من صحفي".

وعموما فشهادات ما ذكر شيخنا من العلماء والمفكرين ومواقفهم من التصوف يعكس أهميته وحاجة الناس إليه في كل الأوقات خاصة في راهنية العصر الحديث، عصر الاستقطاب والتحديات ولسان حالنا وحاله يقول:

يا رب هذي ذنوبي في الورى كثرت * وليس لي عمل في الحشر ينجيني
وقد اتيتك بالتوحيـــد يصحبه * حب النبي وهذا القدر يكفيني.

لائحة المراجع

- الطبقات الكبرى، الشعراني، القاهرة الطبعة الأولى 1425هـ/2005م، الحسين احمد عبد الرحيم السايح.
- الرسالة القشيرية، أبو القاسم القشيري تحقيق معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت.
- العمل الديني وتجديد العقل، د. طه عبد الرحمان، مركز الثقافي العربي الدار البيضاء.
- الإمام أبو الحسن الأشعري ومدرسته الصوفية، أحمد الطيب، الطبعة الأولى 1434هـ/2014م.
- الإبابة في أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري، دراسة وتحقيق محمد حامد محمد نسخة مضبوطة ومصححة.
- الكفاية في معرفة أصول الرواية، الخطيب البغدادي، تحقيق إبراهيم آل بحبح الدمياطي، الطبعة الأولى 1483هـ/2003م، دار الهدى القاهرة.
- الجرح والتعديل، لابن ابي حاتم دراسة وتحقيق أبي همام محمد بن علي الصومعي البيضاني
- أدب الإملاء والاستملاء، للحافظ السمعاني (562هـ) ، دراسة وتحقيق أحمد محمد عبد الرحمن محمد سجود، مطبعة الحمودية .
- البردة للإمام البوصيري منشورات دار التراث البوديلمي.
- التصوف اللإسلامي في المغرب علال الفاسي مطبعة الرسالة إعداد عبد الرحمان الحريشي.
- أنس الفقير وعز الحقير بن قنفد (810هـ) تحقيق محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي.
- الصوفيون والتصوف في المغرب العربي حتى القرن الرابع، لمياء عز الدين الصباغ، المجلد السابع، عن مجلة كلية العلوم الإسلامية، الموصل 1434هـ/2013م.
- الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، محمد أركون ترجمة و تعليق هاشم صالح المؤسسة الوطنية للكتاب.
- التفسير الكبير، الرازي دار الفكر للطباعة و النشر الطبعة الأولى1401هـ-1981م.
- الوابل الصيب في الكلم الطيب، ابن القيم تحقيق سيد إبراهيم دار الحديث القاهرة طبعة 1411هـ.

- السنن، البيهقي تحقيق محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية الطبعة الثالثة 1424هـ-2003م.
- الهمزية، للإمام البوصيري مخطوطات جامعة الملك سعود.
- المنهج الصوفي والحياة العصرية فوزي محمد أبوزيد، طبعة دار نون للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، دون التاريخ.
- الإمام البخاري الجامع الصحيح الطبعة الأولى 1423هـ/2002م دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.
- القاموس المحيط، الفيروزابادي دار الحديث القاهرة، طبعة 1429هـ/2008م.
- المصباح المنير: الفيومي المقري (770هـ(مكتبة لبنان.
- إسلامية المعرفة، مجلة الفكر الإسلامي العدد 86، 1487هـ/2016م.
- الاجتهاد والتجديد في علوم السنة عبد الجبار سعيد طبعة 2016م الناشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي .
- الأعمال الكاملة الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية عمر عبيد حسنة طبعة بيروت المكتب الإسلامي للطباعة و النشر.
- التجديد في الفكر الإسلامي د.عدنان محمد أمامة الطبعة الأولى رجب 1434هـ دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية ، الطبعة الأولى دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع جدة الرياض.
- الاشباه والنظائر للسيوطي دار الكتب العلمية بيروت. الطبعة الأولى 1411هـ-1991م.
- الفقيه والمتفقه الخطيب البغدادي دار الوطن بالرياض الطبعة الأولى 1418هـ/1997.
- التجديد في الفكر الإسلامي عدنان أبو أمامة دار ابن الجوزي الطبعة الأولى 1424هـ.
- الموافقات، الشاطبي (790هـ) دار ابن عفان الطبعة الأولى 1417هـ/1997م.
- التصوف في مصر والمغرب، ذ. منال عبد المنعم جاد الله الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية.
- البغوي (516هـ) مصابيح السنة المجلد الثاني دار المعرفة بيروت لبنان الطبعة الأولى 1407هـ/1987م.
- إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي دار المنهاج للنشر و التوزيع الطبعة الأولى 1432هـ-2011م.

- الترمذي (279هـ) جامع السنن مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الأولى (بدون تاريخ).
- خطب الرسول (ص) جمع محمد خليل الخطيب طبعة دار الفضيلة للنشر والتوزيع.
- الصوفية والفقراء، ابن تيمية، تهذيب وتعليق طبعة دار الفكر العربي، بيروت 1993 زهير شفيق الكبي.
- العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي الطبعة الثانية 1997.
- الطبقات الكبرى للشعراني(973هـ)، والإسلاميات عبر النت www.al_mastafer.com.pdf وأيضا مقال الحارث بن أسد المحاسبي وخصائص مدرسته في التصوف من موقع طواسين للتصوف والإسلاميات موقع إلكتروني .
- الفواكه الدواني، باب في الجهاد دار الكتب العلمية، الإمام النفراوي بيروت لبنان الطبعة الأولى 1428هـ/1997.
- الجهاد والفدائية في الإسلام حسن أيوب (2008م) دار الندوة الجديدة بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1403هـ/1983م.
- العمل الديني وتجديد العقل، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي الطبعة التاسعة 1997.
- التسامح في الإسلام: المبدأ والتطبيق، شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر لبنان الطبعة الأولى 1414هـ/1993م.
- الزاوية الشرقاوية، زاوية أبي الجعد دورها الاجتماعي والسياسي، أحمد بوكاري، الطبعة الأولى 1409هـ/1989م.
- الغنية لطالبي طريق الحق، للشيخ عبد القادر الجيلاني، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.
- الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ترجمة د. عمر فروخ دار العلم للملايين منتدى سور الأوربية www.book4all.net.
- الجهاد والسير، البخاري، الطبعة الأولى 1423هـ/2003. دار ابن كثير للطباعة والنشر.
- السلسلة الصحيحة الألباني بيروت لبنان بلا تاريخ الطبع.
- الديلمي في مسنده ، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1406هـ/1986م.
- الإمام مالك، المؤطأ دار الإحياء للتراث العربي طبعة 1406هـ–1985م.
- الفوائد بن قيم الجوزية، دار علم القواعد للنشر والتوزيع تحقيق محمد عزيز شمس.

- الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ابن القيم الجوزية (751هـ) دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع الطبعة الأولى (1428هـ
- الصوفية في إلهامهم حسن كامل الملطاوي، ، طبعة القاهرة 1419هـ/1999م.
- المغرب عبر التاريخ، د.إبراهيم حركات، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الطبعة 1415هـ/1994م.
- التصوف والمجتمع، عبد اللطيف الشاذلي، طبعة 1989، دار النشر سلا.
- الزاوية الشرقاوية، الطبعة الأولى 1989 الناشر: مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- البداية والنهاية، ابن كثير (774هـ)، طبعة 1412هـ/1991م، مكتبة دار المعارف بيروت– لبنان.
- الأحداث المنحرفون عوامل الانحراف، محمد علي جعفر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، طبعة 1984.
- الزاوية الشرقاوية، أحمد بوكاري، الطبعة الأولى 1409هـ/1989م
- التصوف في مصر والمغرب، منال عبد المنعم جاد الله، دار المعارف للنشر الاسكندرية مصر.
- الاستقصاء لأخبار حول المغرب الأقصى، المجلد الرابع، لأحمد خالد الناصرني ، طبعة دار الكتاب الدار البيضاء، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري 1418هـ/1997م.
- الخطاب الصوفي في الغرب الإسلامي، محمد مفتاح.
- المغرب عبر التاريخ، د. إبراهيم حركات، من صفحات، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء الطبعة الثانية 1415هـ/1994م.
- إميل دوركايم، دراسة في علم الاجتماع البنائي. د. حسام الدين محمود فياض، الناشر مكتبة نحو علم اجتماع تنويري (2018م(
- "التنشئة الاجتماعية بين الأمس واليوم"عبد العزيز جميل لم يطبع بعد.
- الحقيقة القلبية الصوفية، أحمد لسان الحق، ودورها في إصلاح الفرد والمجتمع بروح التسامح والمسالمة في السلوك الصوفي، اطلعت على الكتاب عبر موقع نفحات الطريق، الطبعة الأولى 1999م.
- البعد التوحيدي للذكر في الإسلام، الوسيلة والغاية، محمد بنيعيش، الطبعة الأولى. 1420/1999، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان دخلت للكتاب عبر موقع نفحات الطرق.

- الحضور الصوفي في زمن العولمة، د. منير القادري بودشيش، الطبعة الأولى 1425/2004،.
- إبعاد الغمم عن إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة (1266ه) تصحيح وتنقيح د. عاصم إبراهيم الكيالي دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.
- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، زكي مبارك ، طبعة 2012 مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- الحضور الصوفي في زمن العولمة، نجلاء بوجه، سنة الطبعة 2017/2016.
- انتشار الإسلام في إفريقيا، د حورية توفيق مجاهد، عبر goodreads.com.
- دعوة الحق، ع 202.
- الخطاب الصوفي في الغرب الإسلامي، ذ. محمد مفتاح رؤية للنشر والتوزيع طبعة 2014م.
- الاعتصام، للشاطبي مكتبة التوحيد الطبعة الثانية 2007.
- الموافقات أبو إسحاق الشاطبي دار ابن عفان للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 1417ه/1997م، ضبط وتحقيق مشهور بن حسن آل سليمان تقديم بكر بن عبد أبو زيد.
- الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية سلسلة التراث العلمي العربي.
- المنقذ من الضلال. الغزالي، دار الأندلس للنشر والتوزيع لبنان.
- مسائل ابن رشد الجد، محمد الحبيب التجكاني، دار الأفاق الجديدة–المغرب، الطبعة الثانية 1414ه/1993م.
- مجلة جامعة دمشق عدد1و2 السنة 2007.
- الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام، عبد الله بن الصديق، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.
- الطبقات الصوفية، أبو عبد الرحمان السلمي، تحقيق أحمد الشرباصي الطبعة الثانية 1419ه/1998.
- المعسول، المختار السوسي. مطبعة الجامعة الدار البيضاء طبعة 1381ه–1961م.
- التنشئة الاجتماعية من منظور إسلامي، عبد الفتاح تركي موسى، المكتب العلمي للنشر والتوزيع القاهرة.
- الإسناد من الدين. عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثالثة 1435ه/2014م، بيروت لبنان، دار البشائر الإسلامية.

- الإسناد من الدين، تحقيق محمد الطحان مكتبة المعارف الرباط طبعة 1403هـ/1983م.
- الفوائد والفرائد الحديثية لابي الفضل مسعود بن محمد الحدوش، طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانشاء طريقته، عبد الباقي مفتاح، طبعة دار الكتب العلمية.
- القرآن والحديث مقرنة أسلوبية، إبراهيم عوض مكتبة زهراء الشرق طبعة1421هـ-2000م.
- المرشد المعين للعلامة محمد بن احمد ميارة شارع مرشد المعني لابن عاشر تحقيق عبد الله المنشاوي درا الحديث القاهرة طبعة 1429هـ/2008م.
- الأولياء لأبن أبي الدنيا (281هـ)، تحقيق محمد السعيد بن بسوني زغلول الطبعة الأولى 1413هـ/1993م، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
- إيقاظ الهمم في شرح الحكم العطائية لابن عجيبة (1224هـ) تقديم و مراجعة محمد أحمد حسب الله منشورات دار المعارف.
- الشيخ عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة، د. جمال الدين فالح الكيلاني تقديم عماد عبد السلام رؤوف.
- الزاوية بين القبيلة والدولة محمد جحاح تقديم عبد الجليل حليم.
- التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر لعبد اللطيف الشادلي، دار النشر سلا طبعة 1989.
- التبصير في الدين، لأبي المظفر الإسفرايني (471هـ) تحقيق كمال يوسف الحوت، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، طبعة عالم الكتب.
- الطفل والمجتمع علي ليلة، التنشية الاجتماعية وأبعاد الانتماء الاجتماعي، المكتبة المصرية القاهرة 2006.
- الإحياء والتجديد الصوفي في المغرب، أحمد بوكاري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية طبعة 1427هـ/2006م.
- برهان غليون الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر الطبعة الأولى 1991م.
- بغية الطلب في تاريخ حلب كمال الدين ابن العديم دمشق، حققه وقدم له د. سهيل زكار، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان.
- تاريخ وجده وانكاد في دوحة الأمجاد. د. م إسماعيل م عبد الحميد العلوي ج 2. الطبعة الأولى 1405هـ/1985م مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

- تاريخ التشريع الإسلامي، محمد الخضري بك، الطبعة الثانية 1387هـ/1967م دار الفكر.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 1422هـ-2001م.
- تربيتنا الروحية، سعيد حوى. الطبعة السادسة 1419هـ/1999م دار السلام للطباعة والنشر القاهرة.
- تجديد الفكر الديني، ترجمة محمد يوسف عدس تقديم الشيماء الدمرداش العقالي، دار الكتاب المصري القاهرة.
- تاج العارفين، دراسة جمع وتحقيق سعاد الحكيم، دار الشروق. وكذا الرسالة القشيرية، نشر دارجوامع الكلم، القاهرة طبعة مكتبة الثقافة الدينية.
- حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى (1412هـ) الطبعة الخامسة والعشرون، على نفقة أولاده.
- حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى طبع على نفقة ورثة المؤلف بلا تاريخ للطبع.
- جهود المستشرقين في دراسة تاريخ التصوف. زهير عليوي يوسف الحيدري مجلة أولوك للأبحاث الإنسانية العدد الثالث 2010م.
- دور الإسناد في الحفاظ على السنة النبوية، د. بشرى محمد أحمد منشورات الحديث والتراث النبوي.
- ديوان أبي مدين التلمساني (594هـ) إعداد وجمع سليمان القرني وعبد القادر سعود.
- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، ابن عسكر الشفشاوني تحقيق محمد حجي طبعة 1397هـ/1977م.
- ذكر الله وتحصيل الحضور، أحمد الرحيحات، مطبعة الساحل، الرباط 1992م.
- روضة التعريف بالحب الشريف، لسان الدين بن الخطيب بحقيق عبد القادر أحمد عطا عبد الستار قدم له عن الكتابي، دار الفكر العربي.
- رياض الصالحين، الإمام النوري (676هـ) الطبعة الأولى محرم 1421هـ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع السعودية.
- زبد خلاصة التصوف (حل رموز ومفاتيح الكنوز)، تحقيق محمد بعد الرحمان الشاغول، الجزيرة للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.
- سير اعلام النبلاء، الذهبي ترتيب حسان عبد المنان، طبعة بيت الأفكار الدولية.
- سراج الغيوب في أعمال القلوب، عبد الكبير بن عبد المجيد عليوات، تحقيق عبد الله شريف وزاني، كتاب ناشرون، بيروت لبنان.

- سنن ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي مطبعة دار الاحياء الكتب العربية،
- سنن الإمام أبو داود (275هـ) تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية–بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1416هـ/1996م.
- سنن النسائي، الطبعة الأولى 1435هـ/2014م مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان الطبعة الأولى 1416هـ/1996م.
- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي. تحقيق مأمون الصاغرجي وشعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى 1401هـ/1981م.
- سلم الارتقاء، في منشأ التصوف ووجوب شيخ التربية، تحقيق إسماعيل المساوي دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 2005م.
- شرف أصحاب الحديث–البغدادي ج الأول، تحقيق عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة العلم بجدة الطبعة الأولى 1417هـ/1996م، وابن عساكر في تاريخ دمشق 30/38.
- شرح الأربعين النونية عمر عبد الجبار دون ذكر الطبعة و تاريخها.
- شروط أصحاب الحديث للحافظ الخطيب البغدادي (392هـ/463هـ)، تحقيق عمر عبد المنعم سليم مطبعة ابن تيمية القاهرة.
- شفاء السائل، لابن خلدون (808هـ) تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1417هـ/1996م.
- صحيح الإمام مسلم (261هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1412هـ/1991م.
- صحيح الجامع ناصر الدين الألباني الطبعة الثالثة 1408هـ–1988م منشورات المكتب الإسلامي.
- صحيح الأدب والمفرد، ناصر الدين الألباني، الطبعة الرابعة 1418هـ/1997م مكتبة الدليل البغدادية.
- صفوة الصفوة لابن الجوزي تحقيق خالد مصطفى طرطوس، دار الكتاب العربي لبنان طبعة 1433هـ/2012م.
- ضعيف الجامع الألباني، إشراف زهير الشاويش طبعة المكتب الإسلامي.
- طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمان السلمي، تحقيق د.أحمد الشرباصي الطبعة الثانية 1419هـ/1998م.
- طبقات الصوفية: أبو عبد الرحمان السلمي، دار الكتب العلمية، طبعة 2003م.

- عدة الصابرين ابن قيم الجوزية دار ابن كثير بيروت و مكتبة دار التراث المدينة المنورة الطبعة الثالثة 1409هـ-1989م.
- عون المعبود على شرح نسن أبي داود شرف الحق العظيم آبادي، الطبعة الأولى 1426هـ/2005م، دار ابن حزم بيروت لبنان.
- علم الاجتماع: أسسه وتطبيقاته، زين العابدين درويش، دار الفكر العربي القاهرة 1999.
- عوارف المعارف، شهاب الدين السهروردي (632هـ)، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار المعاريف القاهرة (بدون التاريخ).
- غذاء الألباب شرح منظومة الآداب أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (1188هـ) دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ضبط وتصحيح، محمد عبد العزيز الخالدي، الطبعة الأولى 1417هـ/1996م.
- فهرس الفهارس والأثبات، عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، دار الغرب الإسلامي بيروت.
- في التصوف الإسلامي وتاريخه للمستشرق رينولد نكلسون بتصرف ترجمة وتعليق أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1366هـ/1947م.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير المناوي، ، الطبعة الثانية 1391هـ/1972م، دار المعرفة، بيروت لبنان.
- فقه الجهاد في الإسلام، حسن أيوب، دار السلام للطباعة والنشر-القاهرة الطبعة الأولى 1422هـ/2002م.
- في فلسفة ابن رشد الوجود والخلود، محمد بيطار، دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان.
- قواعد التصوف أحمد زروق (899هـ) تقديم نزار حمادي، المركز العربي للكتاب الشارقة.
- قواعد التحديث والفصل لابن حزم 2/69-70 محمد جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- قلائد الجواهر محمد بن يحيى التادفي طبعة على نفقة عبد الجميد أحمد حنفي.
- قواعد الأحكام في مصالح الإمام عز الدين بن ع السلام، طبعة 1411هـ/1981م، مكتبة الكليات الأزهرية مصر القاهرة.
- قاموس علم الاجتماع، محمد عاطف غيث، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1979.
- لسان العرب، ابن منظور، الناشر دار صادر بيروت طبعة 2009م.
- موجز تاريخ تجديد الدين، المودودي أبو الأعلى، الطبعة الثانية 1386هـ/1967م دار الفكر الحديث، لبنان.

- مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة، للعلامة جمال الدين القادري،
- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمان بن خلدون دراسة وتحقيق عبد الواحد وافي نهطة مصر للطباعة والنشر طبعة 4، 2006،.
- موسوعة أعلام المغرب تنسيق و تحقيق محمد حجي دار الغرب الإسلامي.
- معالم الهدى إلى فهم الإسلام، مروان إبراهيم القبين الطبعة الأولى 1406ه/1985م المكتبة الإسلامية، عمان الأردن.
- منهاج السنة النبوية ابن تيمية تحقيق محمد رشاد سالم.
- مجموعة رسائل بن عابدين، (النسخة التي أخذت منها هذا القول لا تتضمن أي إشارة عن الطبعة).
- مفتاح دار السعادة ابن القيم دار ابن عفان العربي الطبعة الأولى 1416ه/1996م.
- مذكرات في منازل الصديقين والربانيين سعيد حوى دار عمار بيروت طبعة 1409ه-1989م.
- مدخل إلى التصوف الإسلامي، أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، الطبعة الثالثة، دار الثقافة والنشر مصر القاهرة 1399ه/1979م.
- مشكاة المصابيح. محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي منشورات المكتب الإسلامي طبعة بيروت 1399ه-1979م.
- مسند أبي يعلى تحقيق إرشاد الحق الأثري الطبعة الأولى 1408ه/1988م دار القبلة للثقافة جدة ومؤسسة القرآن بيروت ورقم الحديث في المعجم الكبير الطبراني 5779.
- مصنف عبد الرزاق تحقيق مركز البحوث نشر دار التأصيل الطبعة الأولى 1436-2015م.
- مجموع الفتاوى لابن تيمية تحقيق عامر الجزار وأبو الباز.
- مدارج السالكين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، مراجعة لجنة من العلماء بإشراف الناشر.
- مقدمة في علم الإجرام، محمد إبراهيم زيد، دار الثقافة القاهرة، الطبعة الأولى 1980.
- مقدمة ابن خلدون، الفصل الثامن عشر، في علم التصوف، تحقيق عبد الله محمد الدروشي، الطبعة الأولى 1425ه/2004م مكتبة الهداية دمشق سورية.
- معلمة المغرب نشر مطابع سلا الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر.
- منية المتطلعين المختار السوسي تقديم محمد المختارعبر PDF BOOKS .

- معجم علم النفس والطب النفسي، جابر عبد الحميد علاء الدين كنافي، دار النهضة القاهرة، طبعة 1995. إعداد د. جابر عبد المجيد جابر.
- مجلة دراسات إفريقية العدد 6 رجب 1410/ فبراير 1990.
- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار دارالمعارف دون تاريخ .
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي (963هـ)، منشورات دار الكاتب طرابلس، الطبعة الثانية 2000م.
- نبراس المريد في طريق التوحيد، تأليف أحمد قسطاس، مطبعة فضالة، طبعة 1414هـ.
- وظيفة السماع الصوفي، محمد الموضح، مجلة الإشارة ع 26 س 4 مارس 2003.

الفهرس

المدخل التمهيدي---------- 1

أولا: الطريقة البودشيشية طريقة تبلورت إلى ظاهرة عالمية---------- 6

ثانيا: بين التصوف السني والمذهب المالكي---------- 9

ثالثا: صلة التصوف بالعقيدة الأشعرية---------- 15

الباب الأول: الزاوية القادرية البودشيشية ودورها في خدمة التصوف السني بالمغرب---------- 25

الفصل الأول: السند---------- 26

الفصل الثاني: الدراسات الاستشراقية حول التصوف بين الأمس واليوم------- 40

الفصل الثالث: أعلام وشيوخ الطريقة القادرية البودشيشية---------- 51

المبحث الأول: أهم محاور كلمة شيخ الطريقة القادرية ذ. جمال الدين القادري--- 51

المبحث الثاني: الشيخ حمزة بن العباس ودوره في تجديد مؤسسة الطريقة------ 54

المبحث الثالث: شيوخ الطريقة القادرية البودشيشية ما قبل الشيخ حمزة رحمه الله-- 57

الفصل الرابع: الشيخ المربي كما يراه الدكتور---------- 67

الفصل الخامس: المؤتمرات والملتقيات والمقالات حول الطريقة---------- 73

المبحث الأول: الدبلوماسية الروحية جسر حضاري لتعزيز التواصل مع الآخر--- 73

المبحث الثاني: أهم مجريات فعاليات المؤتمر العالمي للتصوف الذي انعقد بمصر 2011/9/24---------- 79

المبحث الثالث: حوارات ومقالات---------- 80

أولا- حوار مع الدكتور محمد مهنا: التصوف دعوة للبناء والمحبة 5 يونيو 2018- 80

ثانيا- مقالات للفيلسوف (طه عبد الرحمان)---------- 80

ثالثا: مقال لصاحبه: خالد ميار الإدريسي---------- 81

المبحث الرابع: نماذج من ملتقيات الطريقة القادرية العالمية---------- 82

أولا- الملتقى العالمي التاسع للتصوف 2015---------- 82

ثانيا: الملتقى العالمي العاشر للتصوف---------- 83

الباب الثاني: معالم التجديد عند العلامة د. جمال الدين القادري--------- 85

الفصل الأول: دراسة منهجية نقدية لمؤلف جمال الدين القادري---------- 86
المبحث الأول: دراسة المعارف وتحديد المفاهيم---------- 86
1- الاشتقاق اللغوى لكلمة المعالم---------- 86
2- تعريف التجديد---------- 87
3- فكر جمال الدين القادري بودشيش ونظرته للطرق الصوفية وشيوخها------ 103
4- معالم التجديد في فكر الدكتور جمال الدين---------- 108
المبحث الثاني: مؤلف جمال الدين الديني موضوع البحث والدراسة---------- 114
أ- خطوات عريضة لدراسة كتاب شيخ الطريقة---------- 114
ب- التصوف السني بالمغرب من التجربة الفردية إلى المؤسسة والتنظيم------ 120
الفصل الثاني: المقاصد والدلالات---------- 128
المبحث الأول: مقاصد ودلالات كتاب الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة د. جمال الدين القادري---------- 128
المطلب الأول: الطريقة القادرية البودتشيشية والسياق السياسي في مؤلف الشيخ-- 128
المبحث الثاني: الطريقة القادرية وإشعاعها الديني والعلمي---------- 146
1- مؤسس الطريقة---------- 146
2- قواعد الطريقة القادرية---------- 146
3- شروط الشيخ المرشد عند مؤسس الطريقة---------- 148
المبحث الثالث: الوظيفة الاجتماعية للطريقة القادرية---------- 150
أولا: التنشئة الاجتماعية---------- 150
ثانيا: التكافل الاجتماعي داخل زاوية الطريقة القادرية البودشيشية---------- 155
أ- إطعام الطعام---------- 156
ب- الإيواء---------- 157
ثالثا: مقاربة مؤسسة الزاوية في الإدماج الاجتماعي---------- 158
رابعا: الصلح والتحكيم---------- 161
أ- الصلح بين الأفراد---------- 162
ب- التوسط بين القبائل---------- 163
ج- الوساطة بين القبائل والسلطة---------- 166

خامسا: التجديد في فن السماع والمديح---------- 176
سادسا: انفتاح الطريقة القادرية على العالم الإسلامي -إفريقيا نموذجا-------- 185
الباب الثالث: التأصيل العلمي لعلم التصوف وأقوال العلماء عبر التاريخ من خلال كتاب مؤسسة الزاوية بالمغرب بين الأصالة والمعاصرة ذ. جمال الدين القادري---------- **195**
المبحث الأول: رؤية ابن خلدون لعلم التصوف---------- 196
المبحث الثاني: أبو اسحاق الشاطبي وآراؤه في التصوف---------- 206
المبحث الثالث: رؤية أبي الوليد ابن رشد (595هـ) للتصوف---------- 215
المبحث الرابع: علماء بن الصديق ومواقفهم الصوفية---------- 219
1) عبد الله بن الصديق---------- 219
2) عبد العزيز بن الصديق الإمام المحدث (1413هـ)---------- 220
المبحث الخامس: الحضور الصوفي في شخصية المختار السوسي (1383هـ)--- 224
المبحث السادس: التأصيل الشرعي للتصوف الشيخ عبد الله بن بيه--------- 227
المبحث السابع: إجراء حوار مع وزير الأوقاف أحمد التوفيق بتاريخ 22 نونبر 2017---------- 229
المبحث الثامن: القرضاوي والتصوف---------- 231
خاتمة البحث---------- 235
لائحة المراجع---------- 243
الفهرس---------- 254